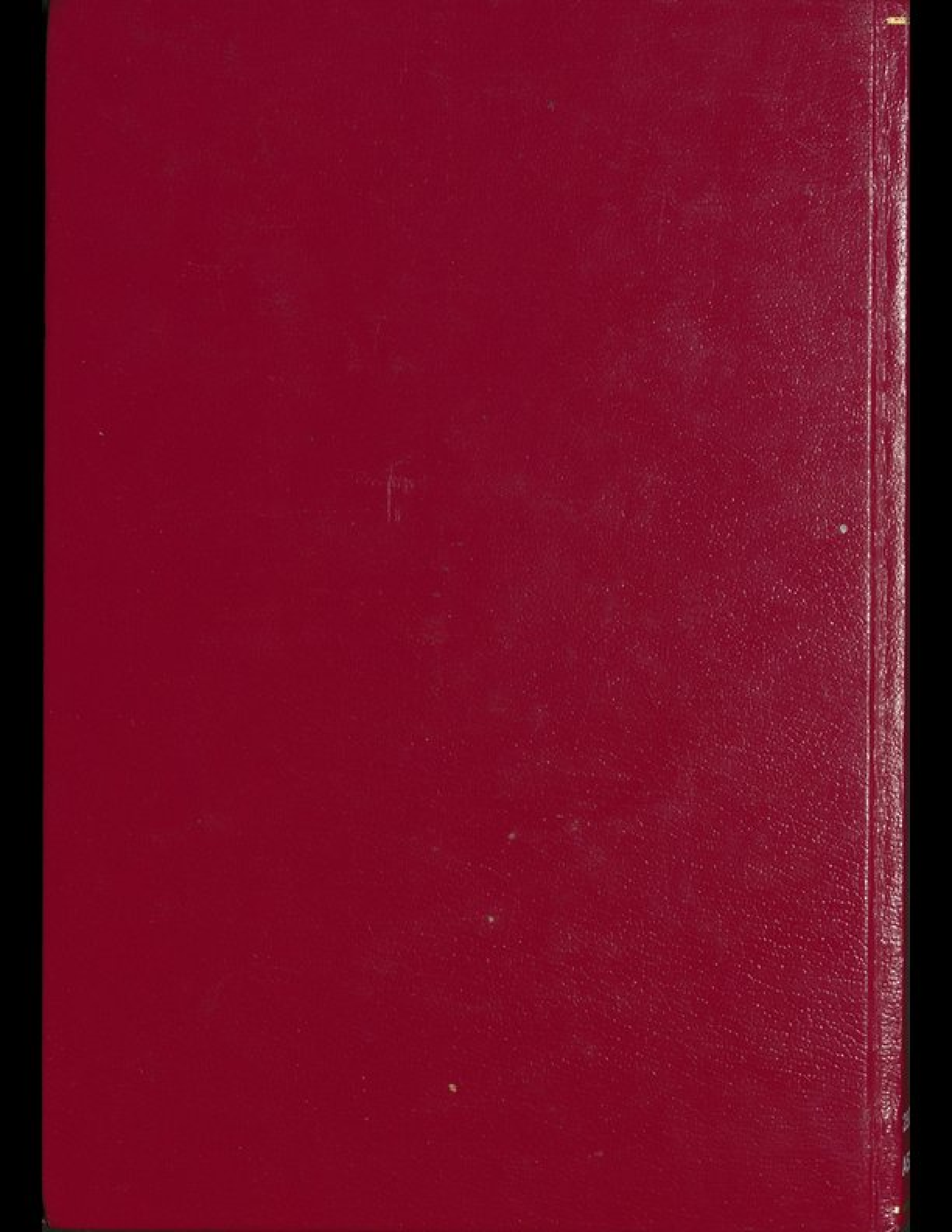
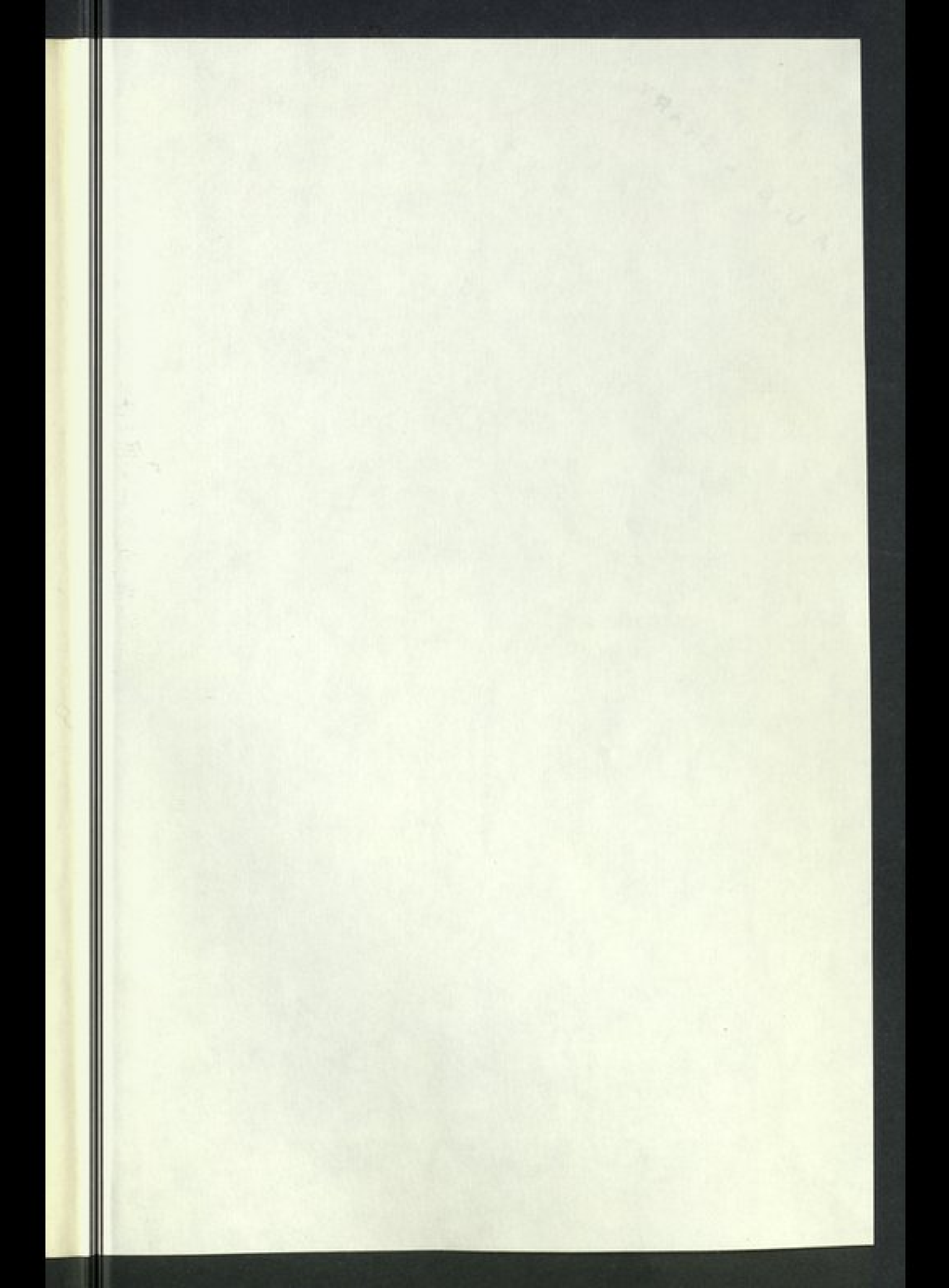



AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT
UNIVERSITY
LIBRARY



مناقب الدّروز في العقيدة والتاريخ

نشر وتوزيع مكتبة ناصيف
عماطور ـ الشوف

سامي أبو شقرا
« دكتور في الفلسفة »

إهداء

إلى صاحب السماحة الشيخ محمد أبو شقرا

عرفاناً بالجميل الأعم،

وتقديراً للمنجزات المتتالية والمناقبية الأثيلة،

أقدم كتابي هذا

متمنياً على لجنة المؤسسة الصحية

في «بقعاتا»، أن تعتمد ما يعود من ريعه،

لوضع لبنة في حرم المؤسسة العتيد.

سامي ابو شقرا

توضيـــــح

منذ قرابة الف عام ، تربّع الامام العظيمُ ـ في المعتقد الدرزيّ ـ حمزة بن علي بن احمد ، في صدر جامع (رَيدانَ) بالقاهرة ، وكشف للملأ ، كل الملأ ، جوهرَ التوحيد الدرزي، ليُبكمَ المتفوّهين المتاجرين، بأسم الدين عن: حقيقة الخالق ، ومآلِ النفس البشرية ، وبهارج الجنة ومآسي الجحيم ٠٠ وما هنالك من ما وَرائيات ، شطحت بها العقول القاصرة ، الى اللّا حدود٠ الى العَدم ٠٠

ان ابا هذا الجوهر وأمه : **العقلُ**، العقل بكل فاعلياته ، وبكل ما يحدده العلم الحديث ٠ وهل كانت العلوم على انواعها ، وعلى كل ما حققت وأبدعت ، وما ستحقق وستبدع ، الا بَوارقَ ، التمعت وتالقت ، وسيتصاعد تالّقها ، مع الزمن ، هل هذه العلوم ، سوى ومَضاتٍ يدفعها ذلك **العقل الاعظم** ، في كل دور ، ليتعزز بها الانسان ، وتتفتح لبصيرته ، كُوى الغوامض والغيبيات ؟؟

ما كان يُعتبر (ميتافيزيا) في مذهب التوحيد الدرزي ، اضحى مُعترفًا به ، في كثير من المدارس الفلسفية العالمية ، حتى المادية منها : من ابعاد التجلّي ، الى سلطان العقل ، الى التقمص والتذكر وخلود النفس ٠

وكيلا نبتعد عن موضوع هذا الكتاب ، نعتذر من القارىء الكريم في صدوف القلم عن الاطالة في هذا البحث ، منوّهين ومَضا عن الاسباب التي اوجبت والحت علي ، في التحدث عما يُغمز اليه بكلمة : (طائفية) ٠ وليست الكلمة ابدًا ، هي التي اضطرتني لهذا البحث والتنقيب ، انما هناك تضليلٌ عن تعمّد ، وهناك حق سُلب ٠٠ وطُمس ٠٠ وما يزال ٠ ومن توانى عن حقه ، فمُغفّل او جبان ، والصفتان عدوتان للمنهج الدرزي ٠ وهناك تاريخ ٠٠ من كذّبه ٠٠ لَفَظتهُ الانسانيةُ ونبذته نبذًا ٠

كيف أستُبيحَ هذا الحق ؟؟ استُبيحَ في :

١ ـ التَعتيم المُطبق ، على الدور النضالي العربي ، والقياديّ احيانًا ، الذي استُشهد في غَمرته الافُ الشبان والقادة الدروز ، في كفاحهم ضد مُجتاحي اوربة وكل مجتاح ، حتى معركة الاستقلال سنة ١٩٤٣ ٠ اي نَيّف وثماني مئة عام٠

٢ ـ المناقب الدرزية الاصيلة ، التي شاؤوا ان تعبث بها عواصفُ الهوى والتعصب الذميم ، لتستودعها رُجم الغيب .

٣ ـ تسخير بعض حمَلة القلم الرخيص ـ وفي لبنان خاصة ـ مُنجرفين في حُثالة سواقي الطائفية ، لتشويه الحق الصُراح ، والواقع الناصــع ، وتبنّي الخيال الطائش ، خاصةً في بعض المجلات الحديثة المُستَشرِيـــة . اولئك الذين تغرّبوا عن حُسن الجِوار ، تغربوا عن الوطنيـــة والعروبة ، تغرّبوا حتى عن ابسط مناقب الانسان ، طمعًا في إشباع نَهَــم غِيــلان التَقوقُع والطائفية .. والاستعمار .

مع عواملِ غيرها ، حدَتْ بي كلها ، لاصدار هذا الكتاب بعنوانه : مناقب الدروز في العقيدة والتاريخ . آخذًا بساعدي سماحة الشيخ محمد ابـــو شقرا ، شيخ عقل الطائفة الدرزية .

وسيتَحقق القارىء المجرّد ، من ان كل ما اثبته هنا ، انما هو صدىً داوٍ وصادق ، لاقوال ائمة الفكر ، من عرب واعاجم ، لا تربط معظمَهم بالدروز لا صداقاتٌ ، ولا معتقد ، ولا لغة وارض ، سوى رغبةٍ مُلحّة بنفوسهم ، في بعث شموس الحقيقة ، من دامس مدفنها ، خدمة للعلم والخُلـــق .. لا للطائفية ابدًا .

شكرًا لأولئكَ الباحثين ..
وشكرًا لقارئي المُنصف ..

سامي

العهد القديم

عناصر البحث :

أ ـ أولى المعتقدات الروحية

ب ـ التجلي

ج ـ العقل الاعظم

د ـ التقمص

هـ ـ من مناقب العقيدة

و ـ التذكر

تاريخ التوحيد :

أ ـ في مصر الفرعونية

ب ـ في المشرق (الاقصى وفلسطين)

ج ـ في اليونان القديمة

د ـ في الاسلام

هـ ـ في العصر الفاطمي

و ـ بعيد حجبة الحاكم

العَهدُ القَديم

قِدمُ العالم

ايمان عقيدة التوحيد الدرزي ، قاطعٌ بعراقة قِدم العالم ، ومَعادِه الى ادوار سالفة قبل آدم (ابي البشر) · اكدت هذه النظرية واسرفت في المغالاة بهـا ، الفلسفة الهندية · قال المؤرخ سليمان مَظهر (١) ، ما يلي :

« قال القوم في اواسط آسيا ان الاله « أُدينات » قد ظهر منذ (ترليون باليا) والباليا ، مقياس زمني لمدة يستغرقها طائر صغير في تفريغ مساحة مِيلٍ مربع مليءٍ بالشَعر الدقيق ، لو انه نقل شعرة واحدة كل مئة عام » ·

لنا ان نتصور بعد هذا القول ، مدى قِدم الكون وقدم الانسان معه ، ولن نحسب هذا ضربا من الخيال ، او اسطورة تُروى ، فقد صرح معظمُ رجال الفكر الغربي بأن الحضارة الشرقية ، كانت على ارقى مستوى الفكر منذ اقدم العصور ·

كتب الاستاذ الروحي رؤوف عُبيد في مؤلفه « الانسانُ روحٌ لا جسد » (٢) ان المفكّر فكتور كوسان قال : « حين نطالع بامعان فلسفة الشرق القديمة فاننا نقف على كثير من الحقائق العويصة التي تُكرِهنا على ان ننحني اجلالا للفلسـفة الشرقية » · واكّد هذا الرأي الفيلسوف شليخر بقوله : « ان اسمى فلسـفة اوروبية ازاءَ الفلسفة الشرقية كبَصيص ضوء ضئيل ، مقابل فيض من ضـوء الشمس ، تلك الفلسفة القديمة الثابتة ، القائمة على عقيدة خلود الروح ، والعودة الى التجسد ، والايمان بالهٍ واحد » · ويضيف المؤلف : « ان هذا المعتقد يحمل في مضمونه انظمة صارمة من : الزهد ، والتقشف ، وضبط النفس » ·

ان تصريحات رجال الفكر الغربيين ، وهم السبّاقون في هذا الدَور ، عملاً وعلما وفلسفة ، يزيد في ترسيخ ايماننا بمضمون عقيدة التوحيد ، وبما تكتنز من روحانيات وجسمانيات تقدرها حق القدر كل المدارس الفكرية الغربية الحديثة ، خاصة الروحية منها ٠

وقد انتشرت الموسوعة الفرنسية : (التاريخ العام للديانات) ، فصدّرهـا البحاثة الكبير (هنري بروي) Henri Breuil بقوله : « الانسان قديمٌ جدًا وكذلك هي افكاره » ٠

تروي كل المؤلفات التاريخية ان الانسان حين بدأ يعي ، شرع يؤمن بقـوى فوق مستواه، يخافها ويُجلها ، ويتوسل اليها حين يعتريه مكروه ٠ فكانت عبادة قوى الطبيعة اولاً (رياح واعاصير وصواعق ، ثم بحر وجبل وغاب) وانتقل بعدها لعبادة الطَوْطَم (وهو حيوان غالبًا او جماد او نبات) حيث يتصور ان روح احد اسلافه قد حلّ في هذا الطوطم ، فيغدو مقدسا جدا ، ويُحرّم لحمه او اذيته ٠

وقد وجد علماء الأحافير في اماكن مختلفة من اوروبا وافريقيا ، كوما مـن الجماجم البشرية يُستدل منها على ان اولئك الناس كانوا يقدسونها ، فقيـل بعبادة الجماجم وأُعتقدُ ان الحقيقة هي عبادة العقل الذي اتخذ هذه الجماجمَ قميصًا ٠

أُولى المعتقدات الروحية

وتتابعت العصور ، وتطلع الانسان الى السماء ، فعبد اقمارها ونجومها ، وعبد اول ما عبد شمسها ، فانتشرت في المشرق والمغرب عبادة الشمس ، وكانت المدن والهياكل والكهنة والمسلات كلها مسخرةً لتقديس الشمس ، والاشارة اليها ٠

ما برح العالم مقتنعا بأن السلف كان يعبد الشمس بنورها وقرصها ، ويعبـد النار بوهجها ومنافعها ، حتى اطلت العصورُ الحديثة فتمخّضت عن حقائق دفينة طمستها الاجيال ، وكثّفت هذا الطمس ايدي المشركين المضللين ، بغاية قفـل انطلاقات العقل عن كنهِ الحقائق الكونية ، وتضليل النفوس الزكية عن الصراط المستقيم : دينًا ودنيا ٠ فاستمرت جذوات الشرور في اتّقادها ، والانانية الطاغية في نَهَمها وشراستها ، والنفوس المتراخية في تميّعها وفجورها ، وأولو الحَـول والسلطان في طغيانهم واستئثارهم عَمِهين ٠

ان الفئات المهتديةَ التي قيل انها تعبد الشمس والنار ، هي في الحقيقة كانت تعبد القوة الخارقة الخفية ، التي اطلقت هذا الضياء ، وعممت تلك المنافع في الشمس والنار معا · يؤكد لنا هذا اليقين ، الباحثون الغربيون ، بما ثبت لهم من ان القدماء ، البعيدين في القِدَم ، كانوا يُحسون في اعماقهم بقوى عالية ترتعش لها نفوسهم ، وهم في كهوفهم مُنطوون ، فيهفون اليها ويتضرعون لها ، ويهملون ما دونها من طواطم وقوى طبيعية ظاهرة ·

لِنصغ ِالى اولئك المؤرخين والباحثين :

قال (اوغستْ كونت) و (ڤان اند) A. Comte et Van Ende « ان وجود جراثيم الشعور الديني هو منذ بدء تطور الانسان » · وقال المؤرخ الكبير (برستد) « المصريون القدامى هم اولُ من نادى بالتوحيد وانهم كانوا يعبدون القوة الخارقة الكامنة وراء الشمس لا الشمسَ نفسها » · وهكذا قيل عن زَرَادَشْت وعن جماعته المَجُوس : عبّادِ النار المقدسة (تاريخ الشرق القديم تعريب احمد بدوي) ·

وذكر في موسوعة التاريخ العام للديانات (مجلد ١ ، ص ٢٥١ ـ ٢٥٢) ان اوراق البَردي الموجودةَ في (برلين وليدنْ) تدل على ان المصريين القُدامى كانوا يعرفون الاله الاحد الازلي ، وكانوا يطلقون عليه في تلك الازمنة الموغلة في القدم : (**الكائن الاعلى**) وكان يَنفي عنه التدخلَ في شؤون الناس كيلا يوقع فيهم الضرر » ·

وجاء تعقيدة التوحيد الدرزي فجهرت بأصفى ما يكون التوحيد ، ونادت بتجلي المبدع منذ مئات الوف السنين الهًا واحدا احدا صمدا ازليا ابديًا ، ثم اضافت ان الخالق الحق يتجلى لعباده تذكرةً وتأنيسًا من دور لدور · حمل في اول تجلّيه اسمَ (العليّ الأعلى) وهو كما اوضح قدامى المصريين ، لا يتدخل في شؤون الناس ، مُلقيا مهمة تدبير الخَلق ورعايته ومحاسبته على اعماله ، لوليّه وصفيّه : العقل الكلي · وان نفوس العباد كانت في البدء مصابيح في اللانهاية ، ثم لما تكاملت الهَيولى ، تقمصت اجساما بشرية ، وهذه النفوس هي جواهر خالدة تنتقل من جسد آدمي الى جسد آدمي اخر، بعد همود الاجسام السابقة · ويقوم على مقاضاتها يوم الحساب الاخير ، العقل الكليّ بذاته · كما هو الراعي الصالح في الحياة الدنيا ، لكل المخلوقات ·

الأُلوهة

ولزيادة التوضيح في تحديد معنى الالوهية في العقيدة وسواها ، وفي معنى التجلي واقراره والتقمص والمقاضاة ، ودور العقل منذ بدء التكوين ، وما يتخلل ذلك من مناقب ، يَشرُف بها الانسان ، وتتعزز فيها انسانيته ، بل ما تتضمن الكلمة من معاني الخير والحب والحق ، اراني مُلزما لتوضيح كل ذلك على ان اقدم للقارىء الكريم ، في كثير من الايجاز ، ما اختمرت به نفوس كبار المفكرين في الشرق والغرب ، حول المواضيع السالفة ، لتحق المقارنة والمناقشة والمفاضلة حول كل منها .

في عصرنا يصرح الفيلسوف (برغسون Bergson : « ان الحاسة الدينية شعور بديهي بالقوة الكونية » .

وتقول النِيرڤانا الهندية : ان الله معنى لا ذات ، وانه يعي نفسه ولا يعي غيره . ويقول القديس (غوستين) St. Augustin : ان الله جوهر لا تركيب فيه ولا تعديد . وتوما الاكويني يوضح في كل مواعظه ان الله ذات يعلم الكليات والجزئيات معا . على ان ارسطو كان قد سبق هذا القديس ، واعلن ان الله يعقل ذاته وحسب . وقال أينشتين Einstein : هناك قوة مهيمنة منظمة لكل شيء .

وقبل كل هؤلاء كان العالم الفيلسوف (فيثاغورس) يُعلن لتلامذته ان المعرفة سبيل الخلاص والرجعةِ الى الله ، لانها تبدد حجُب الظلام ، فلا يبقى غير النور المطلق وهو الله ، وعندهم ارواح نورانية وارواح ظلامية ، اي ارواح مُعانِدة وارواح رَضيّة .

وقبل هؤلاء نادت الاسرائيلية بالاله الواحد يخالط البشرَ ويشاركهم في اعمالهم ، هو (يَهوا) . غير انها اعتبرته لها وحدها ، وانه لا يتعرف الى سواها . ومن هنا نبعت العنصرية الحادة عند الصهاينة ، وان هذا الاله يأكل ويشرب ويمرح ويحارب (عن تاريخ الاديان) .

اما المسيحية فقد اعتبرت الله واحدا في اقانيمَ ثلاثة،وهو محبة وتضحية . ولم ينحرف عن توحيده ما جاء في عقيدتهم من مذاهب وبِدَعٍ شتى . وجاء الاسلام فنادى بالهٍ واحد احد صمد ، لم يلد ولم يولد ، هو عادل حكيم خالق كل حي وكل موجود .. يأمر وينهى ويعاقب ويثيب (كتاب الله لمصطفى محمود) .

وقبل ان نلج مدخل التوحيد الدرزي ينقلنا المؤرخ والحجة في اللغات الآرية (ماكس مللر) M. Miller بواسطة المحقق عباس محمود العقّاد ، الى توضيح العقيدة الهندية فيقول :

« قبل ان تكون الرِيغ فيدا Rig Véda (كتب مقدسة جدًا) كان في الهنود من يؤمن باله احد ، لا تحده احوال التشخيص وقيود الطبيعة الانسانية · انه ذات مشخص حينا في (بْرَهْما) المُوجد الخالق ، وفي (فيشنو) الحافظ الواقي ، وفي (سِيفا) المُهلك المدمر · وكان فريق اخر من الهنود ولا يزال يعتبر الله معنى لا ذات ، وانه قانون يقضي بتلازم الآثار والمؤثرات ·· وقد اغرقوا في عمر الكَون والانسان · عندهم ، يتجدد الكون حلقةً بعد حلقة ، وكذلك الانسان ، وبعدئذ ، النيرڤانا الصمدية (اي السكينة) ، حيث وجود يفنى في وجود · فلا موت ولا ولادة يومذاك (٣) ·

غير ان الامام علي قد حدد ببيانه الناصع كل افق تفكير ، ينطلق ناشدًا معرفة الخالق ، فقال : « اول الدين معرفته (الخالق) ، وكمال معرفته التصديق به ، وكمال التصديق به توحيده ، وكمال توحيده الاخلاص له ، وكمالُ الاخلاص له نفيُ الصفات عنه » · العقاد (٤) ·

لكن الفيلسوف والمؤرخ داڤيد هيوم D. Hume جهر في منتصف القرن الثامن عشر بانكلترا بما يلي : « لقد تعلّق البشر بالله لانهم يعتصمون بالرجاء ، ويَنشدون السعادة ، وكلاهما باعث اصيل في النفس الانسانية » · وقد حسب الفيلسوف انه خطا ابعد مدى من الفيلسوفين (لوك و بيركلي) Locke et Berkeley في حين انه لم يُصب الهدف المنشود بهذا التعبير الموجز ، لان الرجاء والسعادة اللذين يحتمان تعلق البشر بالله في نظره ، ليسا العامل الرئيسي لهذا التعلق ، فنظر التوحيد لسعادة الاخرة ، غيره لسعادة الدنيا الفانية (٥) ·

وتعريف الله ـ اذا حق ذلك ـ في المذهب هو : المولى الاحد ، والفرد الصمد ، منزهًا عن الزوج والعدد · ولا تخلو صفحة من رسائل التوحيد الا تعدد كمالات الله ، نافيةً عنه كل صفة · وصفوة ما يقال فيه : ان طاقة الذهن البشري مهما بلغت من القوة ، عاجزة عن تحديده وتعريفه وإسباغ اي الصفات على جلاله · وقالت الآية : « ان كُنهَ مولانا لا تُدركه الاوهام والخواطر » ·

التَجلّي

كان يُؤخذ على معتنقي هذه العقيدة ايمانُهم بتجلي الله · ولا عجب اذا اخذ الناسُ بشيء لا يتفهمون مكنونه ، ولا يحسنون تحديد كلمة « التجلي » بالمعنى الصريح الذي يحدده به الموحدون· حتى لقد دعوا ذلك كفرًا وزندقة وهرطقة بالدين الحنيف ·

لو عاد كل من اولئك المفترين الى صميم ديانته ، وتفحصها بتجرد وعمق ، لوجد ان التجلي ظاهرة غير مستغربة ، وانها رافقت الاديان منذ بدئها ، وان لها مسببات هامة اقتضت ظهورها كما اقتضت الزامية ذلك الكشف ، مع العصور ، وما هي الا تذكرة لِأُلي الالباب ، ومَقبضًا على زِمام المضلّلين ، وفجر رجاء بعيون المؤمنين المضطهدَين ·

قال المفكر مصطفى محمود : « كل شيء في الاديان يكتسب مع الوقت قداسة خاصة فينسى الناس الجوهر ، ويتمسكون بالمظهر ، ويبتعدون عن الخالق لانه بعيد عن حواسهم القاصرة ، ويتعلقون بما هو قريب من حواسهم المادية وافهامهم ، من صور ورموز واشياء يعلقون عليها اهمية كبرى ، في عباداتهم وطقوسهم ·· » (٦)

هذه العبارات ، توضح السبب الذي من اجله حدث التجلي · حدث لكي يتذكر العمِهون ان هنالك الها مراقبا مُحاسبا ، وحدث ليفهم المغرّورون ان العبادة والتوحيد ليسا بالرموز والاوهام · فكان التجلي اطلالةَ بارقةٍ من الحواس الروحية العميقة في النفس ، الى الحواس الظاهرة ، قابلة الخداع والتمويه · بهذا يغدو الخالق قريبا من حواسهم الظاهرة القاصرة ، ويَبطل كل تضليل ، وتنتفي عبادة العدَم الى الابد ·

مُجمل المؤرخين : المعاصرين والقدامى ، تحدثوا عن الديانات الشرقية باسهاب وكلهم ذكر تجلي المثلث الالهي الهندي (برهما ـ فشنو ـ سيفا) وتجلي الغوتاما بوذا،وتجلي انبياء الله لِزرادشت وتحدثهم اليه ·

اتنسى الاسرائيلية ان الاله (يَهوا) تجلى لموسى من شجرة في اعلى الطُور ؟ اما دونوا وصاياهُ وتحفظوها ، في الذاكرة لا القلب ؟

اما لاح إيليا لِيسوعَ ؟ وقد صرحت بذلك الاناجيل ؟

وان الفرقة النَسطوريّة في المسيحية قالت إن للمسيح طبيعةً الهية ، وان الله قد حل فيه (٧) ٠ ثم ان المتفقه الكبير (اورجين) Origine الذي حاول التوفيق بين الفلسفة والدين في القرن الثاني للميلاد ، صرح بأن السيد المسيح هو مظهر العقل الخالد الذي تجسم بالناسوت ، وان ظهوره في الدنيا ، حادث طبيعي من الحوادث التي يتجلى بها الاله في خلقه » (٨) ٠ وهناك يسوع ابن الله الذي تجسد بشرًا وعانى وتألم ٠ ويردد المتبصر المخلص (ابن عطاء الله الاسكندري): « الله رؤية لا علم ، ومشاهدة لا وصف ، وكَشف لا حجاب ٠ » طالما هناك رؤية ٠٠ ومشاهدة ٠٠ وكشف ، الا يعني ذلك : حقيقةَ التجلي ؟ ان المحقق السنّي عباس محمود العقاد ذكر بغير وَجل : « ان بعض فقهاء السُنة يجيز رؤية الله ، بمعنى العلم الذي يحصل من النظر ، لا بمعنى الحس الذي يقع على المجسّمات ٠» (٩) هذا ، منطق التوحيد الدرزي في التجلي : لفظًا ومعنى ، فهل حوسب هؤلاء الفقهاء ونوديَ بهم مارقين ؟؟

ولكي نزيد معنى التجلي ايضاحا نعرض ايات من رسائل التوحيد تبين معناه والغاية منه ٠ قالت الرسائل :

« ثمرة الكمال ، مشاهدة الباري » وتقول « لا حجة لكم على الله لانه عرّفكم ذاته ٠ » ثم تعيد : « لقد ظهر لهم كَهُمْ ، لِيقع الايمان به حقًا وصدقا ٠ »

في هذه التجليات التي حدثت بأدوار متباينة ، كان المبدع سبحانه يتراءى للناس ، بعد ان يكون قد استحكم الظلم والفساد ، وطغت « الأنا » المدمّرة على نفوس العباد ، فنسي الانسان انسانيته ، ونزع لارتكاب المآثم والموبقات ، بعد ان تكون عناصر الصلاح قد غُلب على امرها ودُك صوتها ، وتلقت الوان الاضطهاد ، يتجلى فتخبو براكين الاذى والشرور ، وتورق خمائل الفضيلة في النفوس المهدية ، فلا تعصف بها رياح النسيان بل تذكر ، وتوحّد ، وترى ٠

ولنمعنْ في آية كريمة من حميم الرسائل : « كلٌ ينظر اليه (الله) من حيث ضعفه وعجزه ومبلغ عقله ٠ » وفي آية اكثر وضوحا : « ان الله لا يحتجبُ عن خَلقه ، ولكنّ حجبتُهُ عنهم اعمالُهم ٠ »

هذه الآية الاخيرة عبرت عن السبب الذي بدا فيه تجلي الخالق ، تجلى لِيستمر الخير في نموه بنفوس الابرار ، وليبقى صوت الحق عاليا على الاباطيل ٠ تجلى للعيون البصيرة التي لم ينسدل عليها من براقع الفساد اي ستار ، فانعكس صفاء

نوره على شفافية نفسها ، وتمثل لها كما هي · قالت احدى الآيات ما يعني : يتجلى الله لعباده كَمَنْ يرى صورته في المرآة · فهذا يعني ان اللـــه لم يتلبّس جسدا آدميا ولا اثيريًا ولا ظلاً لجسد ، انما كل كُنهِه : كَمَن يرى وجهه في المرآة · هذا معنى التجلي وتعريفه في منطق التوحيد ·

ان العمل الصالح الذي يقوم به الفرد تجاه اخيه الانسان ، والتضحية التي يبذلها لتخفف متاعب الناس ، والجهد الذي يقدمه لصيرورة بقاء الصدق ، بكل محتويات الكلمة من معان،انما هو سائد ورائد ، للجماهير المخلصة في حياتهم اليومية ، وفي تصرفاتهم بين اخوانهم ، وبين الله حين يعكفون اليه · كل هـذه الفضائل ، حين تتحقق قولا وعملا ، يهب الله الانسانَ امكانيةَ الرؤيا ، ويكشف له الغطاء ، ويُريه ذاته رؤيةً روحية لا مادية ، ويُشعره بانـــه هـو « الانسان الصحيح » ·

هذا هو التجلي ، وتلك هي مُسبباته وعواقبها ، على بني البشر الصادقين · فاذا طالعنا شيخا مُكِبًا على الدراسة ، مأخوذا بسحر البيان ، مهما يكن مستواه العلمي الزمني ، فلا يأخذنا العجب ، فانه يتطلع الى تلك الفضائل ، ويعمل على بلوغها في الحياة الدنيا ، ليحوز هنا وهنالك ثمرة الكمال بمشاهدة باريه · وانه بغير انجاز هذه الفضائل كُليًا ، عبثا تجدي الجهود والصلوات ومواصلة التعبد والتقشف · فالعقيدة في صميمها تعتبر قيمةَ الانسان قدرَ علمـــه وعمله ، أي بتحصيل المزيد من العلم الروحي ، والاتيان بالمزيد من المبرات لخدمة الانسان ، كلّ انسان ·

العقلُ الأعظم

ان المُبدع تعالى ، في معتقد التوحيد منزه تنزيهًا عن مُشاكلة العباد لحكمةٍ عُليا في ذاته · استنّ للبشر طريقين صريحين : طريق خير وطريق شر ، ودعاهم لاختيار احداها ووَكل امرَ تدبيرهم ورعايتهم ومقاضاتهم للعقل الارفع (الكلي) ·

مَن هذا العقل ؟ ما تحديده ، وصلاحياته ؟ ومِن اين خُلق ، والى اين ينتهي ؟؟ اسئلة لها اجوبتها كاملةً ، نجد بعضها في العلوم الزمنية ، ونجتنيها كلها مـن منطق التوحيد في رسائله الحصينة ·

في كتاب « الله » لمصطفى محمود ص ٩٢ ورد : « ان افلاطون كان يؤمـــن

بعقل كلي ازلي ابدي تستقر فيه الصور الاصلية لكل المخلوقات · » وفي المرجع نفسه ص ٦٥ يقول : « لقد صرح (آريوس) Arius بأن المسيح بشرٌ اختاره الله نبيًّا ، واوحى اليه وايده بمعجزاته · » وآريوس هذا ، هو كاهن كبير ابتدع مذهبا في المسيحية ، أطلق عليه اسمه · توفي في الاسكندرية عام (٣٣٦ م) · ويعلم كل المثقفين ان (أفلوطين) ومدرسته كانوا يعلنون ان الواحدَ (الله) خلقَ العقلَ والعقل خلق الروحَ الخ ·· » واكمل الفيلسوف : « ان الخلق ضرورة لازمة من طبيعة الخير الذي هو « الله » · »

يقول الباحث المعاصر (سير جيمس جينز) James Jeans (1887 - 1946) في مؤلفه الفيزياء والفلسفة ، ان وراء الكونِ عقلا مدبرا حكيما هو : (العقل الاعظم) (١٠) ·

وفي المرجع نفسه ص ١٨٨ يقول (فالنتينوس) Valentin وهو صاحب مدرسة فلسفية في روما عام (١٤٠) م ما مضمونه : « وُجد منذ الازل في عالم الغيب ، الابُ السرمديّ ومعه الحقيقة الابدية ، وقد اودع العقلَ في الصمت وعقله ، وهذا العقل هو ابنه او نِدّه · »

وشوبنهور Schopenhauer يُعلن في فلسفته الماوَرائية ، ان الوجود : فكرة وارادة · الفكرة هي القداسة الالهية ، والارادة ، مظاهرها الدنيوية · »

وهنا أستميح المذهب لان اعرف الارادة هذه ، حسب مفهومه هو انها : (العقل الاعظم) ·

وهذا المطران الفيلسوف الايرلندي Berkeley المتوفي عام (١٧٥٣) وصاحب المدرسة المثالية : يقول « ان الله يقفُ الموجودات كلها على عقلٍ شامل الادراك، يحتويها ، ومن هذا العقل يصل الى عقولنا ، علمُنا بالموجودات · »

والادلة على الاعتراف بوجود هذا العقل الاعظم للكائنات ، موفورة في معظم المدارس الفلسفية شرقا وغربا ·

بغير المناخ المنفتح والمتحرر ، لا يمكن للعقل الاصغر ان ينمو ويتزايد نموه لخدمة المجتمع ، وكل قيد يُفرض على هذا العقل انما هو في الحقيقة ريح شرسة هوجاء تعصف على مغارس الفضيلة ، وعلى استمرارية تقدم الحياة الانسانية،

تقدماً يرسو بها على شاطىء المحبة والعدالة والصلاح · فالعقل غاية الحياة الشريفة · والحياة المتكاملة لا تنمو في معزل عنه ، وان هذا التكامل في الحياة لهو ذلك العقل الارفع المتكامل بعينه ·

يُعرِّف العقلَ الارفع فقهاءُ الطائفة بهذه التعابير : « لقد جعل الله للوجود علة وسببا يتنزه به عن المباشرة لابداع الكائنات بذاته ، هذه العلة هي « العقل »·» عن مجرى الزمان للعالم الفقيه الشيخ عبد الغفار تقي الدين (رقم ١ـ٩) · وقال الشيخ نفسه : « ينقل المولى سبحانه العقل الكلي في كل عصر وزمان ·· انه نقطة النور العقلية ، ومُدبّر الكائنات وانه وسيلة الرحمة ، وينبوع الحكمة ، ومسيح الزمان · » (١١)

ورسائل التوحيد تُعرف (العقل الكلي) بما يلي :

« انه روح لطيف لا يظهر بلا جسم ، ولا يدرَك بدونه ·· وقد ظهر من نور الله صورة كاملة صافية ·· وقد عقَلَ نفسه عن معصية خالقه وعن كل شر · »

وقال السيد (بهاء الدين) وهو اصغر ائمة التوحيد واطولهم نضالا في زمن الكشف : « انه (العقل) القائم على النفوس بما احتقبته بعد عدل التخيير في الازمان الخاليات · »

العقل الكلي هو القدوة المثلى لابناء الطائفة ، وقد بعثه الخالق مثلا اعلى للعباد ، فكان وسيلة الرحمة ، وينبوع الحكمة ، ومسيح الزمان ، المسيح الذي اعطى للانسانية اروع مثال في الرفق والمحبة والتضحية ·

الى تلك القدوة الصالحة ، عنوان الحكمة والرحمة ، يطمح معتنقو المذهب ودارسوه ، فيَعمدون على تتبع خُطى الصلاح والعفة والصدق بما يزاولون وما يقولون ، وكان لهم في كل عصر رائدون·

التقمّص

وعقيدة التوحيد صارمة في المقاضاة في الدنيا وفي الدين ، لان مهلة اختيار اي الطريقين كانت طويلة ، ولان الانسان قد مر في تقمصاته ـ كما سنوضح لاحقا ـ بكل الوان الحياة ، واختبرها · هذا في الدين ، وفي الدنيا ، فان العمل

الطالح لا يُغتفر ، ومن اتى بِزلّة يؤنب عليها فورا ، ويُحرم لِمدة من رضى اهـــل الصلاح ، فيعتبَر في مجتمعه ممقوتا واحيانا شبه منبوذ · لذا فان الانحراف عن جادة الفضائل رهيب ومخزٍ معا ·

ولما كان التقمص من اركان العقيدة فسنرى ما يقوله فيه رجال الفكر ونلمح الى قِدمه ، خاصة في المعتقدات الشرقية ·

قال المؤرخ والبحاثة (تيلر) Talor في مؤلفه الحضارة البدائية : « كان في القديم السحيق ارقّاء اتى بهم سكان اميركا القدامى من افريقيا ، ولفرط ما كان يحيق بهؤلاء الارقاء من جور وسوء معاش ، كانوا يلقون باجسامهم في المحيـط املا منهم في التقمص ببلادهم فينجون من هذا الرِق ·»

ويقول الدكتور محمد كامل حسين مدير جامعة عين شمس (ان سيفا « الاله الهندي » قد ظهر في صور بشرية قديما ·) (١٢) ويقول احمد شلبي نقلا عــن يوجي « راما شاراكا » ان « الكَرما » ـ اي عنصر المقاضاة عند الهنود ـ تجعل جزاء حياة في حياة اخرى (١٣) ·

ويضيف الكاتب الفرنسي (هنري ارفون) H. Arvon : « في البوذية واللامية (فرع من البوذية شمالي الهند) تقمص ، كما ان هذه الظاهرة موجودة فــي الصين واليابان · » (١٤) واكد هذا القول الدكتور زعبي (١٥) ·

كذلك روى افلاطون في كتابه (فيدون) ص ٦٩ عن سقراط انه حين تنــاول كأس السم ليشربه ، قال : « اني اعترف انه لولا اعتقادي بأني سأذهب نحو رجال هم افضل من هؤلاء ··· من الخطأ الفاحش ان لا تثور نفسي ضد الموت · »

وقال المؤرخ الالماني (ف شروتر) « ان فلاسفة اليونان البارزين وكذلــك الأُورفيّة يعتقدون في التقمص · وذكر المعجم الفرنسي العام (لا روس) La Rousse ان فيتاغورس نقل فكرةَ التقمص من مصر الى اليونان ·

وحدث الفيلسوف الفرنسي (فانلون) Fénélon عــن فيلسوف الاغريــق (أبيميند) انه كان يحيى فيما سبق تحت اسم (اوكوس) عن رؤوف عبيد · وروى المرجع نفسه : « ليس التقمص عقيدة جديدة جاء بها علم الروح الحديث بل هو اعتقاد قديمٌ قدم الفلسفة ، وجد سبيلَه الى اذهان عدد ملحوظ من فلاسفة

اليونان والمسيحية والاسلام ، وكان فيتاغورس يدعى في جسد سابق (اوفوربوس Euphorbus) ويضيف المؤلف : « أن نظرية التقمص سائدة جدا في الفقه الروحي المعاصر ، ويؤمن بها اغلب الباحثين ، حيث بذلك ارتباط للنتائج بأسبابها (مكافأة وعقوبة وعدالة) (١٦) . اكد هذا القولَ العالمُ الدكتور (جلاي) Geley مدير المعهد الدولي لما وراء الروح (باريس) في المرجع والموضع نفسه .

لقد نشطت المدارس الروحية في الغرب نشاطا ملحوظا في هذا العصر ، بعد مرور حربين عالميتين طاحنتين ، وكانت هذه المدارس قد تأسست اولا في (أسوج) بمنتصف القرن الفائت .

يقول المشرفون على هذه المؤسسات في اوروبا واميركا : « لو ان الدول تمنحنا ، خدمة للعلم وللحقيقة ، عشر ما تنفقه للدعايات وصناعة الاسلحة ، لكنا اتينا عجبا ، وكشفنا ملابسات وغوامض تعود بالنفع العميم على العلم والشعوب، فتنفض عن العيون خرافات كثيرة بمعتقدات سابقة ، وترفع المستوى الروحي والمادي لكل انسان في الدنيا . »

بالنظر لاهمية هذه المدارس ، ولمتينِ علاقتها بموضوعنا الحالي ، فاني سانقل بعض احاديث واسماء لكبار مفكري العصر ، اقطاب المعهد الدولي لبحث الروح، في فرنسا خاصة ، بارشاد مؤلف الانسان روح لا جسد : « قال الفيلسوف (موريس ماترلنك M. Materlinck) : انني آسف جدا لعجز المدارس الروحية عن ثبوت التقمص علميا حيث لم يوجد قط من قبل ، اعتقادٌ ، اكثر جمالا ، وعدالة ونقاء ، وخلقا ، وغنى في نتائجه ، وتعزية وقربا الى التصور ، من هذا الاعتقاد ... انه يمثل عقيدة ستِ مئة مليونِ من البشر ، فهو اقربها الى تفسير الاصول الخفية ... ولا يبدو بعيدًا عن التّصور .. » (١٧) وحذا مختلف المفكرين في ذلك المعهد ، حذو (ماترلنك) منهم : سان سيمون St. Simon ، سان مرتان St. Martin ، فوريا Fourier بيار لرو Leroux جان رانو Reynaud وليون دانيس Denis وغيرهم .

ولْنصغِ الى العالم (وليَم جيمس W. James) في كتابه (ارادة الاعتقاد): « ايتها الروح العزيزة انت تجيئين ثم تفارقين من موتٍ الى موت عن طريق حياة وحياة .» (١٨)

ولنعرْ سمعنا ثانيةً الى الدكتور مراد وهبي في تعريبه لكتاب : المذهب في

فلسفة (برغسون) Bergson تاريخ سنة ١٩٦٠ . قال : « ان ظواهر التقمص كانت معروفة منذ العصر البرونزي . وان نظريات الروحانيين المعاصرين امثال (برغسون Bergson وجلاي Geley ودوج Dodge وريشا Richet وسواهم هي امتداد وتوضيح بشيء من العلمانية لفكرة المذهب في أمري التقمص والتذكر . »

ولن تفوتنا في هذا البحث الاشارة الى العمل الجبار الذي اقدم عليه العالم الاميركي (ايان ستيفنسون) Yan Stevenson حيث زار القارات الخمس بحثاً عن فكرة التقمص والتذكر ، وتمخض نشاطه عن مؤلف كبير اسمه : (التقمص) عدد فيه البلدان والشعوب التي تؤمن بهذه العقيدة ، وتعتبر انتقال الروح من جسد انسان الى جسد انسان آخر بعد الوفاة سنةً طبيعية جدا وحقا الهيا يُماشي التطورات الكونيه ، ويثبت العدالة الالهية في محاسبة نفوس البشر ، حيث تمر النفس في كل الحالات من غنى وفقر ، وعلم وجهل ، وصحة وسقم ، وذكاء وبلاهة ، الخ . .

اتى هذا الكتاب بشواهدَ متعددة من اميركا اللاتينية والاُسْكا ، وافريقيا الجنوبية واسيا الشرقية ثم لبنان . ولم يكتف المؤلف بسرد قصة التقمص او بالسماع لاقوال السكان ، انما قام بدور محقق مدقق ، فأجتمع بأهل الشخص المتوفى ثم بالشخص المولود الذي انتقلت اليه روح المتوفى هذا كما اجتمع بأهله معا ، وشرع يسأل ويجاب ، ويقابل بين كلام المولود حديثا ، في ما رواه وعمله في دوره السابق وفي ما حفظه من صور واسماء اعلام ، ما برحت في ذاكرته ، ثم يعود المؤلف لاهل الولد في القميص السابق فيتحقق منهم صحة الكلام . وكثيرا ما كان يأتي بالوليد نفسه الى اهله السابقين ويسمع بأُم اذنه ما يدور من حديث وتذكرات بينهما ، في جو يخيم عليه التأثر العميق .

لقد خدم العلمَ الاستاذُ (ستيفنسن) بهذه المهمة ، وخدم الحقيقة وأرى المكابرين صحة التقمص ، ليثبت اقوال العلماء الذين تناولوا هذا الموضوع واكتفوا بذكر رأيهم فيه ، مع تعليقات لا تدخل في صميمه ولا تحمل القارىء على الايمان بهذا المعتقد .

المح الى هذا كله ، كتاب الله القرآن ، في آيات بينات بالعديد من السور . لكن الفقهاء المجتهدين في التفسير والتأويل ، اضاعوا الحقيقة التي ارادها سبحانه. اما ذكرت الآية الكريمة : « لا ينفع نفساً ايمانها ، لم تكن آمنتْ من قبل ، ولا

جدوى من ذكر سواها من آيات بيّنات ، لان التفسيرات اضاعت جوهرها ٠

كذلك رسائل التوحيد ، فانها قد ذكرت في مواطن كثيرة قصة التقمص واسمته : (النُقلة) اي انتقال الروح من جسد آدمي لجسد آدمي آخر ٠ قالت الرسائل بلسان الامام الاعظم (العقل الكلي) : « العمل الصالح ينتفع به ويُثاب عليه عاجلا وآجلا ٠٠٠ » كذلك العمل الطالح ٠ ويقصد بكلمة آجلا هنا : الادوار الآتية على الارض ـ حسب مضمون الرسالة ـ ، وقبل الحساب النهائي٠

وقال بهاء الدين : « ان الاشخاص تظهر بظهورات مختلفات الصور على مقدار اكتسابها من خير وشر ٠ » وقال في موضع آخر : « ان مَن وحّد الباري في وقتنا هذا ، فقد وحده في سائر الاعصار ٠ »

واكد الامام حقيقة التقمص بقوله : « ان العذاب الواقع بالانسان يكمن في نُقلته من درجة الى درجة ٠٠ كذلك نقلته من قميص الى قميص ٠»

وجاء في الانجيل : « ان ايليا ياتي لِيتمّ الاشياء ٠٠٠ قد اتاكم في البدء ولم تعرفوه ٠»

لا يعنينا كثيرا ما يعتقد الناس في صحة او بطل التقمص ، على ما اوردنا من أدلة ، لكن الذي نرغب في ان نؤكده ، هو ان اتباع العقيدة التي تؤمن بالتقمص السليم ، لا (بالنسخ والفسخ والرسخ) وهي عقائد تُعيد روح الانسان الى حيوان ونبات وجماد ، وقد شاعت هذه العقيدة في الهند قديما ، هؤلاء الاتباع ملزمون بالتسليم في التقمص ، ويزُيدهم الزاما واقع التذكر ، تلك الظاهرة التي سنُلم سريعا بها ، وعلاوة عنها ، نجدهم ممسكين امساكا بها ، لانها تبعث في المحتضر طمأنينة الصيرورة ، وفي المقاتل ، التفاني في سبيل قضيته المغصوبة، فالموحد يلتقي الموتَ كما التقاه سُقراط ، رابطَ الجاش ، باسما ، والموحد يَنشد العدالة ولا ينام على ضيم واجحاف ، وانه يعلم ان النفوس بقدر صفائها ، تعلو مرتبتها في الدنيا والدين ٠ لذا فانه يمقت الحقد والضغن ، وينبذ السفَه والفجور والتعامي بحب الذات ، ليبرهن عن صدق قول الفيلسوف (ماترلنك) الذي سبق ذكره : « لا يوجد من قبلُ قطُ اعتقادٌ اكثر جمالاً ونقاء وعدالة و و ٠٠ من هذا الاعتقاد ٠٠٠»

من مناقب العقيدة

قد يأخذ علينا القارىء الكريم تكرار المناقب التي يحتضنها المذهب ، اذا هو لم يرَ بنفسه ما تقوله المؤلفات المستورة ـ تبعا لِلتقيّة المتوجّبة ـ ولكني ساقتطف بعض الآيات من ائمة المذهب ومن رسائل توحيده ، معتذرا للحق عن تسليط بعض الضوء على بعض جواهره تسفيهًا للمُتخرصين ٠

تقول النقط والدوائر ص ٣١ : « ان النفوس الناطقة دائمة الانتقـــال ، ولا زوال ٠ » وتوضح اكثر : « لا غنى للنفس عن الجسم ولا تنتقل منه الا اليه ٠ »

ويقول التوحيد : « ان النفس جوهر خالد لا يتجزأ ، يفعل وينفعل ، ويقبل الجهل والعقل ، وانها تمتد وتقوى في تربيتها ، وهي سابقة للهيولى لسبق العالم الروحاني ٠»

ويضيف العلامة تقي الدين : « متى عدمت النفس طبيعة واحدة من الطبائـع المحمودة ، عميت عن التوحيد ٠ » (١٩) فلنعتبـر مقدار ما يتمسـك المذهب بالفضيلة ٠

في المذهب نوعان من الطبائع ، رافقا الانسان منذ نشاته الاولى ، لكن التربية كما ذكر المذهب ، تصقل النفس اذا صلحت ، وتفسدها اذا ضلت ، ولهذا الصلاح والفساد حدود لا تتعداه النفس ، لانها التزمت في القديم القديم ، مختارة احـد الطريقين : الضلال او الرشاد ٠ هذانِ الشكلان من الطبائع هما :

١ ـ الطبائعُ العقلية التوحيديّة وهي : النور والسكون والتواضع والحلم وليونة الهَيولى ٠

٢ ـ الطبائعُ الضديّة : المعصية ، والظلمة والاستكبار والجهل والمعانَدة ٠

ان كلاّ من الطبائع الخمس الاولى ، كما نرى ، مُضاد لما يقابله من الطبائـــع الثانيـــة ٠

من يعتنق مذهب التوحيد ، للحصول على رضى باريه ، ومحبة واحترام جماعته ، ملزم دائما في التطلع والسعي لأُكتناهِ الحقائق العقلية ، ولتعايشــه

معها في حياته اليومية ، ومزاولة اعماله ، وفي نطقه السليم وتصرفه الشريف.

والتوحيد بعيد كل البعد عن الطبائع الضدية ، فمن لزم واحدة منها ، هبطت مرتبته الروحية ، وعابه صحبه ، وانخفض قدره في مجتمعه.وان على عاتق الموحد ان ينقل هذه التعليمات الى اهله وجيرانه ، ممن لم تُسعدهم اعمالهم بعد الى ولوج باب التوحيد وتسلم مضامينه .

هذه الطبائع العقلية مفروضة فرضا على الموحدين ، وواجبة على كل من اعتنق هذا المذهب ، ليصقل نفسَه ويهذبها ، ويحفظ لسانه من الزلل والكلام النابي ، ويردع لَحظَه عن الشرور ويُمسك بزمام طبعه فلا يغلبه الاستكبار والجهل ، ولا تطغي على عينيه الظلمة فيعصى الحقَ ويعاند العدالة ، ان المرء في عقيدة التوحيد مطالب ومحاسَب على الفاظه والحاظه وتصرفاته .

الطبائع العقلية لوحٌ عسجديّ نقَشت عليه بأحرف مُكهربة ، يدُ الخالق ، هذه الصفات ، فلا مندوحة لموحد من التنكر لأحداها . هي في صميم معتقده ، ونصب عينيه . ولا ترتفع به الى المستوى الروحي الرفيع الا باقترانها بالعمل والممارسة الدائمة له ، وبنقلها وبتعليمها لذوي النفوس النيرة .

مَن يجوز له التصفح في رسائل التوحيد ، يجد في معظم صفحاتها الحث على المبرّات والالتزام بالصدق في المنطق والصنيع ، وقد اوضحت هذه الرسائل ان معرفة النفس الصحيحة هي وحدها المِشعلُ الذي ينير السبيل في طريق الحق .

كما ان الذي يتتبع المراحل التي مر بها رجال التوحيد منذ القدم ، والمِحن التي صادفتهم من اعداء شرسين نظروا الى هؤلاء نظرة اعداء للدين والدنيا ، ـ في حين هم لم يعتدوا ، ولا يُجيز لهم مذهبهم اي اعتداء وإن حدثَ فَشاذ ـ ان ذلك المتتبع يردد بصدق مع الفيلسوف الفرنسي (رناه لوسان) R. Le Senne « ان الالم يثير فينا ذخائر الطاقة الكامنة بأعماقنا ، ذلك لاننا خلقنا للنضال ، ولذا اضطرم نشاطنا ولهبت حماستنا » تعريب محمد فتحي الشنيطي عام ٩٥٧ ص ١٥٨ .

هذا الالم هو الذي يجعل الروح تسيطر على شهواتنا وعلى نزوات الشر فينا ، لا سيما اذا كان في المعتقد مِصباح وضاح تنقشع به غياهبُ الضلال .

أما ارشدَنا كتاب النقط والدوائر في صفحته (٤٥) الى ذلك المصباح بقولـه : « ان الفضائل بكمالها ، جعلها الباري اصلا واساسا لدين التوحيد ·» ويقـول بكمالهـا ·

كم من أدلة نقلتها لنا رسائل التوحيد بلسان ائمته ، حاثةٍ على مكارم الاخلاق وحسن العمل ، وسلامة المنطق !!

اما قال الامام : « من دخل الى التوحيد مَيلاً الى الراحة والاباحة كذّبتـه شواهدُ الامتحان · » وكرر : « الموحد الحقيقي لا يفزع من المِحن ، بل يسلمْ امره الى مولاه · » لقد قرأنا له في الكثير من الرسائل مثل هذا التوضيح : « لا ترى النفسُ لها ميزةً الا بالعلم ، والعمل الصحيح الصالح ·» وقال : « من عـرف الباطنَ (اي التوحيد) يجب ان يزيد في طُهره ونظافة بدنه ·»

ولنسمع للعلامة بهاء الدين : « ان حامل الرحمة يتجلى لعقله البارُ العلّام ·»

ان هذا التجلي يعتبره الموحد اسمى درجات السعادة ، فانه يظهر لمن يرحم ، والرحمة دليل على صفاء النفس ونُبلها ·

ولفرط ما اسرف الناس في المُجون والتهتك في مصر ، بزمن بهاء الدين ، اثناء عمله المتواصل في بثّ دعوته ، ألمح في احدى رسائله بكثير من الحذق والتعفف : « لقد استعبدت نفوسَهم اخسُّ الاعضاء ·» كما انه في موقف آخر ، توسل الى باريه حين بطش بأوليائه حاكمُ زمانه فقال : « اللهمَّ ان قرنَ الشيطان قد طغى ، فأذِلّهُ ·» وأردف : « يا قَتلةَ الحق في كل الادوار ·» والتفت الى احد المريدين لفتةَ تبكيتٍ وتذكرةٍ وقال : « إعلم ان عليك حفيظاً في لَحظكَ ولَفظك · »

هذا منطق اهل التوحيد ، في السراء والضراء ، وفي حلمهم وغضبهم ، مـا استطاع العدو الزنيم ان يدفع بقلم بهاء الدين الى ابعد من التوسل لله ، كـي يُذل الباغي ، لكنه عاد فذكر القتلة انهم مطبوعون على الاجرام ، لان نفوسهم في الادوار السابقة اعتادت ارتكاب المعاصي ؛ حسب منطق العقيدة ·

وهل اعمق من تعبيره وابلغ ، في قوله : ان عليك حفيظاً ··· وفي استعباد النفوس من قبل الجسد نفسه ؟؟ وان هذا الحفيظ لفي اللفظ واللحظ ايضا ·

هل ياتي دعاة الاخلاق في هذا العصر ، على ما اكتنزوه من بيان ومعارف ، ولباقة ودماثة ، بأعمق من بلاغة بهاء الدين وروعة آياته وحسن توجيهاته وصدق منطقه ؟؟ اليس هو القدوة الفضلى لمعتنقي المذهب ؟؟ اما علمنا الصبر في الارزاء وضعة الجناح ، وتوقد العاطفة ، حين كتب لاتباعه من قُطرٍ الى قطر يقول انـه تفطّر المًا ، وحرم طيب الرقاد لِما المّ بأبنائه واخوته من اضطّهاد ، ثم يحثهم على الصبر ويشجعهم على الاعتصام بالفضيلة ، مهما ادلهمّت ليالي المحن ، كمـا يُبشرهم بالفرج القريب ، كيلا يسقطوا فريسة اليأس ·

هذا هو الوجه الصحيح لعقيدة التوحيد ، اتينا بآيات من صميم الرسائل للدلالة على ان ما نوضحه ونكرر مضامينه ، انما هو نابع من اعماق المعتقـد والمنادون بتلك الفضائل ، هم عمدةُ التوحيد وفقهاؤه ، يطلبون من المريدين ان يقرنوا ما يتعلمونه ، بالعمل اليومي على الدوام ، ليحسنَ مآبُهم ولتضمن لهـم العدالة السماوية قضاء حقا ، ينصفهم في الدنيا والدين ·

التَذكُرُ (النُطق)

ان ظاهرة التذكر شائعة حيث يشيع التقمص · وقد حذرت احـدى الايـات من الايمان به ، في حال امتداد هذا التذكر الى الاجيال البعيدة ، وهـو امر لا يُقره الدين ولا العلم المعاصر ·

اما ان يتذكر الولد ما حصل له في قميص واحد سابق ، فظاهرة قد تعـددت كثيرا، خاصة في سوريا ولبنان حيث يتنبه اولياء الولد المتذكر (الناطق) فيدعون له مجالا للتعبير عما يجيش بصدره ، فيأخذ بالتذكر رويدا رويدا مع تقدم منطقه، ويبوح لاهله بمكنون نفسه ، فيقول مثلا : كنت زيدا وكان عندي كذا اولاد وكذا ادوات ، واسم بلدتي كذا واسم ابي وامي كذا · الخ ·

والملحوظ جيدا ، ان معظم الذين يتذكرون يتوقون لرؤية منزلهم السابـق واهلهم · فمن الاهلين من ينزل عند ارادة الولد ، ومنهم من يتغاضى · وليس من متسع في الكتاب لاطالة الكلام حول التذكر ، فمن عايش الدروز ، ووجد الماما بنفسه لمعرفة هذه الظاهرة يمكنه بسهولة التحقق منها ، اذا صادف قبولا من ولي امر الولد المتذكـر ·

وحسبنا البروفسور (ايان ستيفنسون) في كتابه الذي سبق ذكره ، شاهدا

ومُحققاً عيانا ، روى الكثير من حوادث التذكر في العالم حتى في لبنان ، نقلت لمحة عنه مجلة الحوادث منذ سنوات ، وكرّرتها صحيفة النهار في ك٢ سنة ١٩٧٨٠

ذكرت سابقا حديث الدكتور (جلاي) مدير المعهد الدولي لما وراء الــروح (باريس) في هذا الموضوع ، انه يعتبر ، العقل الباطن مخزنا لدروس الماضي وخبراته ، على غير ما يعتقد مذهب التوحيد الذي يؤكد نقلة النفس من جسد لآخر حاملة معها بعض الذكريات العميقة · والفيلسوف الروحي (برغسون) اوضح : « ان الحياة حركة دائبة ، لا تعرف الاستقرار ، والذاكرة فيها ، عبارة عن زمن مخزون · » عن الانسان روح لا جسد ج٢ ص ١٣٨ وفي المرجع نفسه ص ٦٣ يقول المؤلف : « ان علم الروح الحديث يُقر ان الذاكرة بعد الموت يلحقها نوع من التغيير ، لا يَمَسّ الذكريات العميقة ·» فاي تشابه في المنطقين !!

نكتفي بهذه العُجالة عن التذكر ، لِنفُسح مجالًا اوسع لتاريخ التوحيد ، منذ عرفه العلم الزمني المعاصر ·

تاريخ التوحيد

يعود تاريخ التوحيد حسب نص رسائل العقيدة الى آلاف السنين قبل المسيح حيث يومذاك ، اكتمل نضج الانسان فكرًا وجسدا وتمت تجاربه المتعددة لعبادات شتى ، منها مظاهر الطبيعة بما فيها الشمس والنجوم ، وعبــادة الطَوطم ، والجماجم وسواها ··

تجلّى تعالى لعباده تانيساً لهم وتثبيتا للاعتقاد به ، وتاكيدا لعقولهم القاصرة انهم يعبدون ذاتا موجودا حقا لا عدما ولا معنى ، ولم يكن في ذلك الزمان تطلع الى موئل حريز ، وواحد احد ، يرد عوادي القدر ، ويزيل المحاذر ·

يومذاك تجلى سبحانه باسم «العلي الاعلى» وهو غير علي بن ابي طالب· كان يحيط به فريق الهدى ، فآمنت به جماعة ، وجماعة عاندت ، وكانت المعانــدة والطاعة في نفسي الضد والعقل ، قبل ان تتصور الاجسام ، حيث ارواحهــم هائمة سابحة في اللانِهائي ·

بعد هذا التجلي انتشر الفريقان المتضادان ، يدعو كلٌ لعقيدته ، هذا لتوحيد الخالق وطاعته والتزامه بالصدق والحق ، وذاك بعصيانه والتدليل على اتباع المفاسد ، وتفجير الانانية الحمقاء ، والتهافت على زخارف الحياة الدنيا ومتعها ·

وما فتيءَ العباد ، يطوون الاجيال ، ونفوسهم هي هي ٠

والخالق العظيم ، كان يتجلى من دور لآخر ، في رحب الدنيا ، طوال هــذه الاجيال وفيها كلها كان يرافق دعاته : الاختيار في المعتقد ، ولا إكراه في الدين٠

كان تجليه في مقامات مختلفة وللغاية نفسها : التعرف الى الحقيقة ، والتشوق اليها ، وتعشقها والعمل بمقتضى ما توحيه اليه ، ثم تعهد مغارس الصلاح والحب في صدور العباد ٠ وخنق الانانية وإنماء الغَيريّة الخيّرة في النفوس ٠

اشراقته كانت نورًا روحانيا ، لا كهاربَ فيه ولا ذرّات ، وقد عرف الناس في الزمان اللاحق ، النور الذي تراءى لموسى في التِيه ، ولمِريم في بيتَ لحم ، ولمحمد في غار حِراء ، كلها موجات روحانية من منطلق واحد احد ، لذوي البصائر ٠

في واحدة من المقامات الاخيرة ، تجلى الخالق باسم البـَـــار (اي اللــــه بالفارسية) وصحب دعوتَهُ شَطْنيل (العقل الكلي) ومعنى الكلمة بالصينيــة (قديس) ٠

ظهر شطنيل في الهند ، وبثّ فيها دعوته ، فانتشرت منهــــا الى المشــرق الاقصى ، ثم انتقل الى الجزيرة العربية ، فاتم دعوته وفرّق دعاتَه في الامصار كافة وبكل اللغات ، كما تشير رسائل التوحيد ٠

اما الدعوة فهي نفسها في سالف الادوار : التمسك بالفضائل قولا وعمــلا ، وعبادة إلهٍ واحد احد يتجلى : وقتَ وكيفَ واينَ يشاء ٠

ان شطنيل نفسه آدم الصفا (ابو البشر) وتسمى بهذا لانه ابو الموحديـــــن وابوّته لهم روحية صِرفًا ٠

ســـارت بنـــا ســـفينة التوحيـــد فـــي الادوار المبُهمـــة ، والموغلـــة في القِدم ، ابتداءً من دور (العلي الاعلى) حتى شطنيل الحكيم ، حيث كـــان الغموض يكتنف تلك العصور ، في حين ان علماء الآثار والاحافير يكتشفون من زمن لآخر ، في الكهوف المغمورة ، بقايا لانسان ، تهديهم للتصريح بقدم ذلـــك الانسان ، متحدّين الشرائع التي لا تعيد قِدمَه الى ما خلف آدم اي زهاء سبعـة الاف عام ٠ احدث هذه الأحافيرِ انسان (الحبشة) فهو اقدم بكثير من انسان (جاوا وباكين ونِينْدرتال) ٠

اخيرا بزغت بوارق العلم الحديث ، وانقشعت غمائم اللَّبس والغموض ، عن معتقد التوحيد ، وانطلقت اقلام الباحثين والمحققين ، وكان الغرب سباقا فيها ، بهذا العصر ، فقدم للانسان مثلاً اعلى في الصدق والترفع والتنزيه ، بعاهل مصري قديم هو (آتوم) جاء بعصر وبيئة مغموسَين بالفساد ، والانحلال الخلقي ، وعبادة الشمس والعجل والنيل وما اليها ، وفي اطلالة (آتوم) اشرقت شمس الحقيقة ، فهزىء بمطارف الدنيا والعرش ولم يرض له صورة ولا تمثالا ولا مظهرا للعنجهية والاستكبار ، ورعى الشعب بعين العطف والحب والرحمة ، فكانت بحبوحة في العيش وسلامة في الاخلاق وايمان باله واحد مُتَجلٍ . فسَمّ (آتوم) ما شئت ، لقد دلت عليه اعماله ، وسيزيد في الدلالة عليه ، اناس جاؤا بعده ، من بيئته ، فعرّفوه للتاريخ ، وعلينا آتيا نقل ما عرّفوا .

انقسم جماعة المؤرخين الى فئتين ، واحدة تقول ان التوحيد ظهر اولا في مصر الفرعونية . عند (آتوم) وفئة تقول انه ظهر في الهند قبل الفرعونية بأزمانٍ في (برهمان) .

بهذا ينطق العلم الحديث ، اما التوحيد الدرزي فلا يعنيه اين بدأ التوحيد ، ومتى ، وكيف ، فالمذهب اشار ان الدعوة عمت الوجود منذ القدم ، ولعل هذه الغراس نمت في بيئة اكثر من سواها ، ولكن البذور قد تناثرت في كل مكان ، ومن مصدر واحد . لنستمع الى العقل الاعظم : « ان حدود الدعوة قد سُيِّرت في جميع العالمين ، وقد ظهر النور وسُمع النداء . » فلِمَ المكابرة والجدل ؟؟

لنسلم جدلاً بأن مصر السبّاقةُ للتوحيد ولنصغِ لبعضهم لِماماً :

التوحيد في مصر الفرعونية :

يقول هيرودوت : « ان الاغريق تعلموا امور الدين من مصر . » ويقول المحقق (اليوت سميث) A. Smith : « ان اشعار الدين عند قدماء الهند نسخة محكية من كتاب الموتى . » كتاب العقائد المصرية الفرعونية .

ومصر جمعاء وكتاب الموتى والرموز الكثيرة الغامضة التي وُجدت منقوشة داخل الاهرام مدَينة كلها (لآتوم) .

اكبر معرف عن آتوم كان (اخناتون) (احد الفراعنة) وسنُلم آتياً بحياته ، مكتفين الان بنزرٍ من اقواله :

« انه (اي آتوم) الحيّ المُبدىء الحياة ، الملك الذي لا شريك له في الملك، خالق النطفة والجنين نافث الانفاس ، بعيد بكماله ، قريب بآلائه ، تسبح باسمه الخلائق على الارض والطير في الهواء ... بسط الارض ورفع السماء ... هو مِلء البصر وملء الفؤاد ...» عن العقاد ص ٧٠ . ولاخناتون في آتوم اناشيد رائعة تذكرنا بكبار المتصوفين سنلمح اليها فيما بعد .

وذكر المرجع نفسه ص ٧٢ ان المصريين القدماء كانوا ينظرون الى آتوم الهاً للكون يوم كان لُجةً طَخياءَ سُميت في اساطيرهم : « نون » . وجاء في الفقرة السابعة عشرة من كتاب الموتى قوله : « انا آتوم متفردا في « نون » وانا « رَعٌ » حيث يبزغ مع الفجر ليبسط يديه على الدنيا التي خلقها » . لقد فهم التاريخ البشري من جديد ، الكمال في الله ـ الله الكلمة لا المعنى الذي تعنيه العقيدة ـ ، بما اسداه لرعيته من جلائل الاعمال التي لم يشاهدها احد منهم في الفراعنة ، سابقا ولا لاحقا .

جاء بعد آتوم بقرابة الف عام (امحتبٌ بهٌ) وهو وزير لاحد الفراعنة ، ظهر منه نبوغ رائع ، خاصة في هندسة البناء وفي الحكمة . اسماه الاغريق فيما بعد (هِرمِساء المثلَّث العظمة) ، وهو نفسه في المذهب (هرمسُ الهرامسة) اي النفس الكلية ، ـ وهو الحد الذي يلي العقل الاعظم مرتبة روحانية ـ . اتى بحكم وتعاليم كانت ارفع من مستوى بيئته ، لكن الاغريق قدرتها ورفعته بموجبها الى مصاف انصاف الآلهة .

قال احمد فخري : « ان (آتوم) معبود (أمحوتب به) وهو القوّة الكامنة في قرص الشمس ، ابى ان يصنع له تمثال او رسم ، وكان غاية في الكمال الخلقي .» (٢٠)

وقال (برستيد) في تاريخ الشرق القديم :

ان (امحوتب به) اي هرمس الهرامسة قد سبق اخناتونَ لعبادة آتوم ، وانه محررُ العقل البشري من جميع القيود القديمة .» (٢١)

كان في المحكمة العليا الفرعونية الروحية رمزٌ لميزان تُعرف بموجبه النفوس بما قدمت من اعمال ، وكان الرمز (مَعَتْ) هو المِعيار للصدق والحق المتناهيين ، اسهب المؤرخون في قيمة هذا الرمز ، وحددوا معناه بكلمة (صدق) بالعربية ٠

اما رسائل التوحيد فقد اسمت العقلَ الكلي (ذومَعَةْ) وقد جعلت في قُمة الخصال التوحيدية : الصدق ٠ فليقيّم ذلك العارفون ٠ ثم ليبرهنوا من أين تسربت للرسائل التوحيدية هذه المعلومات الدقيقة والعريقة في قدمها ؟؟ أهي المصادفة ؟ ام هناك معارف باطنية روحية ، مشدودة برباط من النور السماوي ، تتفتح براعمها لذوي الالباب الصادقين ؟؟

نطقت رسائل التوحيد بلسان الامام العظيم فقالت : « ٠٠٠ الى اخيه وتاليه٠٠ أخنوخ الاوان ٠٠٠ وهِرمس الهرامسة ٠٠٠ » اما اخنوخُ فقد ورد ذكره في التوراة وهو (أخناتون) اي (روح آتوم) وسنبدأ بلمحة عاجلة عنه ٠

تلا اخناتونُ، (هرمسَ الهرامسة) بعد اربعةَ عشرَ قرنًا تقريبا وكان ظهور هرمس حوالي سنة ٢٨٣٠ قبل الميلاد ٠ تسمى بأخناتون (لا بفرعون) اي روح او رسول او ابن آتوم ٠ تبريكا به ٠ قال عنه احد المؤرخين : لو جمعت المؤلفات التي تحدثت عن اخناتون لكانت مكتبة كبيرة ٠

وقال احمد بدوي : « ان آتوم قد اصطفى اخناتون واجتباه ، واظهره على قوته واطلعه على ارادته ٠» (٢٢)

ويقول سليمان مظهر ما يلي : « كرّس اخناتون حياته ، لعقيدتـــه الدينية ، والدعوة لها ، وانصرف الى تحقيق افكاره الدينية وشُغل باعلان معتقداته ٠٠٠ كان هذا الدين ضربة عنيفة لكهان الفرعون (أمون) ٠ فقد ارسل اخناتـــون جنوده واتباعه يمحون الاسماء والصور القديمة ، ويهشمون التماثيل ٠٠٠ وان خاصة المفكرين احسوا بالحاجة الى دين واضح مريح ، يعلي من شأن الحقيقة ويتحرر من ربقة التقاليد البالية ، ويشمل سلطانه الكون الفسيح ، وترضى بـــه الشعوب على اختلافها ٠» (٢٣)

نكتفي بهذه اللمحة المقتضبة عن ذلك العمـلاق الذي ملأ اسـمه الدنيـا ، وهزت ثورته الدينية أركانَ الفرعونية ٠ ولنا معه الآن هذا اللقاء الخاطف فـي احدى اناشيده :

« بزوغك جليل في افق السماء ، يا « آتون »

يا حي ٠٠ يا مبدىء الحياة ٠

انت عالٍ ٠٠ وآثارك واضحة في ضوء النهار ٠٠٠

انت معطي نفس الحياة لكل المخلوقات ٠٠٠

انت الاله الاحد ، لا شريك لك في الملك ٠٠٠

انت مُبدع الجمال في نفسك ٠٠٠

كيف لا ٠٠٠

وانت « آتوم » النهار في الارض ٠٠ »

هذا (الفرعون) ربيبُ تلك البيئة الطاغية المستكبرة ، واولئك الكهان والعرافون المستولون على مقدرات البلاد ، من الصعيد للشاطىء ، وتلك المعابد المغلقة المظلمة ، حيث التسابيح للاصنام ، والهيمنة المستولية على العقولِ ، للسحرِ والشعوذة ٠٠ هذه البيئة انجبت احدَ أعاظم رجال الفكر ، فنَسَفَ وحطّمَ وابادَ ، وهتفَ بعبادة الاله الواحد ، وشيدَ امام الهياكل ، بعد كشفها وانارتها ، مِسلاّت مفضضة ، تَهدي عُمهَ البصائر ، الى السماء الحق ، والطريق القويم ٠ فهذا الذي انجبته البيئة الفرعونية هو (اخنوخ الاوان) امنحوتب الرابع المكنى ب (اخناتون) وهو كما اسلفنا الحد الثاني في مذهب التوحيد ، اي هو هرمس نفسه روحانيا ٠

لِنطوِ صفحة مصر الفرعونية مُطلين على عهد شنطيل الحكيم ، ولنتقرأْ مكتشفات (ماري ، وبابل ورأس شَمرا) بحثا عن جذوات التوحيد ٠

التوحيد في المشرق

لا يُساورنا العجَبُ اذا قرأنا عن الفضائل التي كان يتمتع بها كل من (راما وكَرِيشنا) في الشرق الاقصى وفي الزمن البعيد ، أما تسرّب اليهما من نفحات شطنيل ؟ فكيف لا تورق اغصان الرحمة والوداعة في تلك الربوع ، وكيف لا تنضج ثمار الحكمة والهدى والصدق ؟ أليس ابناء المشرق هم ، سمّوا شطنيل بالحكيم والقديس ٠ وما يضرُ الحقيقةَ الكونية اذا سمى بعضُهم اللـهَ بذاتٍ او بمعنى ٠ اليس في التوحيد ، الخالق هو المعنى واللفظ هو العقل الاسمى ؟

فليعد القارىء الكريم ، اذا اراد المزيد من المعلومات والايضاحات ، الى كتاب «ما بعد الطبيعة في التوحيد الدرزي» والى قصيدة التوحيد للمؤلف نفسه ٠

وفي بلاد فارس وسومَر لنسمع المؤرخ (أنسفلدّت) يقول : « ان (أُنليل) هو اله الرحمة للبشرية ، وقد اضاف (يَهوا) روحَ القسوة الى صانع الرحمةِ السومري » ٠

يقول طه حسين بلسان كثير من المؤرخين « ان موسى صورة مطابقة لأمون » الفرعون الذى كان يُشاكس روح آتون ، والذي خنق ثورة اخناتون العادلة ٠ من هنا نفقهُ ان الرحمة التي يتحدثون عنها في انليل ، انما هي بارقة صدق وتوحيد، لان هذا عدو ذاك عداءً عميقا مبينا ، لا طمعا بنفوذ او تسلط وحسب ، بل هي طبع متأصل ٠ وان (أُهرمزدَ وأهرمان) في الديانة الفارسية يوحيان الكثير من التقارب في بعض النواحي ، من مسلك التوحيد ٠ هنالك الاله الخير الرحيم العادل ، اله النور وهو واحد احد مَرئي ، يقابله الاله الشرير ، ابو الحروب والفتن ، وباعث الظلام ٠ والإلهان في التوحيد يعنيان قوّتَيّ الخير والشر في الناس ، فالاول هو (نورُ النور) والثاني هو (هامان) وقد عرفتنا بِكِلَيهما رسائلُ التوحيد ، على ما يحف بالمسالة من ابهام ولَبس احيانا ، لاسباب تعود الى البيئة والزمان والى ما يشوب كل عقيدة قديمة من التباس في فهم المقدسات٠

ويقول المحقق الفرنسي المعاصر (لوك بانوا) Luc Benoit ما يأتي:

« ان الشعراء العِرفانيينَ في فارس (امثال زرادشت) قد كرروا التعاليم نفسها التي احتوتها الفِيدا الهندية والديونيسيّة والفيتاغورية والافلاطونية ٠» (٢٤)

ويقول العقاد :« ان زرادشت اشاد في زِيوس والد دِيونيس، وقد سماه اهرمَزْدا نفسه » (٢٥) ٠

وقال الكاتب الفرنسي المعاصر (هنري ارفون) H. Arvon ان كثيرا من تعاليم يوحنا ومُرقُس متأثرة بالفاتح (أسوكا) البوذي) ٠ (٢٦)

ولنمعنَ في تعاليم الرسل السماويين عندنا ، فهذا موسى الذي استقى من الامونيّة الفرعونية روحَها ، يقدمه لنا المؤرخ الشَهرَستاني في المِلل والنِحل

ص : ٧٧ فيقول : « بعد موت هارون (اخي موسى) انقسم اليهود شيعا · منهم قائل : قد مات ، وقائل : قتله موسى حسدًا منه ، وقائل اخير : غاب وسيعود · »

وان لهارون مرتبته المعروفة في المسلك التوحيدي ·

والى (إيليّا وشُعَيب) يعود الفضل الاعم في المسلك فهما الاصلان الأوَّلان ·

فلنلبثْ متتبعين ذلك الشعاع الروحي الذي بدا للعيان في شطنيل الحكيم بالهند فالشرق الادنى فمصر فالشرق الاقصى ·

يقول المؤرخ الفرنسي (لوك بانوا) « ان جماعة الأسّينيينَ Les Esséniens هم من النوع الفيتاغوري ، لهم روحانية رفيعة ، تعاليمهم تشبه المسيحية الاولى، وكان يسوع يرتاح اليهم ويقربهم منه (٢٧) · ثم تابع : « انهم يؤمنون بأخنوخ وهِرمس والكلمةِ (يسوع) · » وقد كرر التعبيرَ نفسه الكاتبُ (مارسيل سيمون) Marcel Simon (٢٨)

ثم اضاف : « انهم لم يوحِّدوا المسيح بالله · »

ان جماعة الاسينيين هم فرقة يهودية مرَقت من خط اليهودية المستهترة العابثة ، وانفصلت عنها كليا ، فآمنتْ بأخنوخ وهرمس والمسيح ، ائمةً ومُقتدى ·

عرَّفنا مرتبةَ هرمس واخنوخُ في مذهب التوحيد · اما المسيح فانه الحد الاول السابق · اليه وَكَل الخالقُ تدبيرَ الكائنات ، وهو نفسه شطنيل وشُعَيب ، يأتي في كل دور بلباس ، فيصلح ما فسد ، ويشيد ما تقوض ، وينير السبيل لمن ضله · ورفاق المسيح الاول عرفنا بهم بهاء الدين بقوله : « السلام على اهل التوحيد المقتفين لآثار الحَوارِيين » · هؤلاء هم اخوة المسيح ـ اخوة روحانية ـ في الدنيا والدين ، بمذهب التوحيد ، وتعاليمهم في المبتدأ ، هي الداعية الى الاخوّة والمحبة والتسامح والتقشف والتقوى ، وهي نفسها التعاليم التي يجهر بها ويمارسها كل حين ، معتنقو التوحيد الدرزي ، منزهة عن اي تحريف ·

لقد تابعنا الحديث عن المسيحية بعد الاسرائيلية لترابطهما معا في التاريخ على ان نعود بعدها الى الاغريق ، والى ما يتالق في افقه الزاهي من اقمار ، وما نقلت لنا المجلدات عن اثارهم ، وعنها · فكما كانت اليونان محجة للعلم

الزمني والشعر والفلسفة والفن ، ظلت كذلك سماء صافية التمع في كبدها كبار ائمة التوحيد ، وكانوا القدوة المثلى في الحكمة والتبصّر والهداية ، وفي النضال الشريف العنيف ، بوجه كل غاشم وفاجر ومستأثر ·

التوحيد في اليونان

ساقتطف اليسير مما ذكره المؤرخون والباحثون المجردون لنشهد مدى الترابط في هذا المسلك التوحيدي الغامض ، ترابط لا يدع لأيِّ مكابرٍ مجالا للريبة ، ولا للمصادفة دورًا تلعبه على هذا المسرح ·

وقبل الاستعانة بالمؤرخين ، نشير الى ان الرسائل المكرمة قد كررت ذكر الفيلسوفين اليونانيين : فيثاغورس وافلاطون · ولعلها ذكرت في رسائل لم يتلقفها المذهب ، اسماء اخرين · لكننا في مقارنتنا لاقوال الكتاب ولاعمال الفلاسفة المعنيين غير هذين ، نتبين الحقائق ، وعلى ضوئها نحكم صادقين ، كما يتجلى عمق وشيوع مدرستَي هذين الفيلسوفين في اليونان والعالم اجمع ·

يقول الدكتور احمد فؤاد الاهواني في كتابه (عالم الفلسفة) : « ان النِحلتين الاورفية والفيثاغورية تعتقدان بأن النفس جوهرٌ الهي نزل وسكن في قميص له ، وقتيا » · (مصطفى محمود) (٢٩) · وحوى كتاب (زينون) لجورج عبدالمسيح، وصفا دقيقا (لفيثاغور) يوم رحل الى مصر ، وبعد الاشادة بعظمة هذا الفيلسوف الرياضي وبما اتى من معجزات امام الكهنة المصريين ، قال في الصفحة ٦٤ وما يليها : « ان الرموز المنقوشة على جدران الأهرام اعجزت العالَمَ القديم ، حتى الكهان انفسهم كانوا عَمِهينَ عن تفسير اي رمز ، وحين اقبل فيثاغور ، اخذ يقرأ تلك الرموز كأنها مكتوبة بالاحرف الاغريقية ، او كأنه هو الذي حفرها · فصُرع المشاهدون لدهشتهم » · ونحن اما يحق لنا ان نتساءل من اين جاء الفيلسوف الاغريقي بهذه المعلومات ؟ اصحيح انها حروف اغريقية ؟ ام هي الصدفة المحالفة ؟ ام قوة الحق والايمان وتماسك حلقاته عبر الامكنة والازمنة ؟؟ ·

قال المؤرخ العراقي (جعفر آياسين) : « ان الفيثاغورية والافلاطونية (مدرستان فلسفيتان روحيتان) تأثرَتا بالڤيدا الهندية ، خاصة في ما يتعلق بالتقمص والعقل والنفس وجوهريتهما، ثم ربطها بالديونيسية والاورفية (مدرستان روحانيتان في اليونان القديمة) » · (٣٠)

وقال هنري برغسون في المرجع نفسه : « نحن نرى بالواقع الحماسة الديونيسية قد استمرت بالاورفية وهذه بالفيثاغورية والى هذه الاخيرة يرجع الوحي الاول للافلاطونية ··· وتتالف جماعة الفيثاغوريين من ثلاث طبقات : سمّاعين ، وخاصّة ، ومُتميّزين » ·

هذه المدارس الفلسفية الاربع ، كلها تعود لمصدر واحد ، كما اكدها هؤلاء المؤرخون ، وكلها مترابطة متوافقة مع الروح الفيثاغورية ، وفيثاغورس كما ألمحنا سابقا هو : امام التوحيد ، وجماعته وحلفاؤه لم يناقضوه في جوهر اي التعاليم ·

كان يلقَّب دِيونيس باله الخمرة المقدسة ، وقد لقي الامرَّين من بيئته المتخلفة ، فلم يهِنْ ، ولم تفتر فيه جذوة الاصلاح والتوحيد ·

كذلك فيثاغورس وافلاطون ، فقد صرفا عمرا طويلا في البحث اولا ثم في النضال ومصارعة الاباطيل ، وحرب الطغاة ، والعمل على تقويض النظام العبودي السائد يومذاك · ناضلا وما أُفلحا ، واستمرت عجلةُ البغي والاستعباد ، تطأُ الجماجم فتحطمها ، وتقتلع غِراس الصلاح والرفق والايمان وتنثرها ، حتى انقطع كل امل في عودة السلام والرفد لربوع الاغريق والرومان ·

التوحيد في الاسلام

وجاء العهدُ المحمدي ، فعاود الصحراءَ قبسُ الحق والحزم والنهى ، وانتلق النور المحمدي في رحابها ، فتوحدت القبائل ، وتحطمت الاوثان ، وكُفَّ عن الغزو والوأدِ والاستثمار ، ونودي بالواحد الاحد الفرد الصمد ربًا ، لا اله الا هو ولا معبود سواه ، ونزل القرآن الحكيم بآياته البينات ·

اين هي الحكمة في مَطلّ هادٍ جديد ، وصحب اولياء ، على البشرية من حين لحين ؟ اليس هو القوّام الامّار ، فقد بعث بشريعته كاملة في البدء ، فعلام تعدّد المبعوثين طالما كلهم يدلون عليه ، ويتطلعون الى عليائه ؟؟

لو تصفحنا التاريخ بإمعان ، وخاصة تاريخ الديانات ، لانكشف لنا السر الغامض ، ولأدركنا ان العباد لا يفتأون يميلون الى الانحراف عن جادة الحق ،

وان النفوس الامّارة بالسوء ما تزال جاهدة في اغواء الناس ، ليتنكروا للفضيلة والخير والاصلاح ، ويتقبلوا ناشطين مساوىء الاخلاق ، من بذاءة في اللفظ ، وصلَف في الطبع ، واجرام في النفس ، ومشاكسة وحقد في الصدر · يتقبلون دعوة الصلاح ثم يتناسونها وينساقون مع عواصف الشهوات الرخيصة ، فاذا المجتمع بؤرة جراثيم ، واذا مشاعل الصدق والعفة ينضب زيتها ، ولا يبقى في الذُبالة الا بصيص ضئيل · فتطل عندئذ بوارق الرحمة وتهطل مواطرها ، وتنمو سنابل الخير والطاعة والليّونة،ولكن الى حين ·

رأينا في التاريخ الذي تتبعّناه اي النشاطات والاصلاحات قام بها الائمة الهادون ، في مصر والهند وفارس والاغريق وفلسطين ، وتلمسنا ما كابدوا وما ضحوا به في سبيل اعلاء كلمة الحق ، واطالة لسان الصدق ، وتفتح ازاهير العفة والطاعة · ولولا النكوثُ والارتداد لكان هادٍ واحد ادى الرسالة وكفى خلَفه العناء · ولكن من اين لأعوان آمون وشمعون ويوشع وبيلاطس ، ان يذعنوا لدُعاة الحق ، وهم مطبوعون على البطل · وفي كل دور ومكان ، تجيئنا الايام بألف امون والف يوشع وبيلاطس · واعظم شاهد ، انبياء اليهود · ثم لولا السيفُ لَعادتِ الردة تجتاح الاسلام ·

الاسلام الذي جهر به النبي الكريم ، والقرآن الذي انزل رحمة وهداية للعالمين، ما لبثا ان امتدت اليهما يد العدوان ، فأخذ المجتهدون يتفقهون ، والمؤولون يتزايدون ، والافكار الغريبة تندس وتنخر · حتى بعثت العناية محمدا ورجالا حول محمد لنصرة الحق ، والرأفة بالشعب ، ولفضح كل ذي سلطان بغى واستأثر · كان من الرجال الذين احاطوا بالرسول خمسةٌ متميّزون ، اعترف اهلُ الفضل بسمو خلقهم ورباطة جاشهم في المكارِه ، وتعفّفهم عن قدرة ، ونزاهتهم على القلّة والضنك · في طليعة هؤلاء الخمسة ، (سلمان الفارسي) ·

حسبنا بهؤلاء الخمسة تعريفاً ما قاله رسول الله والامام عليّ في كلٍ منهم ، لنجعل من كلامنا حجة لا يدحضها غامز متفقّه ·

قال الرسول : « لقد أُشبِع سلمان علماً » · عن : خالد محمد خالد (٣١)·

وقال الامام علي : « سلمان مِنا اهل البيت ، ادرك علم الاولين والاخرين »· عن عبد الواحد مظفر (٣٢) واسهب المرجع إطنابا بسلمان ·

ثم قال ابو منصور الطَبرسي ، عن رسول الله : « مَن اراد ان ينظر الى رجل، نوّر الله قلبه بالايمان ، فلينظر الى سلمان » (٣٣) ·

وروي عن ابي هُرَيرة قوله : « كان سلمان صاحبَ الكتابَين : الانجيل والقرآن » (٣٤) ·

ويقول الشاعر الباكستاني الرائد محمد إقبال في كتابه (اسرار ورموز) :

دعْ عنك الابَ والام والاعمام ، وكُن كسلمان ابن الاسلام » قالها بالفارسية : « فارغ ازباب وام واعمام باش ، همجو سلمان زاده اسلام باش » ·

ويكرر الرائد نفسه : « ان سلمانَ نسيجٌ وحدَه بايمانه ، منقطعُ القرين » (٣٥) ·

واطال المرجع نفسه ، الثناءَ على المقداد ، كما انه عدد بفخر غاراته الصاعقة الموفقة وحكمته الرائعة ، وجلده واصراره وثباته في المواقع حتى النصر · عدد ذلك المؤلف في ستّ صفحات من كتابه نفسه (ص : ١٨٤ الى ١٨٩) وكلها اطراء بالمقداد · ثم انه كرر كلام الامام علي فقال : « بصيرة المقداد الحاذق الحكيم تكشف البعد المفقود » ·

وتلاهُ ابو ذرّ الغِفاري ·

ذكر الاديب السوري قدري قلعَجي : « قال الرسول : ما أَقلتِ الغبراءُ ولا اظلّت الخضراء من رجلٍ اصدق من ابي ذر » · وهذا الصحابي هو صاحب القول : « بشّر الكانزين الذهب بمكاوٍ من نار » · وتابع : « عاش لِدحضِ الخطأ ، ومُناهضة الاستغلال والاحتكار » (٣٦) ·

ان ابا ذر هذا ، التزم الصحراء مَنفيًا لتصلبه في مطالبه ، ولو شاء ان يلين او ان يُغضي لجاءته الدنيا بطيباتها ، ولكنه الايمان بالحق والعدالة ، والشعور بمعاناة الضعفاء والمعوزين ، صلّب اوداجَه في وجه الطامعين وقطّب حاجبيه ، ليرتفع بجرأته ومروءته الى قمة تاريخ النضال الشعبي الصحيح ·

وهنا جاء النبي الكريم ليثبّت معتقد التوحيد ، ويشد بحلقاته فذكر بصلابة وصدق (الحواريّين) ، وارجع عمّاراً بنَ ياسر الى قميص سبق ان تلبّسها بعصر المسيح · الى هذا اشارت الرسائل التوحيدية ·

اما النبي العربي فقد عايش (عمّاراً) ورافقه واختبره حتى قال فيه : « هذا الحواريّ المخلص ، والمؤمن الصادق ، والفدائي الباهر » • وقال فيه الامام عشية جيء به مخضبا بدمه ، اثر معركة دارت بين المسلمين والكفار : « كل حرير الدنيا وديباجها ما يصلح ان يكون كفنا لشهيد جليل ، وقديس عظيم ، من طراز عمار » (٣٧) •

وقال الامام في الصحابي الخامس ، ابن مضعون النجاشي ، ما يلي :

« هو راهبٌ ، صومعتهُ الحياة ، شهدتْ به الحياة انسانا شامخا يُعطر الوجودَ بموقفه الفذ » (٣٨) •

تلك هي بعض مناقب عمدة مسلك التوحيد في عهد الرسول الامين •

وانني اتمنى على القارىء العزيز ان ينعم في مطالعة كل اقطاب المعتقد ، الذين اسعدتني فرصة التعرف اليهم في هذا البحث المقتضب ، واني لواثق من ان شعاع النور الروحاني ، الذي انطلق للعيان منذ شطّنيل الحكيم ، مرورا في صميم الحضارات السابقة حتى المسيحية والاسلام ، كان له التألق نفسه في بصيرة الخلق السليم ، والايمان الراسخ • وما كان دعاة المسلك الا رسل صدق وحق ، ورائدين متميزين في صلابة العود ، وقوة الشكيمة على المعاندين ، وفي التواضع والرحمة والاحسان مع سواد الشعب ، وفي الحكمة والاصالة وسداد الرأي ، ازاء كل معضل عسير •

تلك الميزات دعا لها (العلي الاعلى) منذ ملايين السنين ، مُلهمِاً دُعاةَ الخير انْ يغرسوها في كل تربة ، وان يسهروا على تربيتها وصيانتها • فأدوا الواجب حقه ، وضحوا بما ضحوا به ، وتناقلوا الدعوة ومضمونها القدسي والخُلقي ، وما برحوا • ولم تبرح كذلك عقارب الشر تندسّ وتطغي ، لانها طبيعة الخَلق ، والخَلقُ كان مُخيرا في كل دور ، وهو ابدًا خلقان : خلقٌ صدّيق وخلق افّاك ، الى يوم يُبعثون •

التوحيد في العهد الفاطمي

وانصرمت قرون اربعة ، وجذوة التوحيد كامنة مستبطنة ، والفكر البشري في الشرق الادنى ، وعلى الشاطىء الجنوبي للبحر المتوسط ، يتخبط في الضلال

والتطرف والارتياب · قواعد معتقداته مزعزعة ، والتيارات الفكرية التي استقاها من مناهل فارس والهند والاغريق ، تتجاذب ميوله ، وتلتطم بأركان عقيدته العربية الأمُ فتُخلخلها ·

اما الخلافة ، فكانت خِرَقاً موزعةً بين العباسيين في بغداد ، والامويين في المغرب والقرامطة والاسماعيليين والأغالبة ، كلٌ يستأثر منها بنصيب ، وهي في الحق كادت ان تغدو جريدة فات تاريخها ، وهيكلا لجبار مُغفل اللقب ·

وحين شبت الدولة الفاطمية في المغرب ، تنسَّمتِ الخلافة عبيرَ امجادها · فتح المعزّ لدين الله مصرَ ، واستتب الامن وتراكمت الواردات ، وبُنيت الجوامع وفتحت النوادي ، وعجّت المرافىء بالسفن التجارية والحربية معا ، ومشت الحضارة على الشاطىء والصعيد ، يومذاك ، وُكل للعزيز بالخلافة ، وكان مقره القاهرة ثم اسندتْ بعد حُجبة شمسه الى الحاكم بأمر الله ، وكان يافعا بعد ·

في صِغره ، بدت عليه سِماتُ النجابة والعبقرية والحزم ، وشرعت مع الايام تظهر مناقبه ، فكان الرخاء ، وتحصيل العلوم والاداب ، وكانت العناية بكل مرافق الحياة ، والدقة في عموم اجهزة الدولة ، وكانت حرية المعتقد والقول والعمل ·

اطنب المؤرخون في وصف هذه الفترة من الزمن ، ولكن افضلَ من عالجها واحسن تصوير البيئة هم المؤرخون المحدثون امثال عبد المنعم ماجد ، وكامل حسين ، وعنان ·

هل نتمكن من بعث صورة صادقة عن تصرفات الحاكم ومآلها ، وعما تبطن هذه الشخصية من مميزات باهرة نادرة ؟ اذن فلنرجع الى التاريخ ، حيث توزن المناقب والمثالب معا :

قال المؤرخ المُسبّحي الذي عاصر الحاكم ، ولم يكن ذا نزعة طاغية على تفكيره : « ان موته (الحاكم) لغزٌ على الايام ، وجدت ثيابه مزررة على ضفة البحيرة ، ولم يوجد له اثر » ·وقال المستشرق دوزي نقلاً عن الواقع الدرزي للقاضي امين طليع صفحة ٦٤ : « كان (الحاكم) لغزَ عصره ، ذهنٌ بعيد الغور ، وافر الابتكار ، وعقلية تسمو مجتمعها بمراحل » · وقال فيه عبد الله عنان بكتابه الحاكم بأمر الله « الطبعة الاولى » : « جعل قسطا من وقت الوُعّاظ

للنساء ٠٠ تبسّط في اصلاحاته الاجتماعية والخلقية والعلمية فكانت : دار الحكمة والمكتبة الكبرى ، وبيت المال خاصا بالشعب ووو ، ثم اخيرا ظهر كتاب : الخليفة المفترى عليه للدكتور عبد المنعم ماجد استاذ معاصر بجامعة عين شمس تمكن من سبر الكثير من مناقب الحاكم (ص : ٨ حتى ١٥٩) : « ٠٠٠ اضاف اعاديه (الحاكم) على سيرته تزييفا وتَحيّزًا وتشويها لم يعرف له مثيل ٠٠ انه شخصية صوفية مثالية نادرة ، لا تهتم الا بالعمل والواجب ٠٠ لم تُفهم تصرفاته الفهم الصحيح ٠٠٠ ارتقى ذُروةَ الفضائل وهو صبي ٠٠٠ يتفانى في القيام بواجبه عند المجاعات والمظالم ٠٠ الخ » ٠

هذه الشعلة المتوهجة على ضفاف النيل ، « القاهرة » اجتذبت اليها العِباد من كل صوب ، من اقصى المشرق الى المغرب ، فالنوبة فعُمال الروم ، حتى غدت « ام المدائن » ٠ التقى فيها الاسمر والابيض والاصفر والاسود ، والتقى عَبَدة النار والاصنام ، واشياع بوذا وبرهما ، كما اجتمع فيها اليهودي والمسيحي والمسلم ٠٠ وهنالك تفجرت اخيلة ائمة هذه الطوائف ، فكانت البِدعُ المتعددة لكل طائفة ، وكانت المناظرات الدائمة ، يوقد جُذاها اساطين متفقهونَ اعلام ، وكانت المتصوفة في اوجها ، تنهل من كل مورد كوبا ، فتتصارع مع ذاتها ويخطفها الذهول والانجذاب والاتحاد بالذات ٠ والخليفة الحاكم العظيم ، يُلقي بنظره شزرًا على تلك التيارات الفكرية ، مرخيا لها العنان في النقاش والجدل ٠٠ واحتدام الجدال ٠ غير انه كان يحزّ في نفسه ان يتعامى العباد عن حقيقة الذات ، وان ينجرفوا في مجاري اهوائهم الطائشة ، لا يقيمون للعقل وزنا ، ولا يتبصرون بحقيقة نفوسهم ، انما هي النوازع الدنيوية والاخيلة الطائشة ، وفقدان الروية ، ساقهم وراء متفقهين عُمهِ البصائر ، خُرس الضمائر ٠ كذلك كان شأن الرعية ، في حياتها اليومية ، فانها لم تحسن التصرف بما نالته من حرية ، وما حازت من بحبوحة في العيش ، وغنائم وافرة متواصلة ، امّنتها لها الدولة بيقظة الحاكم العظيم وتدبيره ٠ فشاع الفساد في المنازل ، وطغى التعهّر من خلال هذا الرخاء العميم ، وغاب الفضل والصدق والوفاء في وحول هذه المدنية المزيفة ٠

ان البيئة الجغرافية والوضع الاجتماعي الزاخر بالاغراب،متعددي الاهواء والجنسيات والطقوس ، والوضع الاقتصادي الذي بلغ اقصى الثراء ، كلها تسوق الى المزالق ، اذا لم يكن هناك وازع نفسي ، مع سلطة توجه وتبطش في وقت معا ٠

وكانت السلطة ٠ وكان الخليفة الفاطمي قد عزم على استبدال الضلال

بالهدى ، والميوعة بالتعقل ، ، والتعهر بالرصانة والعفة ، فحجب الحرية عن سواد الشعب ، وبعث بالرقباء ، وحرك السياط في السوقة المتهتكين ، فادمى وزجر وكبت .

اما في المجامع العلمية والادبية والفقهية ، فقد اتخذ الحاكم العظيم سلاحه لا للردع والزجر والجبر ، بل جعل منه نبراسَ هداية ، ولفتةً صادقة عميقة الى اعماق الديانات السماوية حيث الجوهر الحق ، والتوحيد الصدق ، والكمال الانساني في المثُل والمتطلعات .

اين الدليل ، الى هذا الصراط المستقيم ، والملأ في بحرِ هواجسهم غارقون ؟؟ يشكّون بأنفسهم ، ويشكون بالله فيجسّدونه ويعدّدونه ، ويتّخذون له سُلالة وميراثا الهيا في كل زمان . وقد جعل بعضهم النفس تحيا بعيدة عن الجسد ، فتحاسب ، ومن اين لها ان تحس الحساب ، وجعلها بعضهم تنتقل الى حيوان وغير حيوان ، وبعضهم نادى بتلاشيها بعد الممات ..

قال في ذلك الحاكم : ما أَضلَّ هؤلاء !! لِيكنْ العقل وازعاً وهاديا لهم اجمعين . ولتكن له السلطة العليا على الكائنات . به يعرفون الله ، وبه يستضيئون في مهامه الحياة ، فيسلكون اصدق السبل ، ويصلون به الى الانسان الامثل في الدنيا والدين .

واتى الحاكمُ بالعقل الارفع والنفس الكلية في قميص بشريّ ، متخذا منهما المنار الهادي للعباد كافة ، متتبعا خطى السلف « الاعلى » ، وما خلفته المقامات، وقد البسهما جسدا بشريا ليصبح كل شيء محسوسا ظاهراً للعيان ، متفقا مع من جاء من هداة منذ القدم ، في بثّ الفضيلة والاخوة والليونة ، وفي ترويض النفس البشرية على الطاعة الواعية والعمل الخيّر ، والتواضع في مسالك الحياة .

بُعيد حُجبةِ الحاكم

وغاب الحاكم العظيم عن الناس (٣٩) وغاب دُعاة الخير الا « الخَيال » بهاء الدين ، فقد استمر مناضلا ، في عالم ارتد بعد الطاعة ، يسير دعاته في انحاء البلاد ، ويبعث برسائله الوضاءة ، رغم تعنت الحكام وسهر الرقباء ، يبعثها من اقاصي الهند الى ضفاف البوسفور ، فجبل طارق ، فقبائل « تلمسان » .

كانت ثورةً عارمة ، تلك الشعلةُ الفكرية الروحية ، في هذه البيئة التي تكثّفت على كواهلها خيوط عناكب التأخر والتناحر ، وعشعشت في نفوسها الصدئة اشأم غربان الرجعية والمفاسد والانحلال ، بعد غياب الحاكم ودعاته الابرار ، ويشهد بذلك الانحطاط ، ما تناقلته كتب التاريخ ، وما مهرته بسنابك جيادها قوافل الفرنجة والتتار المجتاحين ، على ارائك اولئك الخلفاء المستضعَفين المتخاذلين ٠

كان الحاكم بأمر الله ، يرى في الدين ، اي دينٍ ، النهج السديد ، والمرشد الأصدق للعباد ، غير ان الدعاة اتخذوا من اديانهم الاعيبَ واعاجيب ، فحوروا وحرّفوا ، وزيّفوا في كتب معتقداتهم ، حتى اضاعوا الحقائق ، وتعاموا عن اللباب ، متخذين من القشور والسفسطات واجتهادات المتفقهين ، دينا تناسب مع متطلعاتهم وبهارجهم واباحياتهم ٠ وقد دلهم الى الطريقة الوسطى ، واتخذ من العقل الارفع لهم مقتدى ، فلا يضلون ولا يعمهون ، وجاءهم بكل ما يتحسّسُونه ويعايشونه ، مبطلا ما خلفته في نفوسهم الائمة المموهون ٠

ما عتمت هذه الدعوة الهادية ، ان وجدت مشاكسين لها في الطبقات كافة ، يشد ازرهم الخليفة علي الظاهر واشياعه المبثوثون في كل صوب ٠ فسخر المساجد والكنائس وتكِيّات المتصوفين ٠ فشوهوا ما شاء لهم التشويه في هذه العقيدة المستحدثة عندهم ، واوعز الى المؤرخين فسخروا اقلامهم الرخيصة واطلقوا لخيالهم العِنان ، فكتبوا افتراءً وزورا ، وادعوا البهتان على الحقائق الكونية ، جاعلين من شعاع التوحيد الصادق ، شرارات بطل وعبادة عجل وتفسخ اخلاق ٠ عندها خمدت تلك الشعلة المقدسة على ضفاف النيل ، لتستعر في اقطار اخرى ، ولتكون قلعة حصينة لمكارم الاخلاق وللوطنية الصحيحة ، يوم يُغير على الشواطىء العربية مغيرٌ مجتاح ، او يمشي الصدأ فيتآكل صفائح الاخلاق ٠

وكانت فترةَ ركود ، شملت ابناء العقيدة سبع سنوات اثر النكبة المروعة التي بَلا بِها عليّ الظاهر الموحدين الدروز ابتداء من انطاكيا حتى العريش لعام ١٠١٧م، لقي الموحدون امر انواع التفظيع والتدمير والتمثيل ، وهم على محنتهم صابرون، وفي طاعة مولاهم معتصمون ، وعلى تلاوة رسائل بهاء الدين ، وتغذية نفوسهم بما بثه فيها من توجيهات قيمة ، وحثّ على الصدق والسيرة الحميدة والتعاضد لدى المحن والصبر على البلوى والاحتشام والتعفف جسدا ونفسا ، مهما عسر المعاش ، وطغت الاهوال ٠٠٠ هم عليها عاكفون ٠

تلك التوجيهات الحكيمة ، التي اسداها بهاء الدين لمعشر الموحدين والموحدات انطبعت في نفوسهم هُمّ ، واورثوها نسلَهم الصالحَ فمشتْ بالدم والعظم ، وهي في كل ردح من الزمن في السلم والحرب ، في العُسر والاقبال ، تزهر غراسها لتعطي اطيب الجنى · والتاريخ شاهد عدْلٌ ، وكل مفصل فيه ينبض بصدق ارشادات بهاء الدين في هذا النفر المدعو بالموحدين الدروز ، بهذا الدور الدنيوي الاخير ·

كانت سيرة الحاكم العظيم والدعاة الخمسة الاطهار ، مثلًا اعلى لابناء العقيدة وبناتها ، بما قاموا به من جلائل الاعمال ، وما اشتهر عنهم من الحكمة والحنكة والحزم والتجرد طوال العهد ، وان اعمالهم تلك ، صورة صادقة عما جاء في رسائلهم التوحيدية ، من عزوف عن الجشع والبغي والطغيان ، وتعشق لكل ما يعود بالخير والنفع والتوعية لبني الانسان · ولولا الحظر ، لجئنا بعشرات الشواهد من صميم العقيدة ·

لا يجد ملتزمو التوحيد ايةَ غرابة في جليل اعمال الحاكم (٤٠) والدعاة لان الاشعاع التوحيدي الذي انبثق في مصر الفرعونية قبل ستين قرنا واكده التاريخ المدني المتداول ، وان الاشعاعات التي تلته في الهند وفارس واليونان والشرق الادنى ، هي كلها من طبيعة واحدة ما طرأ عليها تبديل قط : انه عنصر الخير العام · وقد قرأ المطالع الحصيف وماز الشبه الكلي ، والصلة المحكمة بين كل هذه الاشعاعات روحا وجسدا ، ولو قارن بينها جميعا ، وبين التيارات الروحية عامة ابتداء بايزوس حتى احدث البِدَع في اكبر الطوائف الحاضرة ، لوجد الفوارق البعيدة والتناقضات الكبرى بين الاصول وفروعها ، بين الكتب السماوية في اصلها ، وبين ما آلتّ اليه بعد التحريف والتكييف ، والمدّ والجزر ·

لنرجعْ الى هِرمس واخنوخ ولنتفحصْ اعمال ادريس الحكيم ، ولقمان وشعيب ويسوع ، اليس كل هؤلاء صورةً صادقة صافية عن شطنيل الحكيم ، وكريشنا الهند وآتوم مصر ، وفيتاغورس وافلاطون · انه الخيرُ العام ، والصدق قولا وعملا ، ونكران الذات ، والمناداة باله احد متجل منزه متعاز ، وبايمان مطلق بحكمة العقل وجوهرية النفس ، واحديتها ، وخلودها ، وتقمصها ومعادها لذات الله ، انه هذا الايمان الحق ، الذي جهر به ، هؤلاء الاعلام واستبطنته مؤلفاتهم وعاد فجهر به حمزة بن علي بن احمد الزَوزَنيّ في رسائل التوحيد بعهد الحاكم بأمر الله ، تلك الرسائل كانت وما برحت المنار الهادي لنفوس الموحدين الدروز ، والدرعَ الواقيةَ من مخاطر الزلل والبُطلان،وان معظم الدروز الذين تفوتهم

نِعمة مطالعة هذه الرسائل ينصاعون ، مهما اختلفت منازلهم في الدنيا . لِنواهي ونصائح العقال الموحدين ، الذين يغترفون معارفَهم الروحية من منبعها الاصيل ·

لقد أسس حمزة بن علي ، هذه العقيدة ، وشاء لها الحاكم العظيم ان تكون مسلكًا وسطا في دنيا الروحانيات ، فلا تلزم التحجر والتعنّت ، ولا تتمادى في التأويل ، وتشوّه الحقائق الكونية ، بما تشحن من زخارف الحياة الفانية . انه العقل ، الهادي لخير سبيل ، وما سواه ، فباطل · وان تصرفات الحاكم وبذله وعدله وتقشفه وتواضعه ، يثبت صحة خط التوحيد وسداده ويؤكد استمراره (٤١).المَقريزي ·

وبعد حُجبة الحاكم ، لِمشيئةٍ في الله ، اضطُر حمزة ان يستتر ، بعد ان اصبح الشرُّ والشرك مطلوقَي العنان في البِلاد ، لكنه قبل استتاره قلّد اخاه الروحيّ الاصغر، المُقتنى « بهاء الدين » امانة نشرِ دعوة التوحيد وصيانتها وتوضيحها ، وكان مـا اراد ·

وقبل هذا كان قد اقسم الخليفةُ عليّ الظاهر لِخلفهِ الحاكم العظيم ، انه لن يعيق نشر دعوة التوحيد ، ولن يَسيم بأذى ، دعاتَها ومعتنقيها ، لكنه نقض العهد بعد قليل ، وانزل بالموحدين الدروز محنة مروعة امتد لظاها من انطاكية حتى العَريش ، دامت ستَّ سنوات وبعض الشهور ·

عقب هذه المحنة ، هب بهاء الدين خفيةً ، يكمل الدعوة ، متنقلا حذراً بين الاسكندرية والقاهرة ، لا يعبأ بالارهاب والدسّ والرقباء · يكتب رسائله الحميمة ، ويوزعها بِوعيٍ وجرأة الى انحاء الارض ، من الهند حتى البوسفور ـ كما نوهت الرسائل ـ · ونجيز لانفسنا توضيحا للقارىء ، ذكر بعض عبارات له لِنتبينَ منها شدة المُعاناة في نشر الدعوة اولا ، ثم مناقب بهاء الدين وحكمته وتواضعه · قال : « ما حزمناه من اعدال الكتان فليَحتاط على بيعه ··· » وقال : « ان اضعف الادوية المُسكنات » وقال مواسيا : « لقد آلم قلبي ما لحق بناتي واخوتي من ··· » ثم نوّه موبّخا الناكثين : « انا بريءٌ مما اخترصه عليّ وعلى الدين ، وما نسبوه لنا » وقال : « الباري يشهد بما اذعتُه من النهى عما احدثه المنافقون ··· يوم تجدُ فيه كل نفس ما عملت مسطورًا » وقبل ان يظعن الى الغَيبة والاستتار قال : « مرضُ النفوس قد اغلظَ على الدواء فلم تنجع فيها دِراسة « الحِكمة » » ·

هذه بعض مناقب بهاء الدين ، قدوة الموحدين الدروز ، الذين يفقهون من دراستهم لرسائله المستفيضة ما تستبطنه من شمائل ، تجعل من الانسان ، اينعَ تربةٍ لمغارسِ المحبة والالفة والتواضع ، والبأس في الشدة ، والصبر على البلاء.

كنت اتمنى لو تجيز الحكمة الشريفة نشر مَضامينها عبارةً عبارة ، لكنه محظور ، انما هناك رسائل كريمة تدور رحى معانيها، في معظمها، حول كتب رسائل التوحيد ، قدّمها للمكتبة العرفانية العربية، الشهيد كمال جنبلاط ، نذكر باعتزاز منها: « مولايَ ! استعيذُ بك من إيابِ الأَنا » المنفرد بذاته ص ١٦٠ . سبحان من انزل في قلوب المقربين الحبَّ ، فعلمهم به سبيلَ الحق . » ص ٢٠٢ . وقال في الشريعة الروحانية : يا نفس ! ان هذه الدنيا دارُ علم وبحثٍ واختبار.. يا نفس ! لو تذوقين المحبة حقيقةً لاستهلكتِ في لذتها .. » وقال في الصفحة ٢٢٩ : « افضل نساء الموحدين : اغناهنّ عقلاً واكثرهنّ صبرًا واقلهنّ مهـرًا . »

لم يخب قط ، هذا الاشعاع التوحيدي العميق المنطلق ، بعد استتار المقتنى بهاء الدين ، لانه كان قد وكلت الى اماجد ميامين ، على الساحل الشرقي للمتوسط ، رعاية الدعوة والسهر على تطبيق ما تضمنته من حقائق ومكارم ، فكان ما اراد .

وقبل ان نطوي صفحة العهد الفاطمي نجد لِزاما علينا ان نُنوّهَ بلمحة فخر واعتزاز بمعركة الاقحوانة . انها مكان في فلسطين قرب حطين ، بجوار مقام النبي شعيب ، جرت فيه معركة ساحقة مظفرة عام ٤٢٠ هـ . كان بطلها الامير الدرزي (رافع بن ابي الليل) الذي قتَل الثائرَ على العهد الفاطمي انذاك : صالح بن مرداس . قتل صالح، وتبددت جموعه في الشِعاب، اما الدروز فكانت تلك اولى معاركهم كطائفة ذات كيان ، فتصافحوا وعقدوا الايدي والمواثيق على المضيّ قدُمًا اخوةَ سلاح ، لا يهادنون الباطل ولا يغمضون على الهوان ، ولا تستهويهم مفاتن الدنيا الى عدوان . (٤٢)

وها نحن مع تلامذة المُقتنى بَهاءِ الدين .

فَمَنْ هم اولئك الاجاويدُ الساهرون على احتضانِ ، وكَتمِ ، وجمعِ ، وشرحِ رسائل التوحيد ؟؟ مَن هم الباعثون في مُعتنقي العقيدة انبلَ ما تتحلّى به نفوس كبارِ القادة والمصلحين ؟؟

الهوامش

١ ـ قصة الاديان ـ دار الوطن العربي (مصر) الطبعة الاولى (المقدمة) ٠

٢ ـ دار الفكر (مصر) الجزء الاول ، الطبعة الاولى ص : ٥٥

٣ ـ الله : طبعة اولى ١٩٦٤ (مصر) ص : ٧٧

٤ ـ المرجع السابق ص : ١٨٦

٥ ـ المرجع نفسه ص : ١٩٣

٦ ـ الله : دار العودة ، بيروت ، طبعة اولى ١٩٧٢ ص : ٥٤

٧ ـ مصطفى محمود ، المرجع السابق ص : ٧٨

٨ ـ العقاد ، المرجع السابق ص : ١٧٢

٩ ـ المرجع نفسه ، ص : ١٨٦

١٠ ـ رؤوف عبيد ، الانسان روح لا جسد ، الجزء الاول ، طبعة ثانية ١٩٦٦ ص : ٤٦٦

١١ ـ النقط والدوائر ، ص : ١٥١

١٢ ـ طائفة الدروز (مصر) طبعة اولى ، ص : ١٠٩

١٣ ـ اديان الهند (مصر) طبعة اولى ، ص : ٦٣

14 — Que sais-je ? P. 97

١٥ ـ البوذية ، طبعة اولى ، ص : ١٥٠

١٦ ـ المرجع السابق ، الجزء الثاني : ص (١٣٨ ـ ١٤٠ ـ ١٤٦)

١٧ ـ المرجع نفسه ، ص : ٢٨٧

١٨ ـ طبعة ١٩٤٩ ، ص : ١١٠

١٩ ـ المرجع نفسه ، ص : ٤٥

٢٠ ـ مصر الفرعونية (مصر) طبعة اولى ، ص : ٣٠٣

٢١ ـ تعريب احمد بدوي ، طبعة اولى ، (مصر) ص : (١٤٥ ـ ٢٨٥ ـ ٢٨٦)

٢٢ ـ مواكب الشمس (مصر) طبعة اولى ، ص : ٦

٢٣ ـ قصة الديانات ، دار الوطن العربي ، طبعة اولى (مصر) ص : (٢٢ ـ ٢٣)

٢٤ ـ الباطنية :
Que sais-je L'Esoterisme

٢٥ ـ المرجع السابق ، ص : ٩٢

٢٦ ـ البوذية : Que sais-je ? ص : (٨٤ ـ ١١٨)

٢٧ ـ الباطنية ، المرجع السابق ، ص : ٩٣ ـ ٩٦

٢٨ ـ المسيحية الاولى : Que sais-je ? ص : (١٧ ـ ٣١)

٢٩ ـ المرجع السابق ، ص : ٥٩

٣٠ ـ فلسفة اليونان (بغداد) طبعة اولى ، ص : (١٢ ـ ٤٢)

٣١ ـ رجال حول الرسول ، الطبعة الثانية (مصر) ص : ٦٧

٣٢ ـ سلمان المحمدي ، طبعة اولى ، ص : (١ الى ٤٠)

٣٣ ـ الاحتجاج (طبع النجف ـ ١٩٥٦) ص : ١٥٠ .

٣٤ ـ ابن عبد البر ـ الاستيعاب (طبع القاهرة) ١٩٥٢ ج٢ ص : ٥٧ .

٣٥ ـ الصحابي سلمان الفارسي لمحمد المصري (طبع ١٩٧٣) ص : ١٢٨ .

٣٦ ـ ابو ذر الغفاري ، بيروت ، طبعة اولى ، ص : ٢٢.

٣٧ ـ رجال حول الرسول ، ص : (٢٦٥ ـ ٢٧٩

٣٨ ـ المرجع نفسه ، ص : ٣١٣

٣٩ ـ تاريخ ابي صالح الارمني ، ص : ٥٢ والمخطوط الكنسي والمسبحي ، كلها تشير الى ان الحاكم بلغ مع الركابي حلوان فامره بأن يعرقب حماره ويعود .. بحث عنه فلم يقف له على خبر أو اثر .

٤٠ ـ تاريخ الانطاكي ، ص : ٢٠٧ والمقريزي المخطوط ، ص : ١٦٧

٤١ ـ المقريزي (اتعاظ الحنفاء) ص : ٥٦ .

٤٢ ـ سليم ابو اسماعيل : الدروز ج ١ ص : ٦٥ وسعيد الصغير ص : ٢٤

العهد التنوخي

عناصر البحث :

أ ــ معاركهم مع الفرنجه

ب ــ حمايتهم للساحل اللبناني

ج ــ تسامحُهم الديني

د ــ إنجازاتهم الدينية والعُمرانية

العهد التنوخي

انهم الامراءُ العرب الخُلّص : آل تنوخ وارسلان ، الذين نزلوا جرودَ لبنان وشواطيه تلبية لنداء الواجب ، لمكافحةِ كل مجتاح ، ولصيانةِ الحرية والقومية والعقيدة ، خشيةَ ان تطالها يدُ العابث والباغي الزنيم . كانوا السورَ المنيع ، وسفكوا الدم الزكي على السفح والشاطىء ، ارضاءً للشرف وصوت الضمير ، وتطبيقا لتعاليم الموجّه الحكيم بهاء الدين .

هذا ما حدث في لبنان ، اما في سوريا فان مِحنتي انطاكيا وحلب وما تبعهما من معارك ومحن اضطرت الكثيرين من ابناء الطائفة الى الهجرة للجبال النائية، او لأُعتناق المذهب السائد . فتشردوا وباد الكثير منهم ولم يبق في حلب ودمشق الا بعضُ الضِياع المجاورة لهما ، كذلك حدث في فلسطين ، حيث كان عامل الانتقام واحدا : التعصب الديني ، والجهل ، والرعونة ، والحسد . (نقلا عن ابراهيم الاسود،ذخائر لبنان ص ٤٦) .

نعود الى الدور المشرّف الذي قام به دروز جبل لبنان ، بعد ان تم لهم التكتل والصيانة وقوة الدفاع .

في عام ١١١٠ م وكان يوم جمعه حاصر ملك القدس (بلدوين) الفرنسي اخو (غودوفروا) بيروت بحرًا وبرا وكانت المدينة في حوزة شجاع الدولة الارسلاني وقبائله . بعد معارك صادقة الطعن ، جادّة الوثوب ، تراجع (بلدوين) ملك القدس بعساكره الجرارة مستنجدا بفرنج السواحل وعملائهم ابناء البلاد ، فانقضوا طوابير من جبيل والغازيّة (بجوار صيدا) مطوقين سواحلَ بيروت . كان الكفاح والاستبسال عبثًا فسقط مئات الشهداء ، يحنون بدمائهم رمال الشاطىء ، ويكتبون سطورا مجيدة بما نزفت جراحهم وغلاصمهم ذودًا عن الحياض والكرامة . لقد استشهد في هذه المعارك بجوار بيروت زهاء عشرين

اميرًا كانوا في طلائع المجاهدين ولم ينجُ الا الامير بُحْتُرُ الصغير ، الذي لم يشهد العراك ، فتخبأ في قرية عرَمون · وقد قضي بعد هذه المعركة على سلالة بني الفوارس (١) ·

اما بيروت فاستمرّ حصارها شهرين ، تجلّت فيها كل معاني الرجولة حين تنادى الشبانُ الموحدون ، فاستقبلوا معدات الفرنج وعدادهم بقلوب صامدة يؤثرون الموت على الاستسلام · قُتل خلق كثير واستشهد امجد قادة بيروت · وقَتل (بلدوين) اسراه وتسلم المدينةَ رُكاما وجماجمَ ونيرانًا ·

في عام ١١٢٧ شبَّ الامير بُحتر (سليل تنوخ) وفي نفسه تضطرم نيران الحقد والثار ، فما ان تولى امارة الغرب (٢) طغتكين حاكم الشام ، حتى اثارها حربًا لا هوادة فيها على الغزاة الفرنج وقرصانهم (٣) ·

في سنة ١١٥١ كان بُحتر قد خبر المعارك بنفسه ، وكانت جماعته على استعداد دائم لمجابهة الدخلاء الغزاة فالتقى الفرنجة على الشاطىء الجنوبي لبيروت ، قرب (نهر الغدير) فكان انتصارٌ مُبلّج لبحتر ، سُميت فيه الموقعة ب (عين التينة) اعطت الاميرَ شهرة عظيمة ، وردت الفرنجة منهزمين الى بيروت نفسها ، فاعتصموا بها لكنه ما برح يهاجمهم ويقضّ مضاجعهم ليل نهار·

حين أُضطرَّ الغزاة لمغادرة بيروت ، كان قد كهل بحتر وتولى ابنه زَهرُ الدولة امارةَ الغرب ومقره (سرَحمول) جنوبي بيروت ، ولآّهُ السلطان نور الدين مناطق واسعة في البقاع ووادي التيم وصيدا ومشارف بيروت ، بعدما وجد فيه شبلَ ذلك الغضنفر · وتتالت معاركه وتضحياته ومهارته في الحرب وبأسه وتفانيه ، ودفعت (بنور الدين) حاكم الشام الاريحيةُ العربية حين عيّن لهذا الامير الشاب مخصصات ضخمة لمتابعة صيانة الشاطيء بين بيروت وصيدا، وقطع طريق الدامور على القراصنة الغزاة (٤) ·

اكّد العلامة محمد كرد علي،ان الدروز كانوا في حرب الفرنج ، على كثير من الثبات وشدة البأس والمضاء القاطع ·

وقالت هذه المراجع انه لولا من حملات امراء الغرب ، وعنادهم في الوثوب والصمود ، لتيسّر اكتساح جميع الشاطيء الشرقي امام المُغيرين وكان القراصنةُ ابلوا احسن بلاءٍ وتامنت قوافل المُؤَن والمعدات التي كانت ترِد الى

القدس من الشمال ، محميّة من جماعات معينة في البلاد ٠

في سنة ٦٤٢ هـ نشبت معارك عنيفة في مرج الخيام (جنوبي لبنان) بين جيوش الفرنجة المتعاضدين ، والامير عامر الشهابي (صاحب وادي التيم) فتعايى الامير وكاد ان يتراجع جنوده ، لكنه استنجد بأمير الشوف ، فلباه ودامت الحرب ثلاثة ايام تشابكت فيها السيوف وتلاحمت الاجسام واذا بأعلام الفرنج تنتكس ، وجيوشهم يولون مدبرين (٥) ٠

ان ثبات الدروز وهزأهم بالموت في سبيل حفظ اعراضهم ووطنهم ومقدساتهم الروحية ، جعل من لبنان موطنًا منيعاء حتى لأصبح ملجأ للمضطهدين ٠

يوم غزا الملك الظاهر برقوق بلاد جبيل وكسروان عام (١١٤٤) م وانتقم من الموارنة لانهم ناصروا الفرنجة ، التجأوا الى بلاد الشوف التي لم يكن بها موارنة قبل ذلك الحين (٦) ٠

في سنة ١٢٥٧ تسعرت نار الضغينة والحسد في نفوس وُلاة بعلبك والبقاع، من آل تنوخ، ومما هم فيه من رفاهية ونعمة ومجد ، فهاجموهم في (عِيتات) (في جرود بيروت) فلقوا اروع هزيمة ، وتركوا على التراب جثثَ قتلاهم وجَرحاهم وادبروا فُلولاً مُمزقة ٠

هذه الانتصاراتُ المتتابعة ، وتلك النعم الغامرة على الشعب وقادته في الغرب غررت بهم المماليك فيمصر ، فقرروا اخضاعهم ٠ وفي سنة ١٢٩٣ تلاقت الجيوش المصرية بالجماهير الشعبية واصلوها معركة تقلقلت لها الهضاب ، وما اسفر الصبح حتى كانت قتلى المماليك عرض الطرقات وكانت لهم هزيمة نكراء٠

لكن المماليك أبوا ان يستذلّوا لِقلةٍ ، فجمعوا جنودهم واتصلوا بوُلاة بعلبك والبقاع وصيدا وبيروت وطوقوا التنوخيين ورجالهم وهاجموهم بفيالق جرارة ، فانكفأ التنوخيون واستكانوا ، ولانتْ قناتهم مؤقتا للفاتحين ٠ لكن القدر شاء ان يتولى الملك (سعيد) مكان والده الظاهر المتوفي ، فحقّق في امر التنوخيين وفي ما عنده من وشايات عليهم ، ثم اعاد المهاجرين منهم ، واطلق سراح المعتقلين في مصر ، واصدرت الدولة مناشير بتزييف الوشايات ٠ وكتب الى نوابه في بلاد الشام يلومهم ويأمرهم بردّ المسلوب او بدفع قيمته (٧) ٠

كان الفرنج في آخر عهدهم بالبلاد العربية يعتمدون على قِرصان البحر والنجدات من قبرص ، وكانوا يتسللون الى الساحل ويتغلغلون في الشِعاب والاودية لذلك فقد اخذ الشعب في الغرب بالتربص لهم ، وبمطاردتهم . وفي سنة ١٣٨٢ خرج الفرنجة من البحر قرب الدامور وشرعوا في التقتيل والاسر ، بعد ان انجدتهم القوات البرية التي التقوها واتجهوا شطرَ بيروت فالتقاهم حاكم دمشق يعضده المناضلون الدروز ، اجتمعوا قرب الناعمة بالعدو ، فابلى الدروز احسن بلاء ، مما شجع حاكم الشام على ان يُطلق على الامير التنوخي يومذاك لقبَ : ملك الامراء (٨) .

ويذكر المؤرخ نفسه في المرجع السابق ان العساكر الشامية ، حين التقت في بيروت بالعساكر الغازين ، تقهقر الشاميون وكثرت فيهم الجراح ، فهجم فجاة الامير سيف الدين يَحيى بأصحابه(٩) وتغلغل بصفوف الافرنج حتى انتزع العلم من حامله . على الاثر انكسر الغزاة ، وهلك منهم خلق كثير ، اما الفضل في هذا الانتصار لحاكم الشام ، فكان لبطولة يَحيى التنوخيّ وجماعته المقاتلين (١٠)) .

ويروي هذه الوقائع بتفصيل أعمَّ كتابُ ذخائر لبنان . قال : في عام ١٣٨٨ م كانت وقعة (الغرب) بين الامير (ارغون) مع تركمان كسروان يعضدهم اولاد الأعمى ، وبين أمراء الغرب . اثر المعركة انهزم امراء الغرب ومقاتلوهم لعدم التكافؤ في المعركة ، فنهبت بيروت ومعظم القرى المجاورة ولم ينجُ من الامراء سوى سيف الدين يحيى ابن الامير نور الدين صالح . ويقول المؤلف حرفيّا : « نجا وهو يقاتلهم مقاتلة الاسود .. وقُتل جوادُه وجُرح هو ثم لجأ الى الفرار الى كهف سُمي ب (كهف ام سيف الدين) حيث وجد فيه والدته فعالجته حتى تم شفاؤه . بعدها استعاد قواه المعنوية فنادى بجماعته لمؤازرة الملك الظاهر بَرقوق في حصار (دمشق وغزة) هناك بدت من الامير شجاعة ، ولا شجاعة عنتر (بالحرف) . قدر الملك هذا التفاني من الامير ورجاله ، فاستجاب لمساندته على محاربة التركماني ، امير كسروان ، وكانت ليلة دهَم فيها المقاتلون جيوش التركماني في (جورة منطاش) بِزوق ميكائيل فانهزم العدو وقُتل الامير علي ابن الاعمى وفرّ اخواه فتتبعهما الامير يحيى حتى (غزير) وقتلهُما هناك . حين عاد لديرته لقبته العشيرة بـ:(مُفرّجِ الكُروب) .

ويتابع المرجعُ نفسه : « وقد دارت معركة بين الملك الظاهر برقوق وبين اعدائه بمصر ، فانضم اليه الامير سيف الدين يحيى وابلى احسن بلاء وعام ١٤١٣ تصدى الامير سيف الدين للفرنج الذين خرجوا من البحر عند الدامور وجعلوا

يعيثون في السواحل اسرا وقتلا ، فصدهم الامير نفسه ٠»

وتابع المرجع : « حين نهض الملك (المؤيّد الخاصكي) من دمشق بجيشه ، سارع اليه الامير سيف الدين ناصحًا ٠٠ وخطّط له لمقاتلة الصليبيين ودعاه ضيفا (للشويفات) فضافهُ ثلاثة ايام ، من بعدها هاجموا الفرنجةَ معًا في (الناعِمة) فهزموهم وعاد الملك للشام بعد ان اكرم الاميرَ بالخلع السنية ولقبه (بملك الامراء) وضم اليه جميع الولايات الساحلية ٠ » (١١) كما اتّضَح ٠٠

توطّن البحتريون التنوخيون عَرمون قبل سنة ١١٢٥ وكانت سياستهم ترقبًا وحذرا بين التتار والمماليك ٠ ثم عهد المماليك الى البحتريين بحماية الشاطىء ضد هجمات الفرنج وقد تمكنوا من تثبيت سلطتهم وحكمهم حتى اواخر القرن الخامس عشر . استولوا على بيروت وعلى منطقة الغرب وكان مقرهم الاول سَرحْمول (١٢) ٠

كيف يمكن ان تكون سياسة ال بُحتر « ترقُّبا » كما شاء المؤرخ حتي ان يقول ، وقد ولّاهم المماليك السلطة ثلاثة قرون متتالية ؟؟

يقول حتي : أُنيط امر الدفاع عن بيروت في وجه غزوات القراصنة المتكررة ، بهذه العائلة عام ١٢٩٤ (١٣) ٠

ويقول : « من المؤرخين الذين لهم مكانة خاصة : صالح بن يحيى (توفي ١٤٣٦) الذي اعتمدنا مؤلفه : تاريخ بيروت ٠٠ اتم تاريخ صالح ، حمزة بن احمد بن ساباط من بلدة (عاليَه) توفي عام (١٥٢٠) (١٤) ويجدر التنويه ان كِلا المؤرخَين تنوخي صميم ٠

من مآثر التنوخيين وبطولاتهم ، ما اظهره (زين الدين بن علي) في مواقع عدة ، ابرزها (عين جالوت) سنة ٦٥٨ هـ الواقعة قرب بِيسان (فلسطين) فقد جلّى في هذه الموقعة زين الدين حتى لفت انظار رفاقه المحاربين ، وتعالى هتافهم بحياته ، وتوافدوا اليه يقدمون له النبال لما رأوا فيه من دراية وحسن تصويب، وبعد جلاء المعركة ، وكسب الغلَبة ، طفق المقاتلون يفِدون الى السلطان (قطز) وينوّهون بحذق وشجاعة زين الدين ، مما دفع بالملك الى اخلاء سبيله وسبيل اخويه ، الذين اعتقلوا جميعا لتهمة الحقت بهم (١٥) ٠ وقد حدث الرواة عن هذا البطل اقاصيص مذهلة في الرجولة ورباطة الجاش ، يضيق المجال عن تعدادها ٠

لم يفتأ التنوخيون يناوئون الفرنجة ، ويقطعون عليهم طرق المواصلات البرية، ويصدون القرصان ، ويمنعونهم من انزال الجيوش والمعدات · لكنهم كانوا على قسط وافر من الحنكة والدراية · ذات يوم دعا صاحب بيروت الفرنجي اخوة جما ل الدين التنوخي ، لعرس خارج البلدة ، فلَبوا جميعهم ، وفي الليل طغت نزعة الشر على نفس الفرنجي فقتل الثلاثةَ ونجا الرابع واسمه حِجى وهو طفل · لبثَ حِجى عند كِبَره يتحين الفرص ليثار ، واذا بالملك الناصر بن ايوب يجتاح بيروت بمساندة الامير حِجى وجماعته ، فلمس الملكُ بيده راسَ حِجى قائلا : « ها قد اخذنا بثارك ، فطيّب قلبك واستلم مهامّ سلفك » (١٦) ·

تلك هي بعض مناقب التنوخيين وجماعتهم ، في القيادة والبطولة والاخلاص للقضية ولهم مثلها باع طويل في التنظيم ، والحكمة ، والتسامح الديني ، ودقة الفن · وفي ذلك يقول فيليب حتي : « اثناء حكمهم (بنو بحتر) النيّر السمح ، كانت منطقتهم تنعم في شبه استقلال داخلي ·· فتحوا ابواب المدينة امام التجار الاجانب (لا الغزاة) وقد سُمح لهم في بناء خانات ، وحمامات ، وكنائس » (١٧) ·

وكرّر حتي القول : « ان اقطاعهم (البحتريون) كان كلّه حريةً ، ورفاهيةً للمزارع ، عكس السوريّ والمصري واللاتيني » (١٨) ·

ان التسامح الاقليمي والديني كانا متاصلَين في عقيدة التوحيد سابقا ، وقد جاءت فروع شجرة التوحيد هذا ، لتبارك الأرومة ، ولتؤكد التسامح عن مقدرة ووعي ، حين يعود بالنفع على الشعب والوطن ·

وللتنوخيين واشياعهم باعٌ كذلك في التاريخ والشعر والفن والتنسيق والتشريع · فسطعت منهم كواكب في افق عربي شرقي ، كان يكتنفه الظلام ، وتُهيمن عليه المخاوف والغزوات ، ويتآكله التخلف والتعصب المقيت وتحجر المواهب ، وضيق افق التطلعات ·

كان صالح بن يحيى ونسيبه الشيخ بن سَباط من المؤرخين المحقّقين · دوّنا تاريخ بيروت في تلك الفترة الزمنية ، فشهد بترفعهما المؤرخون · وكان محمد بن علي بن الغَزي شاعر التنوخيين · قال فيه صالح بن يحيى (١٩) « كان من فصحاء زمانه نظما ونثرا ، مشهورا بين الناس بالبلاغة ، ذكره المؤرخون في تواريخهم » وكانت وفاته بين (٧٦١ ــ ٧٦٢) هـ · ومثله الشاعر سيف الدين التنوخي المعاصر للامير السيد ·

ولنا كلمة في آثار احد الشاعرين بموضع لاحق ٠

اما الفن فقد اجاد الخطَّ العربي على اختلاف انواعه الامير عيسى الثاني ، بعصر الامير السيّد ايضا ، حتى لقد شبه بابن مُقلة ، اول ناسخ للقرآن ، وكان هذا ، اول ناسخ لحكمة التوحيد ٠

واما الامير عيسى الاول ، وهو الجد الخامس لعيسى الثاني فله يعود كل الفضل في جمع رسائل التوحيد وترتيبها وتنسيق اجزائها والتحقق من صحتها (٢٠) ٠

واخيرا ، الامير جمال الدين عبد الله الملقب بالسيّد ، وكان حجةَ عصره ورأس الفقهاء ، شرح بعض رسائل الحكمة بتعمّق وتبصّر ٠ نعود الى منجزاته في فصلٍ آتٍ ٠

هل نتساءل من اين سعد الموحدون الدروز ، وهم في تلك البيئة الصاخبة ، وبين سلاجقة وتتار وجركس وفرنجه ، بذوقٍ ادبي عربي سليم ، ولسان فصيح لا لُكنة فيه ولا لحن ، وفي حرص على العرض ، واستخفاف بالموت ، ومهارة في الطعن والضرب،اذهلت المقاتلين وكسرت شوكة الغامزين والطامعين ؟؟ انه الاصلُ والطبع العريق ٠ كيف ؟ اجمع المؤرخون على ان كل هذه العشيرة من اصل عربي، ومعظم قبائل هؤلاء بارزة ونبيلة ٠وكانت لها ايادٍ طولى ومواقفُ مشرفة في البطولة والوفاء، والجهاد في سبيل الدين الحنيف ابتداء من عهد المنصور ٠ ومنذ كانت مِهادهم الصحراء ، ومضافاتهم داخل الاطناب ، واغلب ايامهم على صهوات الجياد ، يصارعون خشونة الطبيعة ، ومطامع الغزاة ٠ كانوا يضحون بحياتهم حبا بالحرية الكاملة ، والانعتاق من قيود المجتمعات المزيفة والحفاظ على عائلاتهم مَصونات مُعززات (٢١) ٠

واعتنق هؤلاء المؤمنون مذهبَهم الجديد ، وتعرّف شيوخهم الى مناقب وتصرفات دعاته السابقين واللاحقين ، والى جذوره المتعمقة في اجود تربة عرفتها الانسانية والفكر النابه ، في المكارم والشموخ ٠ كل هذا تفاعلَ تفاعُلا عميقا وعنيفا في نفوس دعاة التوحيد وقادته الزمنيين وجموعه الغفيرة فتأصّلت م هذه المناقب ٠ هذه السِمات الوضاءة بدَت واضحة

في زمن الكشف ثم تجلت في العهد التنوخي ، فتعمَّدَ بها الشعب اجمع قـادةً وشبانا ، وانه لمفروض فيها ان تستمر متغلغلة في جوارح هذا الشعب يُطربها العدو والصديق ، وتلقنها للتاريخ اقلامُ جمهرة المؤرخين الشرفاء · فهل صدقت الحقبةُ المعنية العقيدةَ والاخلاقَ ، والى اي مدى ؟؟

الهوامش

١ ـ ابراهيم الاسود ، ص ١١٢ نقـلا عن اخبار الاعيان ص : ٦٤٦

٢ ـ هو المنطقة الممتدة شرقي بيـروت حتى جبال الدامور

٣ ـ اخبـار الاعيـان ، ص : (٦٦٣ ـ ٦٦٤)

٤ ـ خطط الشام ، ج٢ ، ص : ٣٤ ، والغرر الحسان ، ص : ٣٥٠

٥ ـ خطط الشام ، ج٣ ، ص : (١٠٤ ـ ١٠٦)

٦ ـ الغرر الحسان ، ص : ٢٣٩

٧ ـ خطط الشام ، ج٣ ، ص : (١٢٥ ـ ١٢٦)

٨ ـ الغرر الحسان ، ص : ٥٨٠

٩ ـ هو والد المؤرخ صالح بن يحيـى صاحب تاريخ بيروت

١٠ ـ الغرر الحسان ، ص ٥٨١ · صالح بن يحيـى ، ص : (٣٥ ـ ٣٦) · فيليب حتي ، ص : ٤٠٧

١١ ـ ابراهيم الاسود ، ص : ١٨٣ وما يليها ، المطبعة العثمانية ١٨٩٦

١٢ ـ فيليب حتي (لبنان في التاريخ) ص : ٤٠٤

١٣ ـ لبنان في التاريخ ، ص : ٢٨٤

١٤ ـ المرجع نفسه ، ص ٤٢٤

١٥ ـ عجاج نويهض (التنوخي وابـو هلال) ص : ٣١ عن صالح بن يحيى

١٦ ـ المرجع نفسه، ص : ٣٢ عن صالح

١٧ ـ لبنان في التاريخ ، ص : ٤٠٦ ، وصالح بن يحيى ص : (٣٩ ـ ٤٠)

١٨ ـ لبنان في التاريخ ، ص : ٤٠٨

١٩ ـ عجاج نويهض (التنوخي وابو هلال) ص : ٤٠

٢٠ ـ اضواء على مسلك التوحيـد ، (توفيق سلمان) ص : ١٣٢

٢١ ـ الجنرال اندريا ، ص : (١١٠ ـ ١١١ ـ ١١٢)

العَهد المعني

عناصر البحث :

أ ـ فخر الدين الاول وابنه القِرقماز

ب ـ فخر الدين الثاني

ج ـ فخر الدين ، في خطه القويم

د ـ نهاية فخر الدين

هـ ـ وثائق

في زمن التكشف ثم تجلت في العهد التنوخي [illegible] الشعب [illegible]
وشبانا ، [illegible]
[illegible]
[illegible]

الهوامش :

١ ــ [illegible] ، ص : ١١٢ [illegible] عن [illegible] الأعيان ص : [illegible]

٢ ــ [illegible]

٣ ــ [illegible] الأعيان ، ص : ([illegible])

٤ ــ [illegible] ، ص : [illegible] ، والقرى الحسان ، ص : [illegible]

٥ ــ خطط الشام ، ج٢ ، ص : (١٠٤ ــ [illegible])

٦ ــ القرى الحسان ، ص : ٢٣٩

٧ ــ خطط الشام ، ج٢ ، ص : (٢٣٢ ــ [illegible])

٨ ــ القرى الحسان ، ص : ٢٨٠

٩ ــ [illegible] صالح بن يحيى [illegible]

١٠ ــ القرى الحسان ، ص : [illegible] صالح بن يحيى ، ص : ([illegible])

١١ ــ [illegible]

١٢ ــ [illegible] ، ص : ٢٨٢

١٣ ــ المرجع نفسه ، ص : ٤٢٨

١٤ ــ [illegible]

١٥ ــ [illegible]) ص : ٣٢ عن صالح بن يحيى

١٦ ــ المرجع نفسه ، ص : ٣٢ عن صالح

١٧ ــ لبنان في التاريخ ، ص : ١٠٦ ، وصالح بن يحيى ص : (٣٩ ــ ٤٠)

١٨ ــ لبنان في التاريخ ، ص : ١٠٨

١٩ ــ [illegible]) ص : [illegible]

٢٠ ــ [illegible]) ص : ١٢٣

٢١ ــ [illegible] ، ص : [illegible]

العَهد المعني

لم يأتنا العهدُ المعنيّ بجديد ، بأسًا وحُنكة وتجرداً وسماحًا ، انما كان الجديدُ تركيزَ قواعد الحكمة ، على اتساع رقعة سلطانه ، مُستلهمًا حكمة الدراية من مناقب السلف . دلل المؤرخون على نشاط الصناعة والتجارة في العهد البُحتري التنوخي ، بالرغم من المعارك المتواصلة والقلق الدائم ، وكذلك غدت الحال في الزمن المعني .

لم يبق ثمة جيشُ غزاةٍ من الفرنجة على الساحل اللبناني ، فمن اين قدم العدو ، وما العوامل التي دفعت به واطمعته في هذا الجبل الحصين ؟

انه مناخُ لبنان ، الذي انشأ اجيالا من العمال النشيطين الفنيين ،وانها تربة لبنان ، الغنية بالمعادن ، وبالسواعد التي تستخرجها وتصنعها ، وبالحكام المخلصين الشرفاء ، الذين يسهرون على دقة التصدير والاستيراد بعيدين عن كل احتكار وابتزاز ورشوة . اولئك الحكام الذين تعاهدوا بموجب اتفاق مسبق مع الدولة العثمانية الحاكمة ، وتعاقدوا مع امارات غربية ومع بعض الدول الصناعية منها ، على مبادلة الانتاج الزراعي والصناعي ، بحيث لا يحدث اي فيضٍ او كساد في الانتاج ، ولا يشتكي احد من غُبن او عُسر حال . الشعب كله ، يعمل لاجله كله ، والامراء الحاكمون ، ينظرون الى كل الشعب بالعين التي ينظرون بها الى الخاصة من ذويهم وجماعتهم . لا فاضلَ ولا مفضول ، ولا اجير ولا امير امام القانون . كلهم يعمل ، والبطالة عندهم امّ الرذائل .

يقول مقدّم فرنسيّ زار لبنان بعيد العهد المعني ، في كتابه (**دولة الدروز**) :

« كان فخر الدين ينشر الاخاءَ في ارضه ، والالفةَ بين مختلف افراد شعبه · » وقال : « لقد منح (فخرُ الدين) التجارةَ الحمايةَ الفائقة ، فجذب الاجانب الى مرافئه » وتابع : « اذا لم يكن الدروز قد استوحوا مبادئهم من الضمير الانساني ، فلا يمكننا الجدال في ان رؤساءهم ساروا بوحيه ، مدركين انه محرم عليهم السير في طريق غير انسانية · »

ومما قاله : « **ليس بين هؤلاء من لا يعمل ، الغني والفقير يعكفان على الانتاج** العام المشترك ، والبطالة بالنسبة اليهم عارٌ كبير ·» (١)

كانت هذه الحياة العامة في ذلك الزمن : تسامح وانفتاح ، وتعاضد في الملمات · قال المؤرخ يوسف حتي : « ترتكز سياسة فخر الدين على دعائمَ ثلاث : **الامن ، والازدهارِ الاقتصادي ، والتسامحِ الديني او عدمِ الاعتراف بالطائفية ·» (٢)**

لم يأت هذا الامير بجديد هنا ، فالقواعد الثلاثُ كانت ركيزةَ العهدَين السابقين : الفاطمي التوحيدي ، والبحتري التنوخي ، كل ما جاء به الامير انه كان امينا على الرسالة التي وُكلت اليه ، وكان مُنصتا لصوت الانسانية والواجب العمراني ·

ولنا وقفةٌ اطول مع هذا الامير الشاب في صفحة لاحقة ، بعد التعريف بنسبه واسلافه ، والوقوف على اخبار معاركهم ونضالهم الوطني ·

*

يروي **المؤرخ محمد المحبي** ما يلي : « امر طغتكين صاحب دمشق ان يقوم معن الايوبي بعشيرته الى البقاع ، فلبنان المشرف على الساحل ، ليتخذ منه حصنا يطلق الغارة منه على الفرنج ، لبى ونزلوا **صحراء بعقلين وجعلوها مقرًا** لهم » (٣) كان ذلك عام ١١٢٠ م غداةَ كان الشُوفُ قفرًا ، وبنزول المعنيين فيه ، دبّت به الحياة فأَهل وعُمّر وشُجر · **وتعاضد الاميران معن وبحتر على مجابهة الغزاة الفرنج** ، والترصّد لهم ، وفلّ شوكتهم · كانت بينهم معارك طاحنة كان فيها لجماعة الموحدين ، من رباطة الجأش والاقدام والصمود ، ما اذهل وُلاة مصر وطرابلس ودمشق · فوجد السلاجقة والمماليك كل الطمأنينة الى قوة عربية صامدة متفانية ، تحمي الساحل اللبناني ، وتوهن المجتاح ، وتبدد امانيه ·

وكانت حدود دولة الامارات الدرزية **من وسط كسروان حتى صيدا ساحلاً**

وجبلا ، وكان القتال فيها مستمرا بين كرّ وفر ، يُصليه ابناء البلاد العرب على الفرنجة ·· ويقول هذا المرجع انه « **لولا صمودُ الدروز وعظم بسالتهم لكان تيسر للافرنج ان يجتاحوا جميع البلاد** ، بمجرد سير جيوشهم الجرارة ·»

وبعدُ ، توافدتِ القبائل العربية ، وعلى رأسها الشهابيون ، الى جنوبي لبنان ووادي التيم · وفي استيلائهم على حاصبيا ، تألبت الفرنج عليهم ، وشنوها حملةً عشواء في (مرج الخيام) فاستنجد الشهابيون بدروز الشوف ، فوافوهم على ظهور الخيول ومشاةً مدججين · كانت ايام ثلاثة ، ما استقر حسام في غمده ولا ترجّل فارس · وكان اميرُ الدروز يومذاك عبد الله المعني ، فانه ما انفك يُجاهد حتى نكّس الافرنجُ اعلامَهم وولوا مُدبرين ، في نهاية المطاف (٤) ·

في هذه الاثناء شرع قرصان البحر ينقضون على المدن الآمنة عائثين مدمرين فتصدى لهم المواطنون في معارك كثيرة وهائلة ، مما جعل الفرنج يتهيبونهم ويخشون بأسهم ، ويتجنبون منازلتهم ، ويحاولون التودّدَ اليهم واغراءَهم وبثّ روح التفرقة بينهم ، وبين القضية العربية التي يتبنّونها ، ولأجلها يتفانون · وقد اعيت الفرنجُ الحيلة · ما وجدوا سبيلا اليهم ، غير مواصلة الصراع ·

على ان بعض المواطنين ، الاغراب عن عقيدة التوحيد ، كانوا يوآزرون سِرًا غزاةَ الفرنج · فحين غزا الملك (الظاهر بَرقوق) بلاد جبيل وكسروان عام ١١٤٤ م · انتقم من اعدائه المواطنين ، ففروا من ديارهم والتجأ معظمهم الى الشوف ، (٥) وتابع المؤرخ حرفيًا : « **فوجدوا من الدروز كل عطفٍ وحماية** » ·

ويقول المؤرخ سعيد الصغير : « بعد ان اجلى الملكُ الاشرف الافرنجَ عن سوريا سنة ١٣٠٠ م عجز المسيحيون عن حماية استقلالهم ، فهاجر كثير منهم الى ··· وكثيرٌ منهم وجدوا الامنَ والحماية بين ابناء الشوف ·» (٦)

كانت الحروب الدائرة عربًا وفرنجة ، بين استقرار وانفجار ، وكر وفر على الدوام ، وحينما تصعّدتِ الهجمات الغربية ، وعجزت الحاميات العربية عن رد المجتاحين ، سلم اولو الشأن حماية الساحل للدروز ، « فعمروا المناطق ونظموا ادارة البلاد ، وتولوا مراقبة المراكب البحرية ترصدا للعدو ، كما استعملوا الحمام الزاجل في النهار لارسال البريد ، وفي الليل اشعال النيران على القمم· وهكذا كان آل تنوخ ومعن حِجازًا في اعالي سواحل لبنان ، بين املاك الفرنج

واملاك صاحب الشام ··· وقد اظهروا من الشجاعة ما يفخـــر به التاريـخ العربي ·» (٧)

قلما طال أمدُ الاستقرار في الشرق العربي بعد الفاطميين ، إما عدو خارجي يناضلونه ، او نزاعٌ داخلي بين الامراء والوُلاة ، وهكذا دواليك ، حتى كـان الفتح العثماني ، وكانت معركة مرج دابق سنة ١٥١٦ م · انتصر المعنيون فيهـا للاتراك ، تخلصًا من جَشع ومظالم الجركس المماليك ، فاشتركوا في القتـال ، وابلوا بلاءً جعل السلطان سليم ، فاتحَ البلاد يقدرُهم ويميزهم عن سواهم مـن إقطاعيي الولايات السورية ·

حين تركّز السلطان الفاتح في الشام ، دعا امراءَ لبنان ان يوافوه ، فسـارع اليه فخر الدين المعني الاول صاحب الشوف وجمال الديـن الارسلاني صاحب الغرب ، وعساف التركماني (صاحب كسروان وجبيل) · وقد ثبّت السلطـان هؤلاء الامراء فيمناطقهم اما فخر الدين فقد خلع عليه خلعة ثمينـة ، واطنب بعشيرته ، ولقبه (بسلطان البر) (٨) · ولولا حسن بلاء قوم الامير ، وبُعد صيتهم وتوافر الاخبار عن حسن ادارتهم وشجاعتهم ، لما كانت الخلعـة ولا اللقب الضخم ·

ان حكمة السلطان بهذا التصرف في لبنان ، جعلت من ارضه موئلًا لكل فقير ومشرد ومضطهد ، لكن ما لبث ان كثر عدد الاشقياء بسـبب تراكـم الضرائب الجائرة ، والمغارم التي كانت تجبى بالقسوة والاضطهاد ، سيما من المسيحيين الذين وجدوا في اللجوء الى جيرانهم الدروز امنعَ حرز · وقد زار لبنان فـي عام ١٥٩٨ م السائح البلجيكي كرتوفيكيس · ونزل في صيدا وتفهم وضـع الرعية والراعي فقال : « الدروز جبليون نشيطون ، جريئون ، مُحبون للحرب ، ممتازون في الرماية ·· يصنعون اسلحتهم بايديهم ، وارضهم تعطي حديـدا وافرا ··· حافظوا على استقلالهم وأبَوا ان يَخضعوا لحاكمٍ اجنبي ·» (٩)

فخر الدين الاول وابنه القِرقماز

هذا الإباءُ والعنفوان في الجماعة ، ساق لهم مِحنًا ومجازر ، كانوا يتلقّونها بصبرٍ وشجاعة وثبات ، واكثر ما تكون الغلبة لرجالهم ·

حين استقر فخر الدين الاول ، وبسط سيطرته على البلاد من يافا جنوبا حتى طرابلس ، وشاد وحصّن ، واغنى ، وامّن الرعية واللاجئين معا ، حسده الحكام الاتراك المتفسخون المتخاذلون المتكالبون ، فأخذوا يكيدون لإخضاعه والحاقه بولاياتهم · فرفض وابى غير الاستقلال مطلباً ، فجهز والي دمشق ، احدُ حساده، جيشا كبيرا هاجم به الشوف عام ٩٣٠ هـ مفاجئا غادرا ، فدمر واحرق وقتل دون مراعاة النساء والاطفال (١٠) · لكن الدروز ما لبثوا ان استعادوا تعمير قراهم وشرعوا يستعدون للمعركة مع الوالي الغادر · احسّ الوالي بذلك ، فحاول استعطافهم رياءً، واستدعى الاميرَ فخرَ الدين بحجة تصفية الامور بينهما · وان الرغبة الملحة التي بدت من الوالي في التآلف والتضامن ، خدعت الامير ، فنزل الشامَ ضيفا ، فغالَهُ على الفور سنة ١٥٤٤ بعد حكم زاهرٍ عادل دام اربعين عاما ·

هاجت جماهيرُ الشعب اللبناني ، على اختلاف ميوله ، لهذا التصرف الجبان وانتفض القرقماز ابن الامير القتيل ، يعمل على تعبئة الشعب ، وادخار المعدات لثأر لابيه ، فكانت معارك دامية من حين لحين ، بين هؤلاء الموتورين وبين عملاء الاتراك في دمشق ، وفي الجوار ، واستمر التقاتل حتى اطل عام ١٥٨٥ والقرقماز متواصل الأرَق ، تغلي بصدره نيران الحقد والانتقام من عدوه وهو ما برح عاجزا عن بلوغ امنيته ·

في العام نفسه سَلَبَتِ الاموالَ الاميرية فئةٌ مجهولة الهويات ، في جون عكّار · وجّه اعداء الامير تهمتهم الى رجاله ، وجردوا عشرين الف مقاتل بقصد ابادة الدروز ، والدروز ، كما اثبت المؤرخون بعدئذ ، كانوا براءٌ من هذه التهمة · وبعد مزيد من الضغوط اضطروا ان يلجأوا الى سيوفهم ، وهم قِلة ازاء تلك الجموع · بوغتوا في البدء ، واغتيلوا خدعة ، غير انهم صدقوا الكرة وعادوا فأرووا الصوارمَ من دم المعتدين ، وقتلوا قائدَهم (أُويس باشا) · ثم عادت الدائرة عليهم اخيرا بعد وصول حملة كبيرة بقيادة ابراهيم باشاءالوالي العثماني بمصر ، (١١) وصاحب مَجزرةِ عَين صَوفر سنة ١٥٨٨ ·

اما حكومة اسطنبول ، فقد تحرّتْ وادركت الحقيقة ، فأبتْ عن غيّها واطلقت سراح المعتقلين الدروز ، وكانوا ثلاثة الاف رجل · واما القرقماز فلم تَعفُ عنه ولا هو سلم نفسه لانه كان طوال حياته يرفض الانصياع لاوامر الدولة ويأبى دفع الجزية والخراج · فاعتصم بمغارة نيحا ومات اختناقاً سنة ١٥٨٥ تاركاً ولدَين : فخر الدين ويونس · (١٢)

فخر الدين الثاني

« اي ملك يستحق لقب « كبير » كفخرِ الدين »

« الكولونيل الفرنسي ب· دي سان بيار »

« كانت معاملةُ فخر الدين سَمحاءَ للطوائفِ الغريبةِ عن طائفته » ·

« فيليب حتي »

فخر الدّين الثاني

بعد وفاة ذاك الاميرءالابنِ البار والابِ الانوف ، طلبت زوجتُه الستُ نَسَبْ من احد اصدقاء زوجها المسيحيين : الحاج كيوان ، ان يُخبِّىءَ ولدَيها عنده ، فلبّى الصديق الطِلبة واحسنَ معاملة اليتيمين وفي العام ١٥٩٠ استدعى خالُ الاميرين الولدين ، فخر الدين ويونس الى بلدة عبيه،وحين بلغ الاول سن الكمال ، سلمه خالهُ ولايةَ الشوف ، التي كان يديرها مؤقتًا بعد مقتل السلف الصالح صهره .

وصف المؤرخ البريطاني ، الذي زار لبنان عام ١٦١٠ جورج سانديز هـــذا الامير الشاب فقال : « كان قصير القامة ، لكنه عملاق في شجاعته ومآتيه .. لم يكن البادىء قطُ في حرب .. » (١٢)

اما المقدّم الفرنسي (بيجيه دي سان بيار) P. de St. Pierre فقال : «عندما ورث فخر الدين الثاني منصب الامارة كان الدروز قد بلغوا من القوة حدًا قصيا. وكانت الهدايا الفخمة التي قدموها للسلطان مراد الرابع ، تشير الى مـــدى يُسرهم (١٤) ، وما هذا اليسر الا حلالا عم الشعب اجمع ، بالنظر لِسَعة الرقعة التي اصبحت تحت اشرافهم ، ثم بما لهذا الشعب من جلد على العمل ، واتقان للصناعة ، وتنشئة موفقة للزراعة في سائر الولاية ، ونشاط في التجارة وسوقها عَبر البحار .

وقد وصف هذا الضابطُ ، فخرَ الدين قائلا : « **كان ذكيًا فطنا متمتعا بالحكمة والمقدرة الفائقة** ، عكف على العلوم الادارية ... كانت المواهب التي منحته اياها الطبيعة ، تدفعه بخطى حثيثة في المعتركِ السياسي ، حتى ابدى مقدرة فائقة في كل مرافق متطلبات الحكم .» وتابع : « لقد وجد الاتراك في هذا الامير الشاب اعظم سندٍ لهم لِصد غزوات البدو الذين كانوا ينزلـــــون الكوارث في الرعية ، فأطلقوا عليه لقب : « **المُنقذ الكبير** ». (١٥)

وقد اسهب المؤلف في تعداد انجازات فخر الدين : منهـــا دخوله بيـــروت

واستعادتها ، بعد ان تقوّضتْ مبانيها وحماماتُها ومعابدها ، بُعيد تصرم العهد التنوخي ، واجتياح الاتراك ، فجعلها مخزنَ ثروته ، وشيد ما تهدم فيها ٠ وانشأ الحدائق الغناء ، وعني بالمواني على امتداد الشواطىء ، وفتح مرافئها للسفن التجارية ، مما زاد في انتعاش البلاد ، وفي بحبوحة الشعب عامة ، ورفاهيته واستقراره ٠

ان هذا الوضع المتميّزَ على الشاطىء اللبناني ، حيث تكتنفه من الجهات الثلاث ولاياتٌ مضعضعة النظام ، مغلولة اليد ، فاقدةالحرية ، يُهيمن عليها الدسّ والارتشاء والضغينة وسياط آل عثمان ، هذا الوضع قد اكسبتهُ اشراقًا وترسيخا حكمةُ الامير الحاكم ، وصفاءُ نفوس القيّمين على الحكم ، وطيبة الشعب على مختلف معتقداته ، وتماسكهُ في العسر والرخاء ، وانصياعه لاوامر الدولة ، وتفانيه بمحبة الرؤساء ٠

أَملتِ الحكمة على فخر الدين ، ان يُضخم الجزية كلما ازداد توسعه ، ارضاء للاتراك المتعطشين للرشوة ، وإفحاما لأرباب الغصّ من الوُلاة المحسودين ٠ ولم يكتف الامير بتشجيع الصناعة وتعداد المعامل ، حتى لم يبقَ من اثر للبطالة في كل الربوع ، بل نراه يطلب الفنانين من اقاصي الارض فيتسابقون الى العيش في كنَفه ، ويُسبغون على المنشآت حللاً من روائع فنهم ٠ وكانت الى هذا كله ، الفة وتضامنٌ عمَّ سواد الشعب ، فلا دِين يُفرّق ، ولا مطمع شخصي يُثير الحسد ولا زلل في الحكم ولا انحراف ولا انجراف ، يفتّ في سواعد الشعب المتعاضد٠

في ظل هذا الحكم النزيه ، المُشبع يَسارًا وامانا وحرية كلام ومعتقد وعمل ، توافدت الجماهير من جوار لبنان ، تسكن في ارجائه ، ففُتحت لهم الصدور ، وعَمرت بهم الارض ، ونزلوا اهلاً مكرمين ، هربًا من اضطهاد الاتراك ، ونظرتهم السقيمة لجوهر المعتقدات ، ونهمهم في ابتزاز الفلاحين والصناعيين ، مِمّن لبثوا مستقرين كرْهًا والى حينٍ تحت لواء الدولة الخرقاء ٠(١٦)

لم يفُتْ فخر الدين امر ، ولا اغضى عن نقص ولا غفل عن مرحمة ، كما انه ما بخل بطاقة من نشاطه الفكري والجسدي الا فجرها جداولَ يُمن وخير ومحبة٠ كان من استحضره من المهندسين والخبراء ، يخطط له على احدث ما وصل اليه العلم يومذاك ٠ شجع الاعمال الزراعية ايما تشجيع ، فكانت زراعة الزيتون والتوت والكرمة والكتان انشط المشاريع ، وكان تصنيع هذه المنتجات على احدث مستوى (١٧) ٠ يعيش الفلاح والعامل في نعمة غامرة ، فلا يكسد انتاج ، ولا تتكدس لهم بضائع لاتباع ٠ ولا شاكٍ ولا مُتذمّر ، كل الشعب سَواسيةٌ في الحق

بحياة اطمئنان ورفاه وكرامة ، وكلهم على اتم الاستعداد ، حين يطعن استقلال البلاد ، وتُخرق حرمة الشرف ، ان يهبوا ليوثًا غاضبة للذود عن الذِمار والكيان ٠

ما كان الشعب ليتحلّى بهذه الخصائص المشرفة ، لولم يجد من أُلي الشأن في البلاد ، عدالة وانصافا ، وانعداما لاية عصبية ضيقة ، وانتهازية مخزية ، واستئثار بحكم او جاه او مال ٠ وذلك لان الحاكم الحصيف يثق بان فقدان النزاهة ، والانسياق وراء الاستئثار ، والتعصب الذميم ، يدفعان بالامة دفعا شطر الانحلال فالانعدام المعجّل ، فتنزهوا عنه لا حبًا بالبقاء وحسب ، وانما استجابة لصوت الضمير الانساني ، ذلك الصوت الخفي الذي انطلق همسا حينا ، ومجلجلاً احيانا ، من افواه ائمة التوحيد ابتداء من مطلع تاريخ الانسان المتحضر ، ـ وقد عرضنا لِماما في صفحاتنا الاولى ، احداث تلك العهود ـ اي عمل انشائي حدث في لبنان ولم يكن لهذا الامير اليد الطولى فيه ؟؟ واية طيبة، واي تجرد سام حَدا به حين سَمحَ لِلارساليات الاجنبية ، حُبًا بالعلم وبنشره وتعميمه ـ **بعيداً عن الهدف الذي عملت له الارساليات ، فيما بعد** ـ ، وربطا لأواصر الفِكر العالمي ، وانفتاحا خيّرا على كل الآفاق ، لم يأل الاميرُ جهدا في توثيق عرى الصداقة بينه وبين دوق إمارة توسكانا الايطالية ، وتوقيع معاهدة بينهما ، خولت للسفن الفلورنسية ان تؤمّ سواحل لبنان ، وتنقل ما زخرت به مستودعاته من الحرير والصابون والخمور وزيت الزيتون والحبوب على انواعها ، وكان هذا في عام ١٦٠٨ ٠ (١٨)

كان لاتباع هذه السياسة الاقتصادية اثرُها العميق ، على الشعب اللبناني ، ولم تكن معاهدةَ ضعيف مع جبار ، انما هي تكافؤ عام ، ولصالح الطرفين ٠ وان امارة مثل توسكانا ، لا مطمح لها في الشرق الا التجارة المتبادلة ، ولا نزعة عدوانية استعمارية تحثها على التسلط والاحتكار وزج الجيوش الغازية ، لان وضعها الجغرافي والعسكري ينوءُ بها عن تحمل تلك التبعات الجسام ٠ هذا الوضع في توسكانا حفز فخر الدين على توقيع معاهدة متكافئة بينه وبين اميرها وخاصة ان هذه البلاد ترفل في بحبوحة عيش ، وتسعد برجال علم وحنكة في الزراعة والصناعة ، وكذلك في نشاط تجاري بحري ٠ (وثيقة)

كانت كل هذه المساعي وسائلَ خيّرةً لاسعاد الرعية جمعاء ، ولعدم تذمرها من دفع الجزية للاتراك ، حتى تظل صلاتُ الود قائمةً بين الامير والسلطان ريثما يتم بناء الدولة على اسس عسكرية ضاربة وظافرة ، تؤمن للبنان العربيّ استقلالَه الناجز سياسيًا وماديا ٠

لفخر الدين ماثرُ جليلة منها:انه بنى جسور الشاطىء الكبرى على نهر الكلب ، وبيروت ، والاولي والقاسمية ، كما بنى الخانات في بيروت وصيدا ، والنوادي والكنائس . **وقد كانت معاملتُه سمحاءَ للطوائف الغربية عن طائفته** ، (١٩) كما كانت رحلته الى توسكانا سببا في استقدام مهندسي الريّ ، ونقل الاساليب الجديدة في الفلاحة ، وادخال الآلات الزراعية الحديثة ، وكان ينقل لهم الخيول العربية علاوة عما تنتج البلاد من غِلال . (٢٠)

وان ما يَغمِزُ اليه المؤرخون الاوربيون ، وما ينقل عنهم بعضُ مؤرخي العرب، من ان عدم التعصب الطائفي في نفس الامير ، مردُّه الى نزعة باطنية فيه تشدّه للمسيحية (٢١) فهذا إفك صُراح ، لان هذا الامير ما وقف مرةً موقف ضعف امام ارفع الحكام ، ليتذبذب ويُحابي . انما هي الطبيعة الوضيعة في صدور بعضِ المؤرخين ، الذين يُرخصون مِداد اقلامهم فتُسرف في التلفيق ، وفي تصوير ما تكنّه صدورهم هم ، من عصبيةٍ مقيتة جامحة ، تصور لهم ان كل نبالة في تصرف ، من حاكم خطير ، انما مردّها نزعةٌ، هم اليها مُرتاحون ، مهما يكن في ذلك التصور الطائش من غَرَضية وإسفاف في تحليل الامور وسَبر الحقائق. معظم المؤرخين شهدوا للامير بجبروته وترفعه عن اي تعصب ديني ، ، لانه لم يكن في يوم داعيا ، الا الى التآلف والتماسك لبناء لبنان جديد،موحّد الاهداف زاهي الحضارة منيع الجانب . وهذه الامنية لا تتحقق الا اذا قيّض الزمنُ للبنان رجلا على غِرار فخر الدين بعيداً عما يتخلق به حاسدوه وبعض مُدوّني تاريخه .

صحيح ان فخر الدين في رحلته المُجبرة الى توسكانا ، زار كُلاً من فرنسا واسبانيا ، ومن الانطباعات التي نزلت في حافظته : وجود مستشفيات مجانية ، ومتاحف وبنوك ومطابع ، مما ليس منه شيء في حيازته بالوطن الام ، فتطلع الى كل ذلك مُعاهدا المستقبل القريب بانجازه كله .

وصحيح انه حاول ان يرتبط بمعاهدة مع احدى هاتين الدولتين لكنه شعر بروح الاستئثار والسيطرة ، فارتد آبيا بإصرار . وكتب الى جماعته في لبنان يقول : « ان المفاوضة بين فريقين : قوي وضعيف ، ضرب من الاستجداء وعليه فاني اشور عليكم ان تعتمدوا على انفسكم اولا ، هذا اذا اردتم استقلالا محترما ومركزا مرموقا بين الشعوب .» (٢٢) فمن يلحو فخر الدين في هذا الانفتاح على الغرب ، دونما تبصر ، فأحمق .

ولم يفُته منذ تسلمه الحكم ، التطلعُ الى بناء قلاع واقية على حدود ممتلكاته من جهاتها الثلاث ، فبنى قلعة بانياس وتدمر اللتين ما برحتا مزارا للسياح ، وبنى قلعة قرب سيناء ، لم تزل تُعرف الى اليوم باسم « خان يونس » حيث اطلق عليها اسم اخيه ، ثم عزّز الابراج وكان واحد منها على:ساحة الشهداء اليوم ، واكثرَ الحاميات ، وانشأ الدوريات ، واستورد المدافع من اوربة · (٢٣)

وقد اضاف المقدَّم الفرنسي بعجيه : « افتتح (فخر الدين) خمس عشرة قلعة ، منها قلعة عجلون ونيحا والشقيف ، وزاد في تحصينها واختزن فيها المؤن · كل هذا النشاط في جميع المرافق ، جعل الباشوات من حوله يزيدون في الضجيج ، ويكثرون الشكايات للباب العالي ، ويختلقون الافتراءات · (٢٤) ·

ان العنصر الفاعل ، في ازدهار هذه الدويلة ، هو قبل كل شيء تلك القيادةُ الحكيمة ، والشجاعة التي كان الامير يستمدها من صميم شعبه ، فالقوة الشعبية كانت لأسلافه ، كما هي له ، العاملَ الاقوى في تأسيس وازدهار هذه البلاد ، وفي امتداد مساحتها ووفرة رهبتها وتفاني المدافعين عن حياضها ·

لقد كانت في كل دور ، سياسةُ القادة الدروز ، زمنيين وروحانيين قائمةً على اساس ديمقراطي صحيح بالفِطرة والسجية · اما الاقطاعية فلم يكن لها اي فعل بارز وعنيف ، لان الجماعة يأنفون السلطة أيّاً كان مصدرها ، والعقيدة عندهم علمتهم ذلك ، يوم اوصتهم في ابطال كل اجبار ، والاعتصام بالاختيار الكامل ، والصدق في القول والعمل · وما كانوا ليتحدوا او يطيعوا لو لم يكن نضالهم في سبيل الشعب اجمع ·

ولم تَقمْ معركة بين الجماعة ومناوئيهم ، الا ويتصدّر الجيشَ الزاحف او المدافع ، رئيسُ الجماعة بنفسه واهله وابنائه ، وقد شهد التاريخ عشرات من الزعماء الارسلانيين والتنوخيين استشهدوا وهم في الطلائع · واكد التاريخُ المعني ذلك في ما حدث لامرائه واحداً واحداً ، حيث لم يقضِ احدهم حتف انفه ، بل في الغارات او في سجون المستعمرين ·

ان قوة الدرزي القائمة هي في انه يشعر ، وهو وجهاً لوجه امام الموت ، بان القضية التي يقاتل من اجلها هي قضيته ، وبان الكرامة المهددة ، والعرض الذي سيهتك والدار التي ستحرق او تدمّر ، انما هي كلها ملكه ، وفلذات من جوارحه، وعهود على نفسه ·

اما فخر الدين ، فعلى ما تخلّق من سجايا ، وسجل من دراية وحسن تصرف، كان هنالك ، من حوله ، ومن جماعته احيانا ، اناس ، استغواهم الحسد وشدّت بهم الغيرة فاستهواهم المُروق من الخط القويم ، لكنهم قِلة ، استطاع ان يخذلهم · ولكن في مغيبه حدثت معركة الباروك التي ذهب فيها زهاء خمس مئة قتيل معظمهم من (السكبان) وكان عدد جنود الدولة عشرين الفا · وقد استطاع الجنود ان يتقدموا فاحرقوا « دير القمر » بلدة الامير ، وضياعًا غيرها ، وكان يشد إزرَهم آلُ سيفا ، اقطاعيو الشمال ·

وقد كان هؤلاء الحُساد يرددون : « لو ان بيضةً سقطت من جَيبه (فخر الدين) لما انكسرت · توضيحا لِقصر قامته ·

وقال احد الزجال :

« جونا طوال ·· يا نصلة السكين

يا سلسله مذهبي ، يا سيف علي الدين

جونا قصار ·· لا شور ولا تدبير

مثل الضفادع يقعقعوا في قراني البير »

نقل هذا الكلام الى فخر الدين ، فقال على الفور :

« نحنا صغار وفي عين العدو كبار

انتو خشب حور نحنا للخشب منشار

وحق طيبا وزمزم والنبي المختار

ما بعمر الدير ·· الا من حجر عكار » (٢٥)

وقد صدق فخر الدين في وَعِيده ·

وفي الغد القريب جهّز جيشا ، وزحف الى عكار فهاجم قلعةَ الحصن واحتلها وخرب قصورَ آل سِيفا ، ونقل بعض حجارتها الى دير القمر ، وهي الحجارة الصفراء المتميزة ، الباقية في جدران قصره حتى اليوم (٢٦) ·

هذه الوثبة الموفقة فتحت امام الامير ابواب سوريا الداخلية · وفي العام

التالي حين اقطعه السلطان سنجقَي نابلس وعمّان في فلسطين ١٦٢٢ تمت له الغاية التي كان يصبو اليها ، حيث غدت الطريق الى الأردنّ كذلك ، مفتوحة امامه · لكن والي دمشق خشي من هذا التمادي في التوسع واوجس من سياسة الامير ، ورفض ان يسلمه السنجقين معا · فجند قرابة اثني عشر الف مقاتل وهجم لقتال فخر الدين ، فالتقاه هذا بجيشه في عَنجر (البقاع) واستطاع بعد تلاحم غير طويل الامد ، ان يُنزل شر هزيمة بجيش مصطفى باشا هذا ، في حين لم يتجاوز عدد مقاتلي الامير اللبنانيين الاربعة الاف ، وقد وقعَ الباشا في الاسر وتمزقت جحافلُه في السهل الفسيح ·

اما الامير فان تَوقُّدَ ذكائه وبُعدَ بصيرته أَمليا عليه ان يُطلق سراح هذا القائد ، كيلا يوغر صدور الاتراك اربابِه (٢٧) ·

هذا الحدَث المذهل ، اربك الدولةَ العلية ، وقضَّ مضجعَ السلطان الحدَث محمود الرابع ، لكنه وجد انه من الحكمة الاعتراف بالامر الواقع ، فنادى بفخر الدين والياً على عربستان ، من حلب الى مصر بناءً على خطٍ هُميوني (٢٨) ·

فخر الدين في خطه القويم

بِقدر ما كانت تتسعُ صلاحيات وممتلكات فخر الدين ، كانت تتضاعفُ الاحقاد عليه ، ويكثر مبغضوه من الحكام المجاورين ، الممالئين للسلطان · وهوَ هوَ في خُطاه المتزنة ، واعماله الجبارة ، وفي المزيد من تحصيناته ، لانه بثاقب بصيرته ، متوقع سخط الباب العالي ، وانزال ضربته القاصمة · غير انه لم يتهيب ، ولم يَثْنِهِ عن عزيمته إرهاب ، وقد عركته الحروب وخَبَر الايام ، ولمعت على صفحة مخيلته تلك المواقف والوقائع التي فُرض عليه مجابهتها بالسلاح ·

تذكر ان تركيا ، بعد عودته من توسكانه ، ازداد حنقها عليه ، ونظرت بجشع الى ممتلكاته الواسعة الزاهرة ، ولكن ، لا يسعها ان تخوض حربا طويلة الامد ، وهي في شغل ومشاكل داخلية وخارجية معقدة · رأت ان تثير عليه الباشوات · وقد وجدها هؤلاء فرصةً سعيدة ، فنشطوا يروون غليل صدورهم ، وتكتلوا : باشوات دمشق وطرابلس وغزة مع امراء فريخ وسيفا وطربيه ، معلنين للسلطان ان غاية فخر الدين في هذا التوسع،بسطُ نفوذه على القدس ، والمناداة به سلطانا ·

لقيَ هذا النبأ اذنا واعية عند السلطان ، فأصدر الاوامرَ الى اولئك الباشوات بالاستعداد والتعبئة العامة ، وعين احمد كجك ، باشا دمشق قائدا على جيش مؤلف من ستين الف مقاتل ، وما اكتفى بهذا التطويق ، حتى امر قبطان باشا ان يترأس اسطولا مؤلفا من اربعين سفينة يهاجم بها سواحل الدروز (٢٩) ٠

ايّةُ ردة فعل حدثت عند الامير ؟ لبث متماسكا ، واسرع فأعدَّ خمسة وعشرين الف مقاتل ٠ احدى هذه الفرق وضعها بقيادة ابنه علي ، ومهمتها مهاجمة باشا دمشق ، والثانية يقودها اخوه حسن وابنه يونس ، اما هو فيضمن الغزو من الساحل ٠

وقعت حادثة مروعةٌ مع الاسطول التركي وبعض سفن تجارية بريطانية ادّت الى تراجع الاسطول التركي بكامله عن المعركة ٠ اما القائد البري العام فقد ارسل الى فخر الدين انذارا بالخضوع للسلطان مباشرة ٠

ادرك الامير ان القوات غير متكافئة ، فأبى ان يخضع واجاب القائدَ بأن القيادة عنده لولده عليّ ، وعليه ، يجب توجيه هذا الانذار لابنه مباشرةً ٠

وفي الحال اوعزَ الاميرُ الى ابنه علي بوجوب الانتقال الى صَفَد ، ناصحًا اياه بأن يستعين بحكمته وحسن تدريبه ، والا يلتقي الاعداء مواجهة بل بمناوشات ليضعفهم ويشتتهم ٠

هذا ما توجه به الاميرُ الكهلُ الى ابنه الشاب ٠ اما هذا فقد آثر ان يقارع الاعداء وجهًا لوجه ٠ تنكر لارشادات والده ، وخاض الغِمار ببسالة فائقة وخبرة كاملة ، وكان في مقدمة مقاتليه ، يرسم الخطط وينفذها في آن واحد ، ويصدر الاوامر في الوثوب والصمود والبطش وعدم التراجع كانما هو في مقصورته غير هيّاب ، بل ابدًا رصينٌ ومِغوار ٠

« **تجمعتْ هذه الصفات في هذا الشاب المتفاني ، لتجعل منه قائدًا عظيما** »(٣٠)
ان هذا البأس والاقدام ، قد حققا للمحاربين اللبنانيين انتصارا باهرا تشتت بعده شملُ العدو ومني بخسارة ثمانية الاف رجل ٠ اما الامير الشاب فلم يبق لديه سوى خمسة الاف ، والباقون استشهدوا حوله ٠

أَبتْ على الامير الشاب نخوته ان يُنهي الحرب بغير انتصار او انكسار مُحتم ،

فلم يمهل العدو ولا مقاتليه ، بل صرخ فيهم ان يتأهبوا ؛ وكروا ، وكرَّ هو امامهم كبُركان يتفجر ، لا يحسب للخُسر ولا للنصر حسابا • حارب مع جماعته بشراسة لا تعرف اللين ، وابدى بسالة قلما سجل التاريخ نظيرها لمغوار قبله ، واستمر القتال وتكسرت السيوف على السيوف وانتصبت جثث القتلى اكمات ، امام المتصارعين ، وكسف غبار المعركة عينَ الشمس ، وجماعة الامير يتسابقون للموت سباقا ، واعداؤهم عد الرمال ، والذخائر والجنود تتوارد عليهم من كل صوب • والمدافعون وحدهم لا مُنجدَ لهم غير العزيمة والحسام •

اخيرًا تبدد القَتام عن افق (صَفد) واسفرت المعركة عن مقتل تسعة الاف مقاتل من العدو ، وقُضي على كل جيش الامير عليّ ، خلا خمسين محاربا اخطاتهم سِهام القدر •

أيلبثُ الامير علي متمتعًا بالحياة ؟ يا لَلعار !! لِمَ حياته اذا كفَّ عن الانتقام ، وسلِم براسه وراس حفنة من اعوانه ؟! أيرضى الشرفُ بهذا المصير ؟؟ متى كان الموت حاجزا بين اصحاب الارادة والمثل العليا ، وبين اجسادهم الفانية ؟؟

ما عتَم ان ارتدَّ الى الشرذمة وهي المتحالفة حتى الموت ، على الصمود ، ارتد ، وارتد الخمسون وراءه ، يخترقون صفوف الجنود الجرارة وصال وصالوا ، وجال وجالوا ولم يعرفوا وَهنا ولا كلالا قط • لكن فرَس علي اعياها تواصلُ الكفاح فانهارت تحته ميتة ، فأدركه احد الجنود الاتراك وهمَّ لِيقبضَ عليه اسيرا ، فانتفض وتابع القتال • ولكن القائد التركي أُعجب بهذه الشجاعة ، فقطع له العهد بسلامتهم وكرامتهم ، فأذعنَ وبيقَ به على الفور، وقُطع اصبعه، وارسل الى القائد العام ، فالسلطان في القسطنطينية (٣١) •

اما الاميرانِ حسن ويونس فقد اتبعا المخطَّطَ نفسه ، فالتقَيا القائدَ العام للاعداء وهو في نشوة ظفره • استخفوا بالعدو وتصايحوا بالنخوات : النصرُ او الموت ، غير مبالين بما لدى الخصم من عدد ومعدات • اتخذت هذه المعركة طابع الشراسة المتناهية ، والاستماتة المذهلة • وانجلى بعدها الجو عن سلامة الف وستماية رجل من الاعداء • لكن المدافعين قد حاق بمعظمهم سهمُ الموت ، وكان في مقدمةِ المستشهدين الاميرُ يونس ، اما حسن فقد سقط اسيرًا •

قال المؤلف الذي اطنب في شجاعة الامير يونس خاصة ، وفي تفاني جماعته الشبان المتهوسين ، ما يلي : « ان شجاعة الامير الفتى المتحمس ، كانت سببًا في القضاء على قوات الدروز وتعريضِ بلادهم للتخريب والنهب » (٣٢) •

نهاية فخر الدين الثاني

بعد هذه المعارك ، وبعد فقدانه ولديهِ واخاهُ ومعظمَ مقاتليه ، تسرّب اليأس الى تلك النفس الجبارة ، نفسِ فخر الدين،ذلك الذي تكلل رأسه بالغار، وتربع على اوسع وامنع رقعة ، على نفسٍ اضخمَ من ان يحوقها جسد ، جابهت الباشوات ، وافترعتْ عشراتِ القلاعٍ ، وجاءت بأحدث ما يتخيله فكر متجدّد بنّاء .

هنا انتهى هذا العملاق ، وهو ما برح على سُدَّة الحكم ، انتهى ليروي التاريخ عبارة الضابط الفرنسي الذي زار ربوعَه وخبَر جماعتَه ، فقال فيه : « اي ملك يستحق لقب « كبير » كفخر الدين ؟ اربعون سنة من الفتوحات .. والانتصارات .. والتقدم السريع الرائع ، في ظل حكومة عاقلة حكيمة » (٣٣) .

انتهى هذا الداهية المشبَعُ بالخُلق الرفيع ، وعلو الهمة ، وشموخ النفس ، تاركًا ما اثّلَ من حضارة مزدهرة ، عمّت الشعب كافة ، تركها لأيدٍ مُلوثة بدم الابرياء ، تركها جاثمةً بين نيوب تقطر الحقدَ والرذيلة في اوسعِ معانيهما . انتهى فخرُ الدين جسدًا ، على ضفة البوسفور ١٦٣٥ ، لكنه ترك بعدهُ نافذةً للتاريخ ، ليطلَ منها احدُ المواطنين الابرار بعد قرون ثلاثة ويقول : « ان شخصية هذا الامير كانت تَطغى على جميع الوجوه التي كانت تتحرك حوله » (٣٤) .

وليقول فيليب حتي : « كان فخر الدين من أبرز الشخصيات في الدولة العثمانية » (٣٥) .

لقد سقط فخر الدين سياسيًا ، ونال منه المستعمرُ الغاشم . نال من جسده الفاني ، وسقط جسدُه الفاني . اما فخر الدين المعنى ، فخر الدين الرمز الخالدُ خلودَ صياصي لبنان ، فان لدى ذكره تنبعثُ هادرةً موجاتٌ وموجات من معاني الاريحية والشرف والاباء ، وينبعث سجلٌ مليءٌ بالمكرمات والعزم والاصالة ، مليءٌ بالتضحية ، تضحيةِ الذاتِ والاخوةِ والابناءِ ، والاعوانِ ، في سبيلِ صيانة الوطن من عبَث المستعمرين ، في سبيلِ الحِفاظ على القِيم النبيلة الموروثة من العقيدة والاجداد ، في سبيلِ تركيز لبنانَ الاوسع على الاسس الاخلاقية الرفيعة : من تسامح مطلق في المعتقَد (وثيقة) ، وتعاون شامل لكل طبقات الشعب ، وتماسُكٍ تشدّ به المحبة الخالصة الى حدود الاستشهاد .

أن البناء المعنوي الذي خلفه فخر الدين ، سيبقى مُتاصلاً ، منقوشا على صدور المخلصين من ابناء لبنان ، حتى اذا ما عربد دخيلٌ مجتاح ، مِن اين جاء ، يتصارخون ويتنافرون : لِعينَيك يا فخر الدين · واذا استهترَ الحاكمون ، وانغمسوا في حُب الذات ومَباهجِ الحياة ، يتنادى الشعبُ : اينَ حزمُك ونزاهته يا فخر الدين · واذا استذابَ اولو الشان ، وتآمروا وتعصّبوا،مُتطرفين مَهووسين ، ينتفضُ الاباةُ من الشعب أحفادِ فخر الدين ، وكلهم قنابلُ ودفقاتُ سعير ، مُجلجلين : لَبيكَ يا فخر الدينَ ·

مُنجزات هذا الامير ، وحنكته وحكمته في معالجة كل مُعضل ، وموقفه الصادق امام ضميره ومعتقده ورعيته ، تجمّعت كلها فكانت في مكتبة التاريخ ، مُجلدًا مُحقّقا يحمل اسم الاداريّ المؤرخ : الدكتور عادل اسماعيل (٣٦) ·

وفيما نحن نطوي صفحةَ المعنيين ، نرغب في أن ننتقل مع القارىء الكريم ، الى مآثر العشيرة الدرزية في ارضٍ غير لبنان ·· في جبل حوران ·

ما هذا الجبل ؟؟ وماذا حدث فيه ؟؟

الهوامش

١ ـ Pigier de St. Pierre المعرب حافظ ابو مصلح ، طبعة اولى ، ١٩٦٧ ، ص : (٤٩ ـ ٦٢ ـ ١١٥)

٢ ـ لبنان في التاريخ ، ص : ٤٥٦

٣ ـ كتاب : خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر جزء ٢ ، ص : ٢٦٦ والشدياق ص : ٢٤٧ ، وحوران الدامية جزء ٢ ، ص : ٥٥١

٤ ـ خطط الشام لمحمد كرد علي ، ج١ ، ص : ٢٨٣

٥ ـ الغرر الحسان ، ص : ٢٣٩

٦ ـ كتاب : بنو معروف نقل حرفيا عن تشارلس تشرشل ، ص : ٣١

٧ ـ خطط الشام ج٢ ، ص : ١٤ لمحمد كرد علي

٨ ـ بورون (Bauron) ص : ٦٢

٩ ـ بني معروف لسعيد الصغير ، ص : ٣٦

١٠ ـ خطط الشام ، ص : ٢٠ و ٢٣٧

١١ ـ المرجع نفسه ، ص : ٢٤٩

١٢ ـ بنو معروف ، الصغير ، ص : ٢٨

13 — London (1621) Relation of a Journey 2 nd ed - P.P. 210

١٤ ـ الدولة الدرزية ، ص : ٤٣ ، للكولونيل بيجيه

١٥ ـ المرجع نفسه ، ص : ٤٦

١٦ ـ المرجع نفسه ، ص : (٤٧ ـ ٥٣)

١٧ ـ لبنان في التاريخ (فيليب حتي) ص : ٤٥٦

١٨ ـ حتي ، ص : ٤٥٦ ثم العودة الى نص هذه المعاهدة في المرجع :
Paolo Carali - Fakhr ad - Din II e la carte di Toscana (V.I Rome 936) P : 146 . VII P.P. 156 .

١٩ ـ حتي ، ص : ٤٦٥ مع وثيقة ضمنا

20 — Carali Vol. II P.P. 52 - 53

٢١ ـ حتي ، ص : ٤٦٥ استنادا الى Carali الجزء الاول ، ص : (٤٠٢ ـ ٤٠٢)
كذلك المعلوف ، ص : ٢٧٥

٢٢ ـ انيس النصولي : رسائل الامير فخر الدين الثاني ـ بيروت ١٩٤٦ ، ص : ١٦

٢٣ ـ حتي ، ص : ٥٦

٢٤ ـ الدولة الدرزية ، ص : (٥٤ ـ ٥٥)

٢٥ ـ تشرشل ج٢ ، ص : ٣٧٠

٢٦ ـ حتي ، ص : (٤٦٢ ـ ٤٦٣)

٢٧ ـ معلوف ، ص : (٢٢٢ ـ ٢٢٣) ، الدويهي ، ص : (١٩٨ ـ ١٩٩)

٢٨ ـ المحبي ج١ ، ص : ٢٨٦ ، حتي ص : ٤٦٢

٢٩ ـ Pigier ص : (٦٨ ـ ٦٩ ـ ٧٠

٣٠ ـ المرجع نفسه ، ص : ٧٣

٣١ ـ المرجع نفسه ، ص : (٧٣ ـ ٧٤)

٣٢ ـ المرجع نفسه ، ص : ٧٥

٣٣ ـ المرجع نفسه ، ص : ٧٨

٣٤ ـ جواد بولس ـ تاريخ لبنان ، ص : ٢٢٧

٣٥ ـ لبنان في التاريخ ، ص : ٤٥٤

٣٦ ـ مؤلف فخر الدين ،اطروحة دكتوراه وفيه وثائق كثيرة وقيمة .

رسالة البابا بولس الخامس

الى الامير فخر الدين المعني الثاني

١٦ كانون الثاني ـ يناير ١٦٠٩

(نقلا عن بولس قرالي : ج٢ ، ص ١٧٤ ـ ١٧٥ ، وانظر د· يوسف مزهر : تاريخ لبنان العام · بيروت ، ج١ ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ ، ونادر العطار : تاريخ سورية في العصور الحديثة ، الجزء الاول ، دور حكم السلاطين الفعلي في العهد العثماني ١٥١٦ ـ ١٩٠٨ ، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩) ·

الى فخر الدين امير الدروز ونيقوميدية وفلسطين وفنيقية

سلام ايها الرجل الشريف · وليحل عليك نور النعمة الالهية ·

عرفنا الاخ المحترم سركيس ، رئيس اساقفة دمشق الماروني ، الذي ام رومية لزيارة ضريحي الرسولين القديسين ، **عطفك العظيم على اولادنا المسيحيين ، وخاصة الموارنة** · فبتنا مدينين لك كثيرا ، لان ما تفعله نحو اولادنا تفعله نحونا · ولما كان رئيس الاساقفة المذكور عائدا الى اخوته ، راينا ان نكتب اليك هذه الرسالة دليلا على محبتنا لك · واوعزنا اليه ان يبلغك انتظارنا بكل الجوارح الفرصة التي تتيح لنا ان نثبّت لك عظم هذه المحبة ، **وشدَّة ارتياحنا الى حسناتك نحو اولادنا المسيحيين** · وقد امرنا رئيس الاساقفة المذكور ان يسلمك بعض التحف ، آملا ان تحوز لديك قبولا ، وان صغيرة ، لانها دليل على ميلنا الخاص اليك · ونحثك ثانيا وثالثا ان تواصل رعايتك لاولادنا ، خاصة الموارنة ، وان تشمل بحمايتك حامل هذه الرسالة · وهو يفصح لك عن رغبتنا الشديدة في مناصرتك على الاتراك الظلمة ، اعداء الطرفين ، حتى اذا توسعت في تخليص هذه الاماكن من نيرهم القاسي ، عاد سكانها الى الدين القويم ، مجدا لله وخلاصا للنفوس · ليضيء الاله قلبك برحمته ويسدد في طريق الحق خطواتك ·

اعطي في رومية بقرب مار بطرس (في ١٦ كانون الثاني ١٦٠٩) وهي السنة الرابعة لحبريتنا ·

رسالة فرديناند الاول ـ جران دوق تسكانا ـ
الى فخر الدين المعني الثاني

٢٢ كانون الثاني ١٦٠٧ ـ ٢٢ يناير ١٦٠٧

(نقلا عن بولس قرالي : الامير فخر الدين المعني الثاني حاكم لبنان ١٦٠٥ ـ ١٦٣٥ ، الجزء الثاني ، رومية ١٩٢٨ ص ١٦٦) ·
٦

ايها السيد الكلي الشرف :

وفق الله سموك ـ أملي انك ما زلت تذكر الرغبة الشديدة التي ابديتُها سابقا لافوز بصداقتك · تأكدْ ما زلت راغبا فيها ومقدرا اياها حق قدرها لبسالتك وشرف نفسك ·

ولما كنت قد اوعزت الى حامل هذه الرسالة ان يُقبِّلَ يديك بدلاً مني وان يؤكد لك محبتي ارجوك ان تقبله في حضرتك وتُصغي اليه بارتياح تثق بكلامه كانه صادر مني · فأوصيكَ به خيرا واقدم لكَ نفسي للقيام بكل ما يمكنني من ان اخدمك به ·

ليفورنو في ٢٢ كانون الثاني ١٦٠٧ مسيحية

خادم سعادتك المحب

رسالة مطران نيقوسيا الى جران دوق تسكانا
بشأن المعاهدة المقترح عقدها
بين الامير فخر الدين المعني الثاني والبابوية

١١ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٦٣٤

(نقلا عن عيسى اسكندر المعلوف : تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني ، ص ٢٨٠

نص الوثيقة

ايها السيد الكلي الوقار

لقد تشرفت يوم الاثنين الماضي بمواجهة سيدنا الاب (١) الاقدس الذي اعلن لي رغبته في ان اتمم ما كنت **عرضته لقداسته ولسموكم بشان سعادة الامير**،آمرا **اياي ان احفظ الامر مكتوما** وقد اثنى كثيرا على عاطفة سعادتكم التي بها اعتنقتم مهمة كذا خطيرة ·

ثم انه يوم الثلاثاء التابع لما علم نيافة الكردينال بربرينو بسفارتي سألني عما يقوله غراندوق توسكانا واذ عرضت على نيافته ما جرى بيني وبين سموكم سر كثيرا وامرني ان اتوجه واخبر حالا سفير سعادتكم بهذا الامر كما اجريت امره بعدئذ فالسفير المومى اليه قد عرض لقداسته ولنيافة الكاردينال بربرينو امر سعادة الامير **وقصَّ عليّ كلٌ منهما خبرًا كنتُ انا قد أحكمتُ تاليفَه** وقد تذاكر في الامر مليًا مع قداسته ونيافة الكردينال بربرينو واخبرني بان نتيجة الامر لا تكون الا حسنة ولاجل هذا السبب اسأل سعادتكم بعاطفة وخضوع واتضاع ان تتنازل وتعني بالامر بواسطة رسائلكم وتجعلوه على نهاية حتى يظل ليس للموارنة فقط وسعادة الامير بل العالم باسره شاكرا لسعادتكم التي اتمنى لها اخيرا غاية كل عصمة وغبطة ·

عن رومية في ١٦ تشرين الثاني سنة ١٦٣٤

الخادم الكلي الاتضاع والشديد الاخلاص

جرجس الماروني

رئيس اساقفة نيكوسيا قبرص

(١) الاب الاقدس : يقصد بابا روما ·

ايها السيد الكلي الشرف ،

سلطان الأطرش

« فذ ، كفيتُ بهِ سؤالَ الناس : من
تعني ؟؟ وهل أعني سوى « سلطانِ » ؟؟

« الشاعر القروي »

« وحسامُ سلطانٍ ، وهل من سامعٍ
بحسامِ سلطانٍ .. ولا يتحمَّسُ ؟؟ »
إن تجمُدِ الأنفاسُ عندَ لِقائهِ
فعلى مُهنَّدهِ تَسيلُ الأنفُسُ ..

« القروي »

في جبل حوران

عناصر البحث :

١ ـ الجبل بعهد آل حمدان ومعارك وادي التيم

٢ ـ أ الجبل في عهد آل الاطرش

ب شبلي الاطرش

ج الانتداب الفرنسي

د أدهم خَنجَر

٣ ـ أ سلطان يعود من منفاه

ب بدءُ شرارة الثورة

ج معركة المزرعة

د معركة السُويداء

هـ الديمقراطية الاصيلة

٤ ـ أ معارك إقليم البلاّن

ب معارك وادي التَّيم

ج مطالب سلطان وصداها

د المناضلون في الأزرق ، ومعادُهم للجبل

في جبل حوران

كان هذا الجبل بعهد الرومان على قسط وافر من الازدهار ، سكنه الغسانيون ثم الاسلام ، ثم استولى عليه العربانُ بالنظر لجودة اراضيه وسعتها ، وتدفق المياه في بعض نواحيه · وشرع هؤلاء الاعرابُ يعيثون فيه غزوًا وتخريباً مع الزمن · دامت الحال كذلك في هذا الجبل مدة سبع مئةٍ واربعٍ سنوات ، حيث هاجمه اميرٌ لبناني يُدعى علم الدين مَعَن سنة ١٦٨٥ يصحبُه مئة وخمسون فارسًا مع عيالهم ·

كان يرافق الاميرَ علم الدين ، فارسُ الحَمدان مؤسسُ الزعامة الأولى هناك · وكان من اهالي الجبل الاعلى (حلب) · نزل لبنان (كَفْرا) وصحب الاميرَ في هجرته ، هذه ·

ما ذاع بين الاعراب استيطانُ هذه العشيرة في الجبل ، حتى هبوا يطوّقونها ويشنون عليها الغارة تلو الغارة ، لكنهم لم يُفلحوا لان الخصم ابنُ المعارك ·

عاد الاميرُ علمالدين الى لبنان بعد ان استتب الامن فيجبل حوران وولّى وكيلَه الحمدان على تلك البقعة الصغيرة ، فاستقر في (نجران) · كان الحمدانُ داهية ، ماهرا في انتهاز الفرص ، قويّ الشكيمة · لكن اميره المعنيَّ كان قد بخل عليه بنفحةٍ من نبله ، فبدت اعماله تنمّ عن جشع في نفسه ، وعن حبّ التسلّط · (١)

اسهم والي دمشق احمد كوتُشك في تسهيل مهمة ال حمدان ، وسمح لهم في التوسع بغية صدّ غارات العربان ، واشاعة الامن في تلك الارجاء · وتسلم الزعامة يحيى الحمدان · هذا كسَلفه في الدهاء والاستكبار · ولكي يجعل من منطقته معقِلا منيعا ، اخذ ينشر الدعاية والدعوة معا في المناطق الدرزية

بحلب والكرمل ولبنان ، ويمنح استغلال الاراضي ويقدم السكن ، واسهم في نجاح دعوته ، احداث لبنان الدامية ، ومعركة عين دارا ١٨١١ م وحب اللجوء الى الجبل هربًا من التجنيد والجزية ، حيث كان للجبل يومذاك امتيازات ، خصّته بها الدولة التركية ، لتزيد في مِنعته ٠ (٢)

وبعد مهاجمة الجيوش المصرية لسوريا وانتصارها في (كوتاهِيَة) شمالي البلاد ، على الاتراك ، ارسل محمد علي باشا المصريّ الى ابنه ابراهيم يطلب تجنيد (١٧٠) مقاتلاً من الجبل الدرزي (حوران) بذريعة المراقبة على تحركات الاكراد على الحدود الشمالية (٣) ومن المؤرخين مَن قال ان محمد علي طلب من الدروز تجنيدًا عاما مع ضرائب (٤) ٠

استقدم والي دمشق زعماءَ الدروز وفي مقدّمتهم الشيخ يحيى الحمدان وطلب اليهم ذلك ، فابوا بإصرار ، فثارت عصبية الوالي وصفعَ الشيخَ يحيى ، حدث هذا في عام ١٨٣٧ م ٠

خرج الدروزُ من مجلسه والغيظ يتأكلهم ٠ وصلوا السويداء وجمعوا الجماهير واخبروهم بما حاقهم من اهانة ، فثاروا جميعا ، وقرروا العصيان والحرب ، وقد بارك عملَهم شيخُهم الروحيّ ابراهيم الهِجري ٠ فانقضّوا على قرية (ثَعله)حيث يُرابط الجنود المصريون وعددهم اربعماية ، وأبادوهم ، ما عدا القائد وبعض الانفار ٠ (٥)

بعد هذه الكارثة التي نزلت بالجيش المصري ، امر ابراهيم باشا على اعلانها حربًا ساحقة ٠ وقال المرجع بالحرف : « **وتأهب الدروز وتحفّزوا للقيام والاستبسال في سبيل المدافعة الوطنية عن حَوزتهم وحفظ استقلالهم الذاتي** » وانضم اليهم بعضُ دروز وادي التَيم ولبنان ، حفظا للميثاق الذي قطعه كل الدروز سابقا ، في موقعة « الاقحوانة » بجوار مقام النبي شُعيب (بفلسطين) ٠ انتدبَت مصرُ لقيادة هذه الموقعة : « محمد بك المصري » يصحبه اثنا عشر الف مقاتل ومنهم من قال بضعف هذا العدد ، تتبعهم المعدات الثقيلة من مدافع وذخائر ٠ تركز القائد في (بَصر الحريري) مقابل اللجاه حيث يكمن الثائرون ٠ وقال المرجع نفسه حرفيًا : « **وأبلى الدروز احسن بلاء ، وابدوا شجاعة فائقة** ، ثم اظهروا انكسارهم ٠ انطلت الخدعة على القائد فتأثَّرهم ، واذا بهم يُطبقون عليه من بين الصخور والكهوف ، فوقع هو قتيلا وتبدد شملُ جيشه قتلا وهربًا » ٠ وكان شيخُ نَجرانَ قد أبلى كثيرا فزارَ الشيخَ الهجري في منزله فبادره هذا : « فُزتَ بِها يا بوعسّاف ، **دخلتَ الجنةَ بِسيفك ورُمحك** (٦) ٠

نزل هذا النبأ صاعقةً على ابراهيم باشا؛فارسل في الحال القائد (طَيفور بك) يصحبُه خمسةَ عشرَ الفِ محارب ، فأصابه ما اصاب الاول من القتل والتشتيت ·

لم يكن كل الفضل لشباب الجبل انما كان يعضدهم ، وقد ابلى اعظم بلاء في العدو ، الشبانُ الذين توافدوا لِنُصرتهم ، وخاصة اللبنانيون بقيادة (**حسن جنبلاط وناصر الدين عِماد**) فانهم اول ما اقدموا عليه ، قطعُ الطريق بين بيروت ودمشق على العسكر ، وانزال الضربات القاصمة بهم ، وقال احد المؤرخين ان « **ناصر الدين عماد » كان يتقدم المجاهدين وينخوهم ، ويلعب بسيفه امامهم ، والرصاص ينهمرُ عليه وعليهم حتى استشهدوا · (٧)**

بعد هذه الأعاجيب ، كتب ابراهيم باشا الى والده مُستنجدا ، فلبّى بكتائب من الأرناؤوط المتمّرسين على الثورات في الوعور ، وكانوا اربعة الاف يقودهم (مصطفى باشا كامل) وسندَهم جيشُ شريف باشا والي دمشق وكان على رأسهم اميرُ اللواء احمد باشا المصري ، شقيق محمد باشا الذي قُتل في معركة سابقة ، في الجبل نفسه · التقى كلُ هؤلاء بِشراذم الدروز ، التقوا والأملُ وطيد في نفوسهم؛بالقضاء النهائي على هؤلاء المتمردين ·

وما لعلع الرصاص واعتكر الجو ، حتى توثب اولئك المناضلون من بين الصخور وأصلوها نارًا مضطرمة السعير ، فبرقت السيوف وعلت الهتافات والزغردات ، وتسارعوا لساحة القتال يَزيدون اضرامها ويصرعون الغزاةَ المقاتلين · ويفرّون ويكرّون ، والدماء تلطخ جباهَ الصخور ، وتسقي تربة اللجاه · والعدو الغاشم يزداد ضِراء ويُحكم الطوق ، وتقصف مواقعه التجمعات ، ويُزجي الصفوف تلو الصفوف ، حتى كلّت سواعدُ المكافحين ، وتراخت مقابضُ السيوف ، وانهارت العزَماتُ ويئسوا من الامل بالنصر فتراجعوا ·

إلتقتهم النساءُ من الوراء صارخاتٍ : الى اين تفرّون ؟ لِمَن تتركون عيالكم ؟ واندفعنَ كلهنَ كلبوآتٍ مروعات ، على عرينهنّ المُجتاح ، ووقفنَ صفًا واحدا صائحاتٍ : النشامى النشامى ، لا تَرمونا بِيَدِ الفاجرين ·· الموتُ ولا المذلة » ·

تنبّه المجاهدون من ذهولهم ، وكأنَ مَساربَ من اللظى مشت في عروقهم ، فانتفضوا وارتدوا غائرين متفانين ، لا يصد وثوبَهم الرصاصُ ولا طلقات المدافع ، ولا عربدة الارناؤوط · وكانت نهايةُ المطاف ، بعد ساعات قتال مروع

لعب فيه السيف أفتكَ دور ، أن : « **هرب والي الشام بما تبقّى معه من عسكر ،** و جُرح احمد باشا مِينكلي وزير الحربية المصرية ، وحُمل الى مصر ومات اثـر جراحه ، **وتشتت العسكرُ المصري فلولاً في تلك الارض ، تائهين شاردين** » ٠(٨) نقل هذا الكلام حرفيًا ٠

بعدهذه الهزيمة النكراء ، كتب ابراهيم باشا الى اميرلبنان : بشير شهـــاب الثاني لكي يوجّه حفيدَه مجيد قاسم،الى نواحي دمشق،لقطع الطريق بيـــــن لبنانَ وحوران نظرًا للنجدات المتواصلة للثائرين ٠

وكان ابراهيم باشا انئذٍ في حلب ، فتلقى من والي الشام المهزوم ، خبــرًا بوجوب النجدة العاجلة ٠

قال المؤرخ (معلوف) في المرجع السابق نفسه وحرفيًا : « جمع هذا الوالي باقي عسكره ، وهو نحو ثمانية الاف جندي وذهب لِحوران ، ولـم يحارب قـط، لكنه عطّل ثلاثة ينابيع حول اللجاه منها: عين لاهِثة وعين ام الزيتون ليُرغـم الدروز على التسليم ٠ ثم اثارَ بعضَ العربان عليهم من الناحية الثانية ٠٠ ثم دمّر مناهل وادي اللِواء كلها » (٩) ٠

حين وصل الخبر الى ابراهيم باشا سارع يصحبه عشرون الف محارب مـن اتراك وارناؤوط واكراد،مُصممًا على محاصرة الجبل ، وإفساد مياهه كلها ٠ **وطلب من الدكتور (كلوتٌ بك) ناظرِ الصحة ، ان يُسمّم المياه** ٠

رفض الطبيب هذا الامر بأنفةٍ ونفحةٍ انسانية ، فأصرَّ الباشا على ذلك وأنتهر الطبيبَ ووَكل الامرَالى بعض الكيماويين لديه ، ففعلوا وألقوا بالجثث في المياه ففسدت ٠ وصرح المرجع نفسه « **غير ان الدروز لم ترعهم هذه التصرفات ، وقد كتبوا على انفسهم النصرَ او الموت ، والتزموا الصبر ، وابدوا مقاومة باسلة ، وتفانيا عجيبا ، وعلت فيهم النشامات ، وانقضّوا فتبدد الجحفلُ المجتاح ، ومُنيَ بخسائر جسيمة ، واستولى المذاويدُ على الذخائر والمدافع ، وغادروا الارضَ تعجّ بالقتلى** » (١٠) ٠

حين أُعيى على ابراهيم باشا استسلامُ الدروز وفلّ شوكتهم تقاتلاً ، لجأ الـى نهب القرى وتدميرِها والتنكيل بالسكان ، عدا النساءَ والاطفال فقد عفّ كرمـًا عن ذبحهم ٠

اما المناضلون فحين لم يبق لهم موردُ عذب ، وقد أُحرقهم العطش والجـوع

نقلوا المعركة الى (وادي التَيم) ارهاقاً للجيش ، وتصميمًا على النصر · وهم، رغم ما اصابهم ، لم **يكِلوا ولا تخاذلوا قط** ···

في وادي التيم عرف ابراهيم باشا بانتقال المعركة ، فكتب الى الامير بشير شهاب الثاني المُعتصم بطاعته ، طالباً اربعة آلاف مقاتل من النصارى ، وانه يسلمهم الاسلحةَ اللازمة ويُملّكهم إياها ، كما امر الاميرَ ان يبعث بولدهِ خليل الى حاصبيا لتطويق المتمرّدين · وقام ابراهيم باشا الى وادي التيم · لكنَّ شبلي العريان كان قد سبقه الى راشيا فاحتل قلعتَها وقتل مُتسلمها ، وحاصر الجنود فيها حتى عضّهم الجوع،فأكلوا لحومَ خيولهم ، اخيرًا فروا وتتبّعهم المقاتلون الى **بَرّالياس** حيث افنوهم جميعا ، وكانوا قرابة الف نفر ···

في اليوم نفسه وصل ابراهيم باشا الى السراي يصحبه خمسةُ الاف جندي، فوجدها خاوية ، وكان الامير مجيد حفيد بشير الثاني قد حضر بمئة وخمسين مقاتلا يوآزره عرب الهنادي بمئة رجل · في الليل ، انقض الثائرون عليهم بقيادة **(حسين الداود)** من قرية ينطا ، فقتلوا منهم ، وفرّالباقون في الادغال مشرَّدين · وقال المؤرخ المعلوف حرفيًا : « كان عسكر محمد باشا البَردَخلي قادما فلجأ بعضُ الهاربين اليه، يصحب القائدَ خمسُ مئة نفر عدا العساكر المنظمة · التحم الجيش مع الدروز وتشابكت السيوف وابدى الشيخ حسين الداود بطولةً لا مثيل لها » · (١١) في هذه الاثناء ، كان ابراهيم باشا وجنوده مُطبقين على راشيا نهبًا وتخريبا وهي خاوية خالية ، وكان جماعة **شبلي العريان** مرابطين في جبل الشيخ بجانب (عَيحا) يناوشون المصريين ·

اما في حاصبيا فقد **التحم المجاهدون الدروز اللبنانيون بالمتطوعين اللبنانيين بقيادة خليل شهاب ، وعددُهم ستة الاف** ، يشدّ ازرَهم في المعركة عسكرُ ابراهيم باشا الضخم والعسكر النابلسي · وعاد المؤرخ المعلوف ليقول حرفيًا : « هاجمَهم (للدروز) العدوُ الضخم ، **فاندحرت الفرقة اللبنانية** (شهاب وَربعُه) كذلك النابلسية ، **وتشتّتوا في السفوح لا يلوون على شيء** » · دامت المعركة اربعَ ساعات ·

وتابع : « اما جيوش ابراهيم باشا ـ فانها بعد معركة عنيفة ، وتلاحم بالاجسام والسيف والفأس والخنجر ـ تمكنت ان تدحر الدروز في (وادي بَكّا) بعد ان **قاتلوا حتى بالحجارة والعصيّ والأسنانِ حين تفلّلت الخَناجرُ والسيوفُ وحين تمّ تطويقهم** · وكان هذا٢٢ آب ١٨٣٨ » · (١٢)

اما ابراهيم باشا فقد اكتفى بفرض تقديم اربع مئة بندقية لا غير وقيل ضعف ذلك · محافظة على شرف القتال ، وحذرًا من عودة العصيان ·

ومن قائل إن ابراهيم باشا كان قد عراهُ المللُ من هذه الحال واعياه تواصل الحروب وعنفُ مواقف مقاتليه ، ففاوضهم بالمصالحة ، واعفاهم لثلاث سنوات من التجنيد وعفا عن شبلي العريان · (١٣) تم ذلك في عام ١٨٣٨ ، بعد تسعة اشهر من قتال مستمر ، تكبد الجيشُ المصري زهاءَ عشرة الاف والدروز مئات القتلى · وكانت العُقبى وخيمة على ابراهيم باشا سياسيًا وعسكريا داخل لبنان وخارجه ·

وقد ختم آلُ حمدان عهدَهم ، المضطربَ بتعدد الوقائع ، وبصلف المسؤول الاكبر الحمداني ورُعونته في معاملة الشعب ، ختَمهُ بمأثرةٍ كبيرة تضاف الى شجاعتهم الفائقة :

يقول المؤرخ الصغير : بعد موقعة (المِسَّيكي) بين الدروز والحوارنة عام ١٨٥٦ م (١٤) وظفرِ الدروز الكامل واذلال عنفوان الخيالة العربان ، حدثت في لبنان مآسٍ آلت الى دخول الجيش الفرنسي وتفظيعه في جماعة الموحدين ، انتقاما لجيرانهم المغلوب على امرهم ، قدم الى الجبل زهاء ثلاثة الاف درزي لبنانيّ خوفا من الاستبداد الاجنبي · نزلوا (نَجران) فأوقد شبانها في الحال نارا على رأس قمةٍ ليلا ، اشارةً الى التجمع العام · صباح اليوم التالي زحفت الجماهير من القرى كافةً ، الى نجران حيث تفهّموا واقع الحال ، فتقاسموا الضيوف ، مُرحبين بهم ، واحسنوا معاملتهم ، واقطعوهم اراضيَ ليستغلوها · وهم والضيوف ، بالرغم من هول احداث لبنان ، وعُمق الجراح في صدور ابنائه النازحين ، فقد كانوا كلهم قدوةً في التسامح ، اذ ترفعوا عن اذية كل غريب عن عقيدتهم ، قاطنٍ في حوزتهم او مجاور لهم · بعد هذا ، ساد الجبلَ جو من السكينة والاستقرار الداخلي محافظةً على الوحدة الوطنية والولاء للاخوان (١٥) ·

الجبل في عهد آل الاطرش

خلفَ آلُ الاطرش بني حمدان على زعامة الجبل سنة ١٨٥٠ بقيادة اسماعيل الاطرش ، واستمرت المعاركُ بين حين واخر ، واستمر ابناء الجبل على سلاحهم خوفا من المفاجآت · لكن هذا الجبل كان قد اكتمل عمرانه ، وزخر بالسكان الناشطين في تدبير امورهم ، والعناية بما تجود به الارض من الغلال ، وما تدرّ عليهم مواشيهم من خيرات · فلفَتَ مطامعَ المستعمر ، واستغوته سهول

الجبل ، وعظُم عليه ان يجد قوة تزاحمه النفوذَ في المنطقة ، دون ان يتلقى الدرسَ الصحيح من خلفه الجيش المصري ، وما باد له من قادة وجنود · فقدمت العساكر الى بَصر الحريري ، بقيادة جميل وعاكف بك وطلبا مشايخ الدروز للتفاوض وعرض سبعة مطالب لهما ، منها: دفع الاموال الاميرية ، ثم تسليم المناطق التي استولى عليها الدروز مؤخرًا من العربان ، ـ في حين لم يكن هنالك تملّك صحيحٌ لأحد ـ · كان بين الوفد المفاوض الشيخ ابو علي الحناوي فانتصبَ حين سمع المطالب قائلا : « اننا ندفعُ بارتياح كلّ الاموال الاميرية ، لاننا نعتبرُها زكاةَ اموال ، اما إعادةُ الارض فلقد امتلكناها بقوة سواعدِنا ، ومضاءِ سيوفنا ، ولن نتخلى عن شِبرٍ منها الا سابحًا بالدم » · (١٦) :

وقد انشد الشيخ هذا المقطع فتحفَّظهُ المجاهدون وشرعوا ينشدونه :

« من بعدْ ذا ابراهيم جرّدْ علينا
ـ يبغي الحرايبُ ـ عسكرًا جرار
دخل اللجا ، زحفًا بِجيشْ كبيرْ
ونحنا قَلايلْ ، والاعادي كثار
صِحنا كما تهدرْ سِباعْ ضواري
على القومْ بِلبلّطاتْ والبتّار
ذبَحنا الوزيرْ وكل ضباطْ عسكرو
وثِلثينْ جيشو ، راحْ قَصفْ عمار »

ومن الاعمال المأثورة عن الدروز ، ان اعرابيا التجأ اليهم صائحا بأن حورانيًا اعتدى على ابنته ، فهبوا الى الفاسق واعملوا بقبيلته السيف ، فقُتل ثمانية عربان ، احتج الحوارنة لدى مدحت باشا ، فارسل هذا جيشا وامر قائدَه بإنزال العقوبة في ثلاثة وعشرين شابا درزيا ، في السريع العاجل ·

أبتِ العشيرة ان تتقبّل ذلك ، عارضةً دية القتلى وحسب · فشاطت الدولة واوعزت الى جميل باشا قائد الحامية عام ١٨٧٦ بتأديب الدروز · فتجمهروا والتقى الفريقان على (نبع قَرّاصه) · اشتبكوا بقتالٍ استُعملت فيه لاول مرة بنادق (المارتين) غنِمها المقاتلون من العدو ، وانسحب مَن بقي من المجتاحين· لم يجد الدروز غاليا ما سفكوا من دمائهم ، في سبيل حرمة النزيل ، ولقاء الشرف الذي اكثر من التحريض على صيانته ، الداعي المقتنى بهاءُ الدين ، فكانوا مطيعين للنداء ، خيّرين في بذل الدم ·

واشتبك سكان قرية (الثَعلة) بمعركة مع الحوارنة عام ١٨٧٨ وانتصروا فيها واكتفى مدحت باشا بان اشترط على الاهالي دفعَ دية القتلى بالتقسيط ، تخفيفا عنهم ، واحتراسا منهم ، او لعله لم يجدهم المعتدين . (١٧) بعدها استقر الجبل ، واطمأنت الدولة ، وتنفّسَ الشعبُ الصُعداء ، لولا استئثار بعض الزعماء ومطامعهم الرخيصة .

تنبّه عامة الشعب بعد غفلة طويلة دامت مدى العهد الحمداني ، واشعر ان الاقطاع يبتزّ اتعابه ، وان الايدي الاجنبية التي كانت تطمح قد شُلت ، ولا طامع في الشعب غير قادته . فتنادوا في الضياع ، واصروا على خلع هذا النير . لكن سلطة الطرشان رهيبة ، فكيف يجابهونها ؟ ومَنِ الجسورُ الذي يبدأ بإيقاد الفتنة ؟؟

انه الشاب : شبلي الاطرش ، شقيقُ شيخ السويداء ابراهيم .

قاد شبلي معسكرَ الشعب ، وطفق يجول في القرى والمقارن ، داعيا الى التمرد على انظمة الحكومة ، متهجّمًا كل الاقطاعيين ، وخاصة اقاربه ، مما سبب معارك فُقد فيها قتلى عديدون وذلك في عام ١٨٨٥ .

اضطُر شيخ السويداء ، الى اللجوء للحكومة ، فانجدته بست كتائب وعدد وافر من الفرسان، مزوّدين بالمدافع والبنادق . التقاهم العامة بجماهيرهم المتزاحمة المتراصة بجوار (المزرعة) فكانت الغلبةُ للجيوش النظامية . (١٨)

لكن الحكومة قد آثرت ان تفاوض الشعب حقنًا للدماء ، وحفظا على الامن . انتهى التفاوض بان يعود الطرشان الى قراهم ، بعد هروبهم منها ، تحت صخَبِ الشعب وثورته ، وان يدفعوا دية جميع القتلى ، وان يوزع نصفُ اراضيهم على هذا الشعب . من ذلك الحين انتعش الفلاح واشعر بان له ارضا ملكا حقا ، ومنزلا يورثه من يشاء .

وما كانت السكينة لِتطولَ في تلك الارجاء ، ولا كان ابناء المنطقة ليالفوا الامن والغض عن بعض الهفوات ، حتى اشتعلت المعارك بين الدروز والحوارنة ، هاجم اولئك خمسَ قرى للعدو . على اثر ذلك انطلق من دمشق ثلاثون الف جندي بقيادة ادهم باشا فدارت معارك بالسيوف والرصاص ، اسفرت عن عقد صلح بين الحوارنة والدروز ارضاءً للحكومة ، لقاءَ اصدار عفوٍ عام .

إرتاح الشعب لهذا العفو ، وعاد الفلاحون الى حقولهم والشيوخ لمضافاتهم.

وقد آلم شبلي الاطرش ، الزعيمَ الشعبي ، وابنَ الشيوخ ، ان يرى الجبلَ متناحرا تجتاح الاهواء صدورَ بنيه · (١٩)

شِبلي الأطرش

تسلّم المشيخةَ (لقب للرئيس الزمني الاول في الجبل) بعد وفاة اخيه ابراهيم سنة ١٨٩٢ ، وكان شاعرًا عاميا المعيا ، سريع الخاطر ، نافذ الكلمة ، حازم الرأي صحيحه · قال في وصفه الجنرال اندريا · : « كان وضع البلاد الاقتصادي حافزا للشيخ شبلي الاطرش ، ذلك الشريف ، العطوف ، الواعي ، **الى محاربة عمومته لافراطهم في جباية الضرائب** · » (٢٠) وقال في المرجع نفسه : « **كان شبلي شريفا مستقيما واداريا ممتازا** ، اعترفت له اسرته بزعامة الجبل ، وتمسك به الجميع » ·

وعادت تتراكم المشاكل ، بالنظر للحزازات المتأصلة اولاً بين الجيران بعضا لبعض ، واسترضاء للدولة حينا ، وطمعًا من فئة على فئة حينا اخر · فنشبت معركة في الشقراوية (بقعة على التخوم الشرقية) وكان يومئذ لم ينته بعد ، الصراع بين الدروز : شيوخا وفلاحين اذا بهم ـ ونَدعُ الكلام لمحمد كرد علي ليقول حرفيا ، في خطط الشام ـ : « اذا جاءهم الغريب ، والدماء تسيل بينهم، يتحدون عليه يدًا واحدة ، ويصدقونه القتال ، وهم اولو شَمَمٍ واباء ، لكن الحكومة كانت تضطر احيانا لاتّقاء شرهم ، باثارة اهل الجوارْ عليهم » ·

على اثر هذه الاحداث المتلاحقة ، استدعتِ الدولةُ شبلي الاطرش الى قلعة السويداء واعتقلته عام ١٨٩٠ (٢١) والقلعة هذه ، تبعد عشرة كيلومترات عن البلدة · لما علم الدروز بهذا النبأ الخطير ، ثارت ثائرتهم ، وتفجّر فيهم بركان الاباء وعرفان الجميل ، فتالبوا متوثبين الى القلعة ، وصوارمهم تخطط الجو التماعًا ، وصراخهم يطبق الانحاء : **النشاما ·· شبلي او الموت** · واتجهوا الى (عين المزرعة) فقطعوا الماءَ عن الجنود ، وطوقوا القلعة ، بعض الوقت ، اذا بالجيش الحبيس يتآكلهُ الظمأ ، فأفرَجَ في الحال عن شبلي رائدِ هؤلاء الفلاحين · (٢٢) ثم عادت فاعتقلته السلطة ·

وفي سنة ١٨٩٣ كانت قد وقعت حادثة مؤلمة بين الحوارنة والدروز ، اضطرت الدولة الى تجريد حملة ضخمة بقيادة ممدوح باشا وادهم باشا وخُسرُف باشا ، فطوقتِ القرى المتقاتلة واعتقلت عددا من الثائرين ، ثم اصدرت عفوا

عنهم . ولكي تُضعفَ الدروز بمغيب شبلي دعت الدولةُ اجودَ جماعته خدعةً الى دمشق ، واعتقلتهم جميعا .

استقرّ شبلي في الاناضول ، والدروز لم يُغمد لهم حسام . ولا هجع مضجع، معاركُ متواصلة ، وقتل وترويع دائم .

هنالك ، على شاطىء البوسفور تفجّرت قريحةُ شبلي الشاعر ، شبلي الأبيّ الحساس فانشد قصائد عامية موفقة ، صوّرت حقيقة اوضاعهم ومتطلعاتهم . منها قوله :

• بالمختصرْ اياكْ تامنْ لِتركي
لو كان صايمْ عابد الله

وقال : ربعي بنو معروفْ شرابةِ الدما
ياما لهم تحت العَجاج مراد

وناجى دِيرته بقصيدة مؤثرة جدا منها :

يا دارْ قلبي دايمْ الدوم يطريكْ
وان نِمتْ اشوفكْ في الهواجيسْ يا دارْ
واكبرْ همي ان كانْ غيري مراعيكْ
ونحنا بحبسْ الروم جُواتْ البحار
يا داركانوا ينحروكي المهاليك
كنتي مزارْ ودايمْ الدوم بِنزار
مِنْ حيْ بيكْ ومِيصرْ مما احتمى بيكْ
مِن ديرة ابن سعودْ لَبلاد سِنجارْ .. الخ (٢٣)

وحين كان يدوي صدى معارك المناضلين في الجبل ، وانتصاراتُهم المتوالية ، كان شبلي في منفاه يصغي الى هذا الصدى الحبيب لقلبه فينشد بأسلوبه العامي :

جِئتنا فعاليكمْ على ديرةْ ازمبِترْ
انكم ذبحتمْ من العساكرْ طوابيرْ

عَفَا بنـــي معـــروف ٠٠ زيـــنُ الغَنابيــرُ
يـــوم الفرنجـــي مِثـــل رشـــن الغمـــامِ

ويتابع ٠٠٠ يللي وِثِقْ بيهم (الترك) لا شك مجنـــون
مَـــن يأمـــنِ الثعبـــانُ مالـــو سلامـــي

والى (عِرمـــان) اتجهت انظار الغزاة الاتراك ، يفجّر سخطَهم الحقـــدُ والانتقام؛فكان اول عام ١٨٩٦ موعدًا لزحف اربعة طوابير بقيادة غالب رضـا بك · انقض عليهم السكان المدافعون فتقهقروا امام الطعنات الصادقـــة حتى (بَصرى اسكي شام) تاركين غنائم وافرة ·

نُقل الخبر الى ممدوح باشا ، القائدِ العام في الشام فقررَ الانتقامَ وطلب من (خُسرف باشا) مهاجمةَ (عرمان) بعد استدعاء كل القوات المرابطة فـــي المنطقة ·

دارت ملاحمُ عنيفة ، صليل السيوف فيها أربى على كل ضجيج · تناثـــرت اشلاءُ الجنود واشلاء المجاهدين في كل صوب ، وانطفأت ارواح عِمدة ابطـــال الجبل في قتال دام سبعة أيام ، والمجاهدون صابرون مرابطون متواثبون ·حتى تنكست فجاة بيارقُ الترك ، وانهزموا فلولا مبعثرةً ، تاركين الفَ قتيل ·

على اثر تلك الحـــوادث ، جردت الدولة (٥٤) كتيبـــة بقيـــادة طاهـــر باشـــا لمساندة ممدوح باشا القائد العام سنة ١٨٩٧ ·

لجأ الدروز الى اللجاه والتحموا بالجيش ، وكانت قواته قد تجمعت مـــن اكراد وجركس واتراك وحوارنة · دارت الرحى في (تلّ الحديد) وهو جبـــل غربي السويداء ، واستضرى القتال ، واستبسل الدروز،لا يروعهم هذا العديـــد من المعدات والجنود ، يتصايحون : **الثورة ٠٠ الثورة حتى عودةِ المعتقَليـــن** · في هذه الاثناء توجهت مفرزة من الدروز ، وقطعت الطريـــق بيـــن دمشـــق وحوران ، مما اضطر الدولةَ المعتدية على مصالحة الثائرين مكرهـــةً كـــل الاكراه · (٢٤)

واستمرت هذه الاوضاعُ القلقة في غياب الزعماء المنفيين طـــوالَ اربـــع سنوات · حتى قُيض لهؤلاء فرصة الهرب ففروا عائدين لحوران · وصلـــوا الجبل ، وفي الحال تقرر بالاجماع اعلانُ ثورة كبرى،او النزول عند مطاليبهم الاتية : **الافراج عن المنفيين ـ رفع التجند الاجباري ـ الاعتراف بالقانـــون**

العشائري ـ او جهاد حتى الموت ·

انتظروا ثلاثة ايام ، دون جواب ، فشرعوا بالمشاغبة وابداء السخط والتهويل بالانفجار ، فأطلقت الدولة يومئذٍ (يحيى الاطرش) من قلعة السويداء ثم اعادت المنفيين · وقبل مغادرة الاستانة دعا السلطان عبدُ الحميد الشيخَ شبلي وساله : « **لماذا نراكم تشقون عصا الطاعة على الدولة العثمانية وتتسلحون وتتمردون على القانون** · وكم عطفت عليكم وشملتكم بعنايتها !؟ **اجاب شبلي : « معاذ الله يا مولاي ان ننكر الجميل ، وان نتمرد على القانون ، لكنَّ الولاةَ لم يصدقوا الله ، ولم يصدقوا جلالةَ السلطان ، فشرسوا وطمعوا بالرعية ، والدروز لا ينامون على ضيم ، طالما هم تحت عين رعايةِ جلالتكم »** ·
أُعجب عبدُ الحميد بجرأة شبلي فبذل له المال الوافر والخلعة مع لقب باشا ، وصرفه لبلاده ·

عاد شبلي مصممًا على اشاعة الطمانينة ، والكفّ عن المعارك **بشتى السبل** ، والعناية بالاملاك والطروش حتى يظفر الجبل ، **بعد هذا الجهاد الشاق في** بحبوحة وسلام ·

غير ان الطباع الشرسةَ التي زرعتها البيئةُ الطبيعية والاجتماعية في نفوس اولئك اجمعين ، والفتن التي تخلقها الدولة بأسّ من الحكام المتكالبين على المادة ، تجمعت كلها لتشل يد المصلح الصالح **شبلي** ولتجعل منه شبلا وحسب ، ازاءَ الغضنفرِ اللبناني **فخرالدين** ·

فعادت الحركات والاستفزازات بين الحوارنة والدروز في عام (١٩٠١ ـ ١٩٠٢) تداركتها الدولة وحجبت سفكَ الدماء لتنطفىءَ بعده تلك الشعلة الوقّادة: من الشعور الانساني ، والجسارة ، والحنكة · **وكان عام ١٩٠٤ موعدًا مع القدرِ لهمودِ شبلي الاطرش ، قائدِ الفلاحين ومُناظرِ عبدالحميد** ·

وفي عام ١٩٠٦ التجا الى الجبل الامير (سلطان الرشيد) الهاربُ من دمشق · وصل اولًا قرية (الصَّورة) · شعر الدركُ بمقدمه ، **فأخذوا يلاحقونه** ليقبضوا عليه ، فكانت مفرزةٌ كبيرة طوردتْ وعادت خائبة · **بعدها انتقل** الرشيد الى مضافة مصطفى الاطرش · صرف فيها شهرا مطمئنا آمنا مكرمًا ، **بعدها رغب في العودة لبلاده (نجد) · فرافقه فرسانٌ من الدروز حتى مسقطِ** رأسه ، برغم انف السلطة ·

وفي عودة هؤلاء الفرسان اخذوا يهزجون ويرددن الحداء المأثور التالي :

« حِنّا بني معروف نحمي الجارْ لوجار
نهوى المزنّــد فتيلهــم مــا نداريـــه

وسيوفنا الحدبْ تبـري كـل زنّـار
وسلاحنا انصِـدي بالـــدم نجليـه

بارودتي فلانتا ، مزنّـرا بسـوار
حالفي رصاصها عالارضْ ما ترميهْ ... »

واستمرت المعارك ، حتى لا يمضي بعضُ الاشهر ، الا وتحدث واقعةٌ ،خاصة بين هؤلاء والجيران الحوارنة من الجهات الثلاث للجبل ، كانت سنـــة ١٩٠٦ معركة (ضُمَير) قرب النبك ثم ١٩٠٩ معركة كبرى . نشبت في (بصرى اسكي شام) قادها سليم الاطرش حيثأُحْرقتِ البلد وفللت العربان ، وكانت تعـرف (البصرى) بدمشق القديمة لاهميتها ، انهزم منها كل الرجال ، وظلت النســاء والاطفال ، فظلوا معززين طوال فترة احتلال البلدة من معشر الدروز . (٢٥)

قال محمد كرد علي : « لما وصل سامي باشا الفاروقي الى محطة دِرعــا ارسل بطلب يحيى بك الاطرش ، فلبى هذا ، فَسيقَ الى السجن على الفـور . وامر سامي بتطويق الجبل ، فدار قتالٌ تصلّب وثبت فيه الفريقان ، في عـدة اماكن من الجبل ، خشي سامي من اندلاع النار الى البادية ، فعمد الى حيلـة تركية ، حيث اصدر قرارا وزعه في انحاء الجبل في ١٧ ذي القعــدة ١٣٢٥ هـ هذه خلاصته :

« لما كانت الدولة العثمانية أُمّا شفوقة ، خاصة على الدروز الذين هم يدهـا اليمنىفانها تطلب :

ان يسلّمَ الزّعماءُ سلاحهم في مركز القيادة بالسويداء ، ومن تمرّد يعـدم .

التوقيع : سامي قائد حوران العام

آمَن بعض زعماء الجبل بكلام القائد الفاروقي ، فسلموا انفسهم فَسِيقـوا مُكبلين الى حيفا ودمشق . اما سليم الاطرش وجماعته فقد اتضحت لهـم الخِدعة ، فلم يركنوا للتسليم ، ولبثوا في مناوشات مع الدولة حتى قُتل سليم رائدهم . وبعد نصف شهر من هجوع الجبل ، نُفذ حكمُ الاعدام في معظم الذين

آمنوا للفاروقي ، من بينهم ذوقان الاطرش (والد سلطان باشا) ٠ اما يحيى باشا فقد انقذته الرشوةُ مع نفرٍ قليل غيره ٠ (٢٦)

كانت المعارك بين الدروز والحوارنة منها ما يسوقه الطمع بأرض او ممتلكات ، ومنها ما تُلهبُه النخوة لحماية الديار ، ومن المعروف ما للبدو من رغبة ونزوع الى الغزو والاستلاب ٠

اما بنو معروف فانهم على نقيض هذا ٠ وحسبنا اعلانًا عن مكارمهم ما كتبه عنهم مؤرخو عصرهم ٠ واننا لنتحقق هذا الاطراء من اجانب زاروا البلاد وعايشوا هؤلاء مليًا منهم :

أ ـ « **الجنرال اندريا : « يقاتل الدروز من اجل قضية وطنية ، عامة** ٠ رُماةٌ بارعون ، يستغلون ببراعة طبيعة الارض ٠٠ كانوا يرفضون الانصياع لاوامر سلطان القسطنطينية ، ويتغلبون على الجيوش التركية التي لم تستطع يوما اخضاعهم » ٠ (٢٧)

ب ـ وقال غيره : « عبثًا حاول سلطانُ مصر ان يفرض عليهم (الدروز) سلطته ـ ان روحَ الاستقلال التي تأصلت في نفوس هذا الشعب ، كانت عاملا افقد السلطانَ امله في اخضاعه والسيطرة عليه ـ ان الدروز مشهورون بشدة البأس والشجاعة الطبيعية النادرة ٠٠ لا يقيمون وزنًا لما يملك العدو من معدات وعدد ٠٠ ، **انهم صبورون نشيطون مستقيمون أمناء انسانيون ٠٠ لا يخلفون وعدًا ولا يغدرون ٠٠ لا يرضون لانفسهم ان يكونوا مُعتدين ٠٠ شجعان بواسل ٠٠ هم اصحاب بشاشة وأنسٍ واخلاق رضية واستقبال مهذّب وديع ٠٠** تلك هي صفات هذا الشعب الغيور على مبادئه ، العدو للغدر ، المتمسك بالشرف حتى الموت » ٠ (٢٨)

واخر يقول :

ج ـ « يقع حمى الدروز ، على اكتاف الهوى في اعالي الصخور ، كَعُشّ النسر القائم ٠٠ **حتى لاصبحوا في حصنهم الجبلي المنيع ، اصلبَ واخطرَ جماعةٍ في العرب ٠٠٠ انهم رقيقو الحواشي ، ناعمو اللمس ٠٠ متى سُلت سيوفهم من الاغماد ، كان الضارب بها ، اصلب قوم في غرب اسيا ٠٠٠** زهرة الجيش المصري انهزمت من وجه تلك السواعد التي لا تلوي » ٠ (٢٩) **تلك تقييمات الاغراب عن المعتقد والارض واللغة،لمعشر الدروز** ٠

وهناك محقق فرنسيٌّ انتدبته مصرُ ١٩١٤ لدراسة دقيقة لحرب ابراهيم باشا والاتراك ، ومما قاله :

د ـ « ان هناك فئةً قليلة من المواطنين العرب ، يعرفون باسم عشائر الدروز، استطاعوا ان يتصدَّوا لجيوش السلطة العثمانية ، في ثورتين كبيرتين ، ويثبتوا عجز الجيش العثماني عن حكم البلاد العربية حتى في بعض اجزائها .. » .

وقد استدعت الحكومة نفسها ، بعثة فرنسية اخرى برئاسة المؤرخ الجنرال (ويغان) للغرض نفسه فكتب :

هـ ـ « من الاسباب العسكرية البارزة التي أدت الى فشل حملة ابراهيم باشا هو توقفهُ الطويل في حربٍ مُعقدة مع جبل الدروز . » (٣٠)

و ـ وقال **قنصل فرنسا (بودان)** في دمشق : « **ان الذعر الذي كان يحدث بين صفوف وجنود ابراهيم باشا ، عند هجوم الدروز عليهم ، اضطر الكثيرين الى رَمي سلاحهم واللواذِ بالفرار** . » (٣١)

قد حققت اقوالَ المؤرخين ، احداثٌ تمخّضتْ بها الايام ، وبرز فيها الوجهُ الدرزيّ وحسامُه وبندقيتُه ، وكان لهذا البروز اعظمُ الاثر في استقلال البلاد من النير التركي اولاً ، ومن نير فُرِضَ عليها بالتآمر والخديعة من الدولتين الظافرتين بريطانيا وفرنسا في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ .

لم نُلقِ صفةَ التآمر جزافاً ، على الدولتين ، ولكي نتحرى الحقيقة ونستكشفها يقتضي تتبع مسيرة التاريخ ودراسة بعض الاحداث الهامة فيه ، مما يخرج بنا عن جادة الموضوع ، فنتجنبه هنا .

الانتداب الفرنسي

أما نتساءلُ : لماذا اختارت لنا جمعيةُ الامم فرنسا ، دولة منتدبة ؟؟ وما علاقة بريطانيا بهذا الخيار ، وما مغانمها منه ؟؟ وما شأن الرئيس (ولسن) واين تعهداته كلها في عصبة الامم ؟ لم يكتمنا التاريخُ ان فرنسا تطلعت منذ العهد الصليبيّ شطر سوريا ، بتشوقٍ وجشع ، ثم في مآسي عام ١٨٦٠ خرجت من البلاد وعينها تقطرُ دماً ، وهي تتلهف لتحين الفرصُ الى العودة والاستقرار .

لم تسمح لها السياسةُ الدولية في هذا الحلم عسكريًا فلجأت بذريعة ترقية الشعب ، والحنان على فقرائه ومؤانسة بعض فئاته ، الى بناء مؤسساتٍ علمية ومستشفيات مجانية ، زاعمةً انها بهذه الاساليب تكسب عطفَ الشعب ، متغاضيةً عن مبادىء ثورتها السامية ، ومخدوعة بأن هذا الشعب سيهضم تلك الاحابيل الاستعمارية ، ويخفى عنه ما يستر هذا البرقعُ الرثّ ، من طمع في الاستغلالِ والاحتكارِ والعبودية ٠ ـ راجع الهوامش والوثائق آخرَ البحث ـ

تمثّل لنا هذا الطلاء ، اولَ تمثيله في خطاب القائد الفرنسي العام الجنرال (غورو) ٠ من خطابه قوله عام ١٩٢٠ :

« ان فرنسا تريد بل ترى من واجبها ، تأمينَ استقلال سوريا ٠٠٠ (المقصود سوريا ولبنان معا) وان فرنسا ما قبلت الانتدابَ على سوريا الا لارشادها واسعادها والنهوضِ بها في مجال الرقي والعمران »٠ وجاء بعد قليل الجنرال (ڤيغان) فصرح : « ان انتدابنا يحتاج الى رجال قديرين ، ومن اصحاب العفة والنزاهة » ٠ بعد ان وجد فيهم عكس هذا التَخلّقِ ٠ كان تصريح القائدين منافيا لواقع سياسة فرنسا في سوريا حيث ما حدث عُمْرانٌ بواسطتها بل حروب ودمار ، ولا كانت عِفة في الحكام وعملائهم ، ولاقطرة نزاهة ٠

اما بِريطانيا فقد كان اقلقها بسطُ نفوذ المانيا قبل الحرب معنويًا على البلاد فلجأت مع فرنسا لتصفية المسألة الشرقية حيث كانت تركيا على فراش النزع الاخير وسُمّيَتْ : بالرجل المريض ٠ هذا ما حقق معاهدة (سيكس بيكو) التي فضحتها وهي رضيع ، المخابراتُ البولشفية ٠ فالمعاهدة تنص على تقاسم الشرق العربي بين الدولتين ٠ لقد قوبلت صيغة الانتداب في عصبة الامم ، واكثر منها في سوريا العربية ، بالامتعاض والنقمة والغليان ٠ (٣٢)

وكان بعد هذا الغليان ، انفجارُ الثورة على فرنسا وحدَها ، لا مَرضاةً لانكلترا ، ولا انطلاءً لتوددها المصطنع ، بعد موقفها من الصهاينة ، بل حذرًا من التصدي لعدوّين في وقت معًا ٠

وكان قبل صدور مقررات عصبة الامم وتأكيدها على وضع سوريا تحت الانتداب الفرنسي ، قبل كل هذا ، كان سعيرٌ داخلي لاهب في صدور قادة الدروز وسوريا ، وتطلعٌ الى استقلالٍ ناجز ، لماذا ؟؟

لان العربَ كانوا جدًّ اوفياء مع (لورانس) المندوبِ البريطاني لدى الملك حسين،حين اكد لزعماء العرب استقلالَهم ووحدتَهم فاسهموا باخلاصٍ في طعن

الجيش التركي ، وكان لجماعة الدروز القسطُ الأوفر في هذا الصراع ٠

وكان (الأزرق) مقرَّ الجيش العربي الظافر على الاتراك يومذاك ، تقرر فيه اجتماع لاحقٌ في السويداء بين اعيان الجبل وفي مقدمتهم سلطان الاطرش. وبين زعماء سوريا ، ومنهم البكري والدُروبي ٠ اقسموا هناك أيمانًا على النضال حتى الاستقلالِ التام لسوريا ، والاستقلال الداخلي للجبل ولا سلطة لاحد عليه ، وتعاضدٍ عربي مُتبادَل ٠

بناءً على ذلك مشى سلطان يرافقه احمد البزبور لافتتاح (بصرى أسكي شام) التي كان الاتراكُ ما زالوا في ضواحيها (٣٣) ٠ فتحوا قلعتها ودحروا الجنودَ وتابعوا زحفهم الى دمشق ، فالتقوا (رضى باشا الركابي) المسؤولَ التركي فاصطدموا معه بشراسة ، حتى تبدد جيشُه ولم يلو على نقل شيء من معداته الضخمة ، غنما منها ٢١ مدفعا وعددا من الاسرى بينهم الركابيّ نفسه، الذي غدا فيما بعد وزير حربية الاردن ٠ كانت هذه المعركة اولى المعارك العربية العامة ، وأُولى شرارات الثورة الكبرى الآتية ٠ دخل سلطانُ دمشقَ في ٢٩ ايلول ١٩١٩ ٠ (٣٤) ثم تابع ملاحقتَه للجيش التركي المتفسخ ، يتعقّبه ويفتك به حتى رِياق ٠ يومذاك نال وفاءً لجهاده من الملك فيصل لقب باشا ٠

وما كان هذا العِنادُ والاصرار من سلطان ، في هذا التتبُّع والضرب العنيف للمستعمر وليدَ حقدٍ وثار لابيه الشهيد وحسب ، بل كان اولا ، حافزا وطنيا عربيا ٠ (٣٥)

أفلَ زُحلٌ عن افق الشرق الادنى ليطلَّ علينا زحلٌ اخر افظع وادهى واشد مِراسا ٠ فان سياسة الاستعمار ومطامعه واحابيله هي كلها واحدة ٠

في ٢٢ ت٢ ١٩١٩ وصل الجنرال (غورو) لبيروت ، بعد تسويةٍ عامة لكل مشاكل المنطقة بين دولته وانكلترا ،اجتهد بحماسةٍ متواصلة لاستمالة الشعب السوري ومُعظم اللبنانيين ٠

وكانت موقعة ميسلون المشؤومة مع القائد الشهيد يوسف العظمَة ، وكان فتح الشام ٠ مما اضطر سلطان نظرا للوضع الداخلي في الجبل ، ان يغمد السيفَ ويكفّ عن النضال ، ويلتزم منزله ، صامتا كاظما ٠

وفي السويداء اجتمع اهل الجبل مشايخُ وفلاحون في ٢٠ تموز ٩٢٠ واتخذوا مقرراتٍ عِدة ، لتقديمها الى السلطة المنتدبة ٠ على رأس المقررات : الاستقلال

الداخلي للجبل وعدم التجنيد منه . ولا نزع السلاح من يده . وافقت السلطة على المقررات كافةً ، على ان يكون هناك مستشارٌ اداري فرنسي . وتعيّن سليم الاطرش حاكما على الدولة الصغيرة . (٣٦)

وسلطان صامتٌ على مضض ، يرمق شزرًا هذه المهازل . ويلبث مُنعكفًا في بيته في (القُريّة) على دراسة المخطوطات الروحية ، مترقبا فرجًا من الغيب . (٣٧)

كانت المفاوضات والارضاءات تشغلُ المركزَ الاول في سياسة الاحتلال . وكانت بعض الاذان مشنفةً بهذه المعزوفات الوضيعة ، والسُخريات . لكن سواد اهل الجبل ، لم يكن راضيًا عن شيءٍ منها .

شعرت الدولةُ المستعمرة بهذا الوضع ، فراغتْ وما لقيتْ ووزعت الاف المناشير على الاهلين في الجبل ، بواسطة الطائرات ، تُنبيءُ بقدوم حملة فرنسية للجبل .

كثر لَغطُ الشعب وتشاوروا ، وذهلوا عن اسباب نقض ما تعهد به المفوضُ المحتل . وتوقعوا ما سيؤول اليه الوضع من عواقب مجحفة ، ومزرية .

واصطخبت المشاكل وكثرت الاقاويل وتردّت الاوضاعُ وعمّ الهزءُ بالحكومة الصغيرة وبجنودها المسخّرين ، ونظر الشعب بارتيابٍ الى المفارز الاجنبية **الجاثمة في القلعة .**

أدهم خنجر

كلُّ هذا . وسلطان موغلٌ في صمته ، حتى كان يوم ٢١ تموز ١٩٢٢ ، وكان سلطان خارج منزله . اذا بشاب يُدعى : **أدهم خنجر** ، من جبل عامل . ومن رفقاء شكيب وهّاب الذين اطلقوا النار على (غورو)،وهو الذي اخذ على عاتقه نسفَ محطة توليد الكهرباء بدمشق ، بُعَيدَ الاحتلال الفرنسي ، لجأ لمنزل سلطان لشدة التضييق عليه ، وسدّ ابواب النجاة عنه . وشى المراقبون عليه ، فظفر به الجيشُ الفرنسي على مقربةٍ من منزل سلطان ، وسِيق مُكبّلا الى قلعة السويداء . (٣٨)

عاد سلطان الى (القُريّة) واطّلع على الخبر · فاتأد وتروى وتبصّر ، وهو في مطلع الثلاثين من عمره ، وهو ذلك النمر الهدّار ، والفارس الذي التقى بصدره مدافع الاتراك ، ولم يتراجع أنملة عن غايته · ظل رابط الجاش ، وارسل اخاه عليًا الى السويداء ، يُبلغ الحاكم ان هذا التصرف منافٍ للبند الثاني من الاتفاقية الاخيرة ، وانه اهانة لا يمحي عارها ، اذا لم يُطلق سراح اللاجيء الاسير ·

وقد ذكر وكرر التذكير بوجوب مراعاة الشعب الفرنسي للتقاليد ، وبانه لن يُغضي ابدًا عن هذه الاساءة مهما وخمت عقباها · وانتظر ، وقدّم كفالة شخصية ، ثم اعقبها ببرقية الى الجنرال غورو يقول فيها : « صعبٌ عليَّ اهانة قاصدي ، الحلّ الوحيد ، اطلاقُ سراح الرجل » وكانت كل محاولة فاشلة · في هذا الوقت ، استطاع (ادهم) ان يوصل من القلعة رسالةً لسلطان تقول بايجاز : « دخلتُ دياركم مستجيرًا ، وادخلُ في حَرَمكم وفي اولادكم » · (٣٩)

في هذا الموقف العصيب ، لم يعدْ سلطان ذلك الحكيمَ المتزن ،بل عصفت في صدره نخوة التوحيد ، وتذكر التوصية بحفظ الاخوان : اخوانِ المعتقد واخوان النضال ، فلم يجد مخمدًا للواعجه ونزواته الا الثورة ·· الثورةَ ، ولو آلتْ الى الموت وخراب الديار ·

كانت السلطة في هذه الاثناء قد عبأتْ ثلاثَ سيارات مصفحة من حوران الى السويداء تسهيلالنقل أدهم خنجر وتأديب سلطان وجماعته ، اذا خطر لهم الاقدام على اي سوء ·

احسَّ سلطان بما يُدبر له ، فاندفع مع جماعته الى الطريق العام يتربص للعدو ، حتى اذا ما لاح من بعيد أُنتخى ، وانتخى خلفه الشبانُ وتسابقوا الى نار لَعوج كان يقصف بها الفرنسيون من مصفحاتهم ، ما ثنى المناضلين قصف المتريوز الثائر ، بل تلاحقوا يهمزون الجياد ، ويتصايحون ، والرصاص يئِز حولهم ، والمدفع يدوي ، وهم كأنهم واثبون على ملتقى احباء ، حتى اذا ما اصبحوا ملاصقين للعدو ، قفزوا فوق احدى المصفحات واعملوا فيها السيفَ واعقاب البنادق ، واطلقوا من ثقوبها النارَ على ركابها ، والعدوُ مأخوذ مَشدوه · اما المصفحة الثانية فركنت للفرار ، والثالثة ، انقضّوا عليها واسروها بضابطها وجُندِها وسلموهم لحكومة الجبل ·

وعاد سلطان الى رابية مجاورة للطريق العام ليتابع قطعها عن الجيش

والذخائر ، ويمنع نقلَ ادهم الى دمشق ، غير مُبال بالعواقب .

اتصل به اقرباؤه وتمنوا عليه ان يكفّ عن عزمه ، ولقاء ذلك تعفو الدولة الفرنسية عنه وعن جماعته . لكن عليه الا يمانع في نقل ادهم للشام . انتفض سلطانُ لهذا الحديث ينقله اهلُه الموتورون مثله ، واجاب : **إما اطلاقُ سراح النزيل واما نواصل الثورة ونعمّمها ولو تهدّمت منازلنا وتشردت عيالنا** » .

وتزايد شغَبُ سلطان ، واحسن الفتكَ والقتل ، وفقدت الدولة المستعمرة كل حيلة ارضية تمكنهامن نقل الاسير للشام ، فأرسلت في السابع من كانون الثاني عدةَ طائرات تطارد الثوار . التقتهم في منبطح فسيح فأمطرتهم بقنابلها ، فتفرق جماعة سلطان وانبطحوا بعيدًا ، **وهو ما عرَته ايةُ لفتةٍ ولا رعشة ، كان القذائفَ رعدُ السماء ؛ وجوادُه تحته ، ما تبدلت له نقلة ، بل استمر في مِشيته بتؤدة ، حتى فرغت حمولة الطائرات** وارتدّت للشام .

تبلّغتِ السلطة كل هذه الاعمال ، فلم تَجدْ بدًا من نقل الاسير ، واصرت حازمة . فأرسلت في اليوم التالي اربع طائرات للسويداء نقلت بإحداها (ادهم) لدمشق فبيروت فالإعدام .

وقف سلطانُ عند هذا التدبير مشلولَ الساعد ، وقال : « **أما طريقُ الجو فلا طاقة لنا بقطعها .. اذلّ الله الغادرين** » . وتابع التربصَ للجيش ، وللفتك به في مناوشات متكررة .

اما الشعب، فانه ازاء هذه البطولات وازاء الهدف الذي من اجله تفجرت ، تعاطف عددٌ منه مع سلطان ، فمدّه بالرجال والمعدات ، ومشت البلبلة والتذمُّرُ من المستعمر وصَلفه واستهتاره ، في الشعب اجمع .

هذا العنادُ من سلطان والموقف المعادي من الشعب جرح كبرياءَ الجنرال غورو ، وتناقلت الاحداثَ الصحف العربية (٤٠) والعالمية ، فلا بد للاستعمار إذنٌ ، من ان يُنشب مخالبه الحبيسة ، ويرفع عن وجهه قناعَ الوداعة والرحمة ، فأرسل الطائرات الى الجبل تضرب عشواء ، القرىالدرزية والمسيحية ، وتدمر منزل سلطان تدميرًا، وتحرق البيادر وتهدم المطاحن ويَطمي بَغيُها . وسلطان في هذه الحال ، حين لم يجد صدى كبيرًا لدعوته انطلق مع جماعته الميامين الى البادية ، على التخوم ، يُغير ويفتك ويُقلق السلطة .

ذلك الشعب الذي كان معظمُه مراقبًا لا ثائرا وجد في سلطان ذلك البطل

الذي يعرف كيف يحمي الذمار ، ويدافع عن الكرامة . فحين قضت الظروف المحلية ان يُعفى عنه ، كان يوم مقدمه للجبل مهرجانا ما عرف مثله الاهلون . وكانت الزغردات والنشامات والاهازيج تطبق الجو ، وتنزل صواعقَ في مسامع الاعداء والمتذبذبين وكان ذلك في الخامس من نيسان ١٩٢٣ (٤١) .

سلطان يعود من منفاه

بعد عودة هذا المناضل الكبير ، وجد منزله مدمرًا ، فعرضت الدولة عليه ان تعيد بناءه ، فأبى ، وبنى من ماله غرفتين ، سكن فيهما مع عياله رافضًا ان يُشيّد له منزلٌ فخم ، من مالٍ اجنبي وسلطةٍ واترة .

هجع سلطان في منزله المتواضع ، والغصّةُ تملأ صدره ، لانه لم يَفِ نزيلهُ ولا كرامته حقّهما ، ولم ينقذ الشعب السوري من عِبء نير الاستعمار . وكانت المخازي التي تتكرر في الجبل من الحكام والمستشارين وعملاء الفرنسيين تزيده غُصصًا وتلمّظا : من اعمال (كاربيه) الوقحة الشاذة ، الى صلف الجنرال سراي وتسفيهه للوفد الدرزي المفاوض ، الى السكوت عن التجاوزات وامتداد سلطة الانتداب ، ونشر الجواسيس في كل قرية ، بواسطة المدرّسين الذين جِيءَ بهم من لبنان ، ثم الى تسخير الشيوخ وتهشيم الكرامات .

وسلطان صابرٌ على مضض ، يتحيّن الفرصة الملائمة ، ليقوم بالدور الذي خُلق من اجله : تحرير البلاد ، واسعادِ الشعب ، والقضاءِ على المستعمر .

ان المُنصفين الفرنسيين كانوا قد أدانوا بتصريحاتهم ، اولئك الحكامَ المتجبرين ، وحمّلوهم تبعة اعمالهم التي اساءت لسمعة فرنسا وخفضت من ثقلها المعنوي والعسكري . ومن كلام هؤلاء المنصفين : قال (هنري بوردو : « لقد ابرز كاربيا في جبل الدروز امبراطوريةً حقيقة . (٤٢)

وقال (بيار لامازيار) : كان كاربيا يُردد : « ان دمَ الضابط سينمو ويكبُرُ الى ان يصير حرجًا » . (٤٣)

وصرح الجنرال اندريا : « ان تجريد الدروز من السلاح ، في اليوم التالي من اعلان منحهم الاستقلال ، وهو شعبٌ من طبيعته الحرب، لا بد ان يَعتبرَ هذا التصرفَ اساءةً اليه ، وفي رأيي : انه لتَدبيرٌ اعجر ، بعيد عن روح السياسة » . (٤٤)

واضاف : « كان يجب قبل كل شيء ان نُعيد للدروز الثقة بنا ، ونبرهن لهم بأعمالنا وتصرفاتنا اننا لا نريد استعبادَهم ، واننا نعمل لتحقيق استقلالهم ، وتوفيرِ الامن لبيوتهم » (٤٥)

ان رسوخَ فكرة الثورةفي نفس سلطان ، وعامة الشعب الدرزي ، لم يكن فقط ، انتقاما من حاكم استبدّ وتمادى ، ولا كانت انتصارا لاقطاعيّ يبغيتثبيتَ سلطته واقطاعه ، ولا هي مُحاباة لدولة اخرى مستعمِرة ، ولا تغريرا بمغانمَ ، انما كانتنتيجةً للشعور العام ، المتأصل في هذه العشيرة منذ نشأت ؛ شعور مُلحّ بمطاردة الاجنبي العابث ومقارعةِ المحتل ايّ كان ، والتمرد على السلطة المتغطرسة مهما طال ظلُ سلطانها ، ومن اين استمدت قوتها .

ان الوضع الطبيعي والسياسي والاقتصادي الذي فُرض على الدروز منذ نشأتهم السياسية ، في مصر وعبرَ احتلال الفرنجة ، الى اجتياح الاتراك فمصر البَرهمّية ، ففرنسا ، هذا الوضع الى جانب ما انطبعوا عليه من الانفة والصلابة جعل منهم جماعةً يتعشقون الحرية ، وهم ما اغمضوا على ضيمٍ مدى تاريخهم الطويل . حين يعزمُ الدرزي على امر ، يعسرُ الحُؤول دونه ، ولوْ كلف بذلَ الروح . وهو على هذا العنفوان والتصلب ، لا يُصر على طلب الا بعد التروي والمشورات وخاصة ارشادات ائمة المذهب . وطالما ان هذا المذهب مرتكز على أقوم المبادىء الاخلاقية فان توجيهات ائمته لا تنبعُ الا من هذا المرتكز نفسه . اما القول بأن هؤلاء يستحبون القتال والتناحر ، ولا يرغبون في السكينة والسلام ، فهذا الافتراء سفّههم به حتى المؤرخون الاجانب . ولنا مع هؤلاء لقاءٌ ، آتٍ وطويل .

بينما كان سلطان في مُعتكفه ، هاجعًا كبَحر قُبيل الإعصار ، كانت الجماهير الشعبية ، في مختلف قرى الجبل ، تتخذُ صلاةً لها ، في الصباح والمساء ، هذه المعزوفة العامية الصادقة :

« يا ديرتي مالِكْ علينا لومْ

لا تعتبي ، لومكْ على مَن خانْ

حِنا روينا سيوفنا منِ القومْ

ما نِرخصِك مثل الردي بأثمانْ

وانْ ما تعدلُ حقنا المهضومْ

يا دِيرتي ، ما أَمّا إِلِكْ سِكانْ »

وفي اليوم الرابع عشر من تموز ٩٢٥ دعت السلطةُ المحتلة سلطانَ وبعض اعيان الجبل الى السويداء للمفاهمة الودّية واعادة السكينة للبلد ٠

ارتاب سلطانُ لهذا الطلب ، وكان نافذَ البصيرة ، فاعتذر عن الحضور ٠ صباح اليوم التالي ، تناقل الشعب خبر نفي العديد من اعيان الجبل الى الحسكَة (شمالي سوريا) ٠

انطلق على الفور حسن الاطرش وسلطان ، شطرَ المقرن القبلي ونادَيا بالقرى فلبّى الشعب كله واتجهوا بالحداء والنشامات الى (عِرمان) (٤٦) فطاردتهم الطائرات بقصفٍ مركّز ، فأسقطوا واحدةً منها ، واخذوا ضابطَيها اسيرَين وابوا ان يمسّوهما بسوءٍ رغم اضطراب الامن والقلقِ المستطير بكل مكان ، وكلُ بيتٍ ، كان بُركانًا في اشد صخَبه ٠

وفي العشرين من تموز كان دارُ البعثة الفرنسية في (صلخد) ، عرضة لألسنة النيران التي سعرها فيه سلطان وجماعته ٠

بهذه الشرارة سجّلَ التاريخ مولدَ ثورة ٩٢٥ ٠

بدءُ شرارة الثورة

التقاها الجيشُ المجهز بأفتك المعدات النارية يومذاك ،بعناد واصرار على قمع الثورة في العاجل العاجل ، والقائد متأكد من فقرِ معشر المناضلين الى السلاح الحديث ومن انه مَسوقٌ بغرورٍ احمقَ الى القتال ٠

خيَّم الجيش على نبع (**الكَفْر**) (بين صَلْخَد والسويداء) المقر الستراتيجي المحكم ، ثم تسلق الجند التلالَ المجاورة وتحصنوا فيها ، ورَكزوا المدافع ، ووزعواالافراد ، واستظلوا الصخور ، واثقين من ان النصر حليفهُم ، وان المهاجمين المغررين سيبيدون ٠

كان هذا في الحادي والعشرين من تموز ٩٢٥ ، في التاريخ نفسه الذي حطّم به رفاق سلطان المصفحتين الفرنسيتين قبل ثلاث سنوات ٠ (٤٧)

انقضَّ عليهم المغاويرُ ، صواعقَ مَدوّيةً ، لم يتخذوا اية خطة تاكتيكيّة ، بل انجرفوا بعامل النخوة الجنوني ، حيث يكمن العدوُ الأرعن ، والتفوا حول

الحواجز الطبيعية ، وبمثلِ البرقِ الخاطف، كانوا في صميم المعركة ، وكانت سيوفهُم تعمل في الشطرِ والبترِ وحزّ الجماجم ، بينما كان العدو مأخوذاً بفائق الذعر لهذه المباغتة الصاعقة ، حيث لم يعد لأيّ سلاحٍ بأيديهم ايةُ جدوى للدفاع عن النفس، وكانت العصيّ افتكَ في هذا الموقف من الرشاشات المصوبة· وقد حدّث مُخبر حضر هذه المعركة ، ان شابا فتيًا من (مَلَح) شكّ حاملة بيرق بلدته ، في ظهر رامي الرشاش ، بعد ان انتُزعت نهائيا المبادهة من هذا العدو، وان الواثبين ، وبأيديهم السيوف والفؤوس والدبّوس ، عادوا كلهم متنكبين البنادق والرشاشات ، تعلو وجوهَهم البشائر وزهوُ الانتصار · وما كان لهذه المعركة الساحقة ان تدوم اكثر من اربعين دقيقة ، ولا ان يشترك فيها من المجاهدين الا مئتان ، ان السرعة في الانقضاض هي التي كانت الضمانَ الاول لكسب المعركة ·

كانت هذه الواقعة جوابًا حاسمًا للساعين الى الموالاة والتوفيق بين مطالب الشعب المناضل بشيوخه وفلاحيه ، لتثبيت حقوقه الوطنية ، وبين عملاءِ المستعمرِ والمستعمر نفسه · لقد تأكد قادةُ الشام الوطنيون من ان الخُلق الدرزي اصيلَ كل الأُصالة ، وهو كالذهب ، متى تعرض للمحكّ اتّضح تِبره ·

كانت انباء هذه المعركة شؤمًا على الجنرال (سَرّاي) ولعله تذكر تلك القِحةَ والتجبرَ والفظاظة التي التقى بها مُوفَدي الدروز لدى مقدمه ، وشكواهم له على (كار بيا) حاكم الجبل · لكنّ سراي ، بالرغم من مبدأه الماسوني الموحي ظاهرًا ، ببعض الانفتاح ، كان قد غلب عليه طبعُه ، واحاله الى عسكري فجّ ، واداري أرعن · جنت فرنسا وخيمَ العواقب ، من سوء تدبيره · (٤٨)

وقد دوى في المسمع العربيّ صدى نبرة الشاعر القروي الرائد ، حين قال على الاثر :

« من قمحِ حورانٍ ارادَ وليمةً
فأتاهُ سُمُّ الموتِ من حورانِ

صاحَ : المروءةُ يا فرنجُ ، فليس لي
في صَدِّ غاراتِ الدروزِ يدانِ

عهدي بهم في السِلم حِملانًا ، فَوا
رُعباهُ بعدهمُ مِنَ الحِملانِ

يلقَونَ مِترليوزِنا بصدورِهِم
ويكافحونَ الطَنكَ بالأبدانِ

والمح الشاعر نفسه ، الى هذه الموقعة في قصيدته الرائعة فأنشد مُخاطبـا سلطان :

« خَفَقتَ لِنجدةِ العانـــي سريعًا

غَضوبًا لـــو رآكَ الليثُ ريعـا

وحولكَ من بني معــروفٍ جَمـعٌ

بِهمْ وبدونهمْ تفني الجموعـا ٠٠ »

ما كان سلطان مُهيأً ولا كان راغبا قط ان يلتهج سعيرُ المعركة ، لكثرة الجند ووفرة معداته وشدة تحصنه ، ولقلة المناضلين وهزيل سلاحهم ٠ لكن الشبان من حوله ، تنافروا ، وثبّاءيستبق الراجلُ الفارسَ ، ويزاحم اليافعُ الشابَ ، فعجز سلطان عن الحدّ من حماستهم وردد بخشوع :

« وأمشي على ما قدّر الله

والكاتِبـو ربّـك يصيرْ » ٠

فاعادت الثوارُ ملتهبةً هذا الحداء مرارًا مرارا ٠ ولكن للاسف فانه حيـن استعرت المعركة سقط مصطفىاخو سلطان ، فضاع صواب القائد ، وهمـز جوادَه ، فقفزَ فوقَ الصخور ، فتلاحقت خلفه الشبيبة بالهزج والنخوات حتى تمّ النصر ، وما نجا من العدو غيرُ نفر قليل كانوا الرسولَ المفاجىءَ لنقـل خبر المجزرة الى المتحصّنين في قلعة السويداء مع عائلاتهم ٠

اما قرى الجبل فقد انجلى الفرنسيون عنها احتراسًا وحذرا بعد هذه المذبحة الرهيبة ٠

وشارك الشاعرَ القرويَّ في مشاعره ، اميرُ البيان شكيب ارسلان فأنشد اثر المعركة :

« فِدىً لِحمانا كلُّ من يمنعُ الحمـى

ومن ليس يرضى حوضَـه متهدمـا

٠٠٠ يقولونَ وجهُ السيف ابيضُ دائما

وما أبيضّ الا وهو احمـرُ بالدِمـا

... تجاهل اهلُ الغـــربِ كل قضيـّـةٍ
اذا لم يجِيءْ فيها الحسامُ مترجما »(٥٠)

وكانت الاهزوجةُ الشعبية التي رددتها الشبيبة المتوثبة في الكفر هي تلك :

« يا فرنســـا واللــه ما نطيــــــعْ
ونهـــوشْ عنـــــد ديـــارنــــا
لعيــــونْ زغـــرردِ البنـــــات
ذبـــح العساكـــــر كـــارنــــا
لِلكَفـــر نحنـــا قاصديـــــنْ
يبـــري العِـــدا بتـّــارنــــا
مـــا نعودُ غيـــر مسعّريـــــنْ
بلحـــم الضحايـــا نـارنــــا

أَخذَ الجنرال (ساراي) بعدما حل بجيشه من ثبور ، يحاول التفاوضَ مـــع الدروز ، بواسطة اعيان من لبنان كانت قد كلفتهم بهذه المهمة السيدة (نظيرة جنبلاط) ، وكانت تلك خدعةً من الجنرال ليغتنم الوقت ، وتصل معداته وجيشه الى الجبل ، وكان ذلك في ٣٠ تموز سنة ٩٢٥ اليوم الذي وعَـد فيـه الجنــرال بالافراج عن المعتقَلين (٥١) .

معركة المزرعة :

فشلت المساعي للتفاوُض واكملَ (ساراي) التجهيزات والإرسال . كان عدد الجنود حوالي عشرة الاف ، يتقدمون بمدافع خفيفة عيار ٧٥ و ٦٥ ورشاشـات ثقيلة وخفيفة ودبابات ، ومصفحات وشاحنات وجنود من السنغال (وسپاهيس) ومن تونس ومراكش ، والضباطُ معظمُهم فرنسيون ، والقائد العام الجنــرال (ميشو) . وصلت قوافل الخيول والبغال والشاحنات الى (بصر الحرير في الثاني من آب، وتقدمت الطلائع على بعد كيلو مترين من السويداء (٥٢) وغايتها بلوغ العاصمة وانقاذ المحاصرين في قلعتها ، وعددهم مئتان تقريبا مع عائلاتهم وقائدهم (مارتان) .

في منتصف الليل ، تسلل بعضُ الشبان الدروز ، بيـــن الجيش ، وحدثت مناوشات واصطدامات . دامت المعركة ثلاثَ ساعات ، استشهد فيها البطل (حمد

البَربور) مُرافقُ سلطان · لكن الواقعة اسفرت عن مكسب بعض الذخائر ، غير ان الجيش ما برح في صموده وتحصنه بجوار (نبع المزرعة) لم يعتره وهَـــنٌ ولا ذعر ، بل استمر مصممًا على الزحف الى السويداء · (٥٣)

ارعبتِ قادةَ الدروز وخاصة (سلطان) هذه الحملةُ الضخمة ، بما تحمل من معدات وآليات وجنود مختلفي الاجناس ، فاجتمعوا لتقرير ما يجب اتخاذه ازاء هذا الموقف المصيري الرهيب · كان رأيُ سلطان الا يحدث تلاحمٌ عام ، مخافة من فشل ذريع ، بل لِتحدث مناوشات هنا وهناك ، وكان التجمع حول نبع (قرّاصة)·

لم يَلقَ هذا الرأي اذنًا مُصغية ، لان الحماسة آخذة بالشبان،والتهوس بعد المناوشات الناجحة زادهم اصرارا على التلاحم ، مُستخفين بالعدو وتجهيزاته· متبجّحين بأنهم هم ، بسيوفهم وفؤوسهم مُنقذو الوطن والعرض ·

في الصباح كانت اعلامُ القرى تُحيط بالنبع من قريب وبعيد وكان المقاتلــون يتواثبون من كل صوب ، زاحفين من (المقَرن الجنوبي) ، مستخفين بمخطــط سلطان تخفق فوقهم بيارق قراهم المختلفة الاشكال ·(٥٤) كان كلُ المقاتليـــن يتأهبون ويتجمعون ويرصّون الصفوف ويوزعون المسؤوليات ، وكان (النبع) يموج بهم كأنما هم على قمة بركانٍ هاجع ، لكن الارض تمورُ وتمورُ ، إنــذارًا بالانفجار المحتّم · متى يأذن القدرُ ؟ ويسمحُ (ميشو وسلطان) بموعد هـــذا الانفجـــار ؟؟

الموقع هنالك خطيرُ جدا ، سهولٌ منبسطة من ناحية ، ومن اخرى صخـــور وحجارة والنتوآت تعيق الآليات الضخمة في مسيرتها ، لكن الطائرات كانت في مأمنٍ من كل هذا ، فالجو منقشع ، ولا ندري ما يخبىء الصباح الآتي مـــن مفاجآت ·

كان قد اقرَّ سابقًا الخبراء العسكريون ان من اكبر العوامل التي يتحقــق بواسطتها النصر للدروز في المفاجآت · وكانت فِعلاً مفاجأة نادرة خاطفة ، حين انقضّ المكافحون من استحكاماتهم مزغردين متصايحين ، عند مَطلّ الفجر ،فهبت مصفحات العدو تفتح الطريق امام الزحف ، فكان قد نشط الثوارُ الــى سدّ المعابر والمسالك بالحجارة الكبيرة ، وحلقت الطائرات وانزلت مـــن قذائفهـــا العشرات ، وتتالت غاراتها ، لكن هجماتِ الثائرين لم تتوقف ؛ والجيش لـــم يتزعزع ، ثابتً في استحكاماته ، يُشعل الارض بقذائف مصفحاته ، وازيـــز طائراته التي لا تعتم تتناوبُ وتزيد القصف ·

اتخذ قائد الغزاة حيلةً فنصب فخًا للجماهير المناضلة اذ أمر احدى الفرق المقاتلة بالتراجع ، فتدافع وراءها المناضلون ، واذا بالرشاشات المتمركزة على التلال المواجهة ، تلعب دورَها الرهيب ، فيتناثرُ المهاجمون كأوراق الخريف . في السهل المكشوف (٥٥) ·

لم تفتَّ في عضدهم هذه المجزرة ، بل زادتهم حماسة وانتقاما وثأرا · فاستعادوا تجمعهم ، وتناخوا هاجمين بالسلاح الابيض ، يغيرون ويقفزون على جثث قتلاهم · ويوغلون في صميم الجيش ضربًا محكمامتلاحقا،مما اضطره على ان يتخلى عن تحصيناته ، وان يتعطل فعلُ المدفع والرشاش ، وتخرس قنابلُ الطائرات · لقد اعاد الدروز زهوَ السيف العربي بهذه الوقيعة ، وهم لا ينفكون يُغيرون ويضربون ·

أما الامر الذي أشدهَ العالمَ ، ووَجدَ فيه الخبراءُ العسكريون اعجوبةَ القتال فهو هجوم احدى الطلائع الى المصفحات ، يعتلون متونَها ، ويدقّون سطوحَها بالفأس ويطلقون رصاصهم من ثغراتها · ومنهم من يتكاثرُ حولها ، ويقلبها ، ويفتك بجندها ، حتى ان احد الفتيان المقاتلين بعد اعتلائه سطحَ المصفحة ومحاولته تحطيمَها ، وهي بعيدة عن الساحة ، انزله الجندُ اليهم ، وساروا به حيث هم منهزمون · (٥٦)

ان العامل الاكبر الذي شلّ مقاومةَ الجيش الفعلية ، هو تَمكّن مناضلي(المقرن الشمالي) ، من الانقضاض على مؤخرته وسحقها ، وغنم الذخائر الفتاكة والمعدلات الحديثة التي استعاضوا بها عن الخنجر والدبوس والفأس · فطالعوا (ميشو) وصعقوه بمعداته في ذلك الصباح · ولم يُجدِ نفعا ما كان يُطلقه من اسهمٍ مضيئة طوالَ الليل المنصرم ، (٥٧)

وما كان بالمستطاع ان يتابع (ميشو) تقدمه ، وقد سُدت الطرقات بجثث الجند والخيول والبغال ، سدت كلها امامه ، اما هو فقد كان صنديدا فلم يتراجع · اصيب جوادُه تحته ، فاعتلى جوادًا آخر ، ثم اصيبَ فقدُم له الجند آخر ، ثم أُصيب هو ، فحمله الجندُ جريحا الى مصفحة ، نقلته لِحوران ومنها لبيروت فباريس ·

ومما حدّثه بعض مُدوّني هذه الواقعة ، وكانوا هم وآباؤهم في صميمها يقاتلون ، قالوا : لقد لجأت شرذمة الى قرية (كناكِر) ونزلت بيت مختارها ، استقبلهم ابنُه اليافعُ ببشاشة وصمود ، طالبا منهم تسليم السلاح ، ففعلوا ،

واطمأنوا ، ثم قدموا لسلطان فأبى ان يذيقهم اي اذى بل أُكرموا ، ولما كان وضع الجبل خطيرا جدا ، لا يجيز استقبال نُزلاء ، اضطر سلطان ان يفاوض السلطات المختصة ، ويبادلهم بالمعتقلين الدروز ٠

وحدّث شاهد عيان قال : كانوا ، مقاتلو الدروز ، **يتسلّقون الابراجَ ويقلبونَ المصفحاتِ بأكتافهم ، حتى لم ينجُ منها الا تلك التي نقلت ميشو** ٠ » وقال آخر : **ما كنا نسمع ازيزَ الكلةِ من فوهة المدفع ، حتى نرى رأسَ المدفعيّ يطير** ٠ » وآخر حدث بألم : « حضرنا بجانب الشهيد سليمان العقباني ، فشهدناه **يضرب الجنديَّ بسيفه فيشطرهُ شطرين ، او يطيرُ رأسه ، او تصحُ الضربةُ من الباط للخاصرة**٠» ونقل رابع : « حين نُقلت رُفاة الشهيد (شبلي مُقلّد) **وجدوا يده مجمدةً على مقبضِ سيفه المخضّب** ٠ » (٥٨)

ولن يفوتنا ان نذكر انه في كل معارك الجبل كان عددٌ وافر جدًا من الدروز اللبنانيين يقاتلون مُستميتين الى جانب اخوانهم ضد المستعمر الغاشم ٠

قال الجنرال اندريا الفرنسي : بدأت حملةُ المزرعة ليل ٢ آب ٩٢٥ وما اسفرت عن انسحابٍ بل عن هزيمةٍ ٠» وتابع : « فقد الجيشُ معداتٍ كثيرة وضخمة وقتلى ٠٠ ، **وكانت تلك الهزيمة ضربةً قاسية على نفوذنا واحترامنا** ٠» (٥٩)

وقال الدكتور شهَبندر احد زعماء سوريا المجاهدين :

« **جرت ملحمةٌ بالسلاح الابيض لم يجرِ مثلُها في البلاد منذ ذكر (الواقديّ) خبرَ الفتوحات** ٠» (٦٠)

وقال المؤرخ عبيد ص ١٣٧ : « لقد أغنتهم (الدروز) المعركةُ بالاسلحة النارية (٦١) ٠

وذكر الصحافي المجاهد منير الريس في الصفحة (١٧٧) من الكتاب الذهبي ، ان خسائر الدروز كانت تربو على المئتين،وخسائر الفرنسيين بضعة الاف ، **وقد ظلت جثثُ القتلى شهورًا مكدسة حتى جاء صدفة** ، سائحان المانيان ضابطان ، زارا الموقع وشاهدا **الجثث المتراكمة والطنكات والشاحنات المحطمة** ، وأعجبا ، وتعجّبا وقالا : « **امر ليس له مثيل في الثورات التي نشبت في العالم ضد الجيوش النظامية** ، ان **يظفرَ الثائرون بأسلحةٍ بدائية بمثل هذا الظفر** ٠ » (٦٢) وكان من نتائج هذه المعركة : رفعُ المعنويات وامتداد روح الثورة لسوريا

باجمعها . كما كان : ينبوعاً دافقا من الصور الشعرية والتحسُّسِ بالـروح الوطنية ، والسخط على المستعمر والاصرارِ على رفض وجوده . عَبَّرَ عن هذه الاحاسيس الكريمة معظم شعراء العرب ومؤرخيهم ولعل اقلامَ رجال الفكـر المنطلق ، كانت اصلبَ ازميلٍ ، تنقش فيه على صخرة الاستقلال ، في كِـلا البلدين : سوريا ولبنان ، بل في العالم العربي اجمع ، تنقشُ : « على جَماجم هؤلاء الشهداء ، يضعُ القدرُ الحق حجرَ الزاوية ، في صرحِ التحرر من الاستعبادِ والاستغلالِ للامةِ العربيةِ جمعاء ».

وهذا قَطرٌ من سحابٍ جادتْ به قريحةُ شعرائنا الموهوبين .

اثرَ هذه المعركة قال :

اميرُ الشعراء احمد شوقي :

« دمُ الثـوارِ تعرفـه فرنسـا
وتعلـمُ انـهُ نـورٌ وحـقّ

جـرى في ارضها ، فيه حيـاةٌ
كمُنهـلّ السمـاء وفيـه رزقٌ

... ولِلحريـةِ الحمـراء بـابٌ
بكـلِّ يـدٍ مضرَّجة يُـدقّ (٦٣)

وقال بطلُ الثورة ودماغُها المفكّر عادل أرسلان :

« رمَونـا بديناميتَ حتـى تقَلقلَتْ
جبالٌ على حورانَ كانت رواسيـا

... ودبّوا بأبـراجِ الحديد كأنها
سلاحفُ مـا تَمشيـنَ إلا تهادِيـا

دوارعُ يلقاهـا الفتـى وهو حاسرٌ
يُصادمها بالفأسِ جذلانَ حادِيـا »

وقال شاعر العراق الرصافي :

« فاستقتلوا في سبيـلِ الذودِ عن وطن
صينَتْ لهُ مِـن قديمٍ عندهـمْ ذِمَمُ

كانوا اشدَّ مضاءً من صوارمهم
فليس يثنيهمُ شانٍ اذا هجموا ٠»

وقال شاعرُ النيل حافظ ابراهيم :

« عافوا المذلةَ في الدنيا فعِندهم
عزُ الحياة وعزُ الموتِ سيانِ
لا يصبِرونَ على ضَيم يحاولهُ
باغٍ من الانسِ او طاغٍ من الجانِ » (٦٤)

وقال الاديبُ اللبناني المتحرّر مارون عبّود :

« ... فاذا سُئلتَ عن الدروز فقلْ هم
قومٌ لهمْ في كل حالٍ منطِقُ
... فاذا مشتْ بيضُ العمائم للوغى
حَسَمَ القضاءُ فكلّ شيخٍ فيلقُ
واذا تنمر طارىءٌ صاحوا به
أبشرْ ... فان السيف حيٌّ يرزقُ ...» (٦٥)

اما القلمُ المجلّي ، القلم العربي الحر ، مُسعّرُ لظى الايمان بمعتقده القومي ذودًا عن الحق العربي السليب ، ذلك القلم الذي نفذ بصدق تعبيره ، ولواعج نزواته الى اعماق الصدور المخلصة ، انه قلمُ الشاعر رشيد سليم الخوري (القروي) الذي كان شعره ناقوسًا مُجلجلا ومُبشرًا بغدٍ اسعدَ واكثر اشراقا على الامة جمعاء ترفعهم لِعليائه تضحياتُ ابطالهم،بمُواصلةِ النضال الشريف ٠

فلْنصغِ اليه في ما يُنشده اثرَ الموقعة الرهيبة الخالدة في المزرعة :

« .. فيا لكِ غارةً لو لم تذعها
اعادينا لكَذّبنا المذيعا
ويا لكَ اطرشًا لما دُعينا
لثارٍ كنتَ اسمعَنا جميعا

فتى الهيجاءِ ، لا تعتــبْ علينــا
وأَحسِنْ صُنعَنـا تُحسنْ صنيعــا

تمرَّستم بهــا ايــامَ كُنــا
نُمارسُ في سلاسِلِنــا الخضوعــا

.. الم يَلبسْ عِداكَ الطنكَ درعًــا
فسَلَّهمْ هل وقى لهمُ ضُلوعا ؟؟ (٦٦)

ولْنمعنْ اكثر الى قصيدته :

« .. لما شكونا « جوفنيل » الى الظُبى
فشكا الى جمعيةِ«القرُصانِ» (عصبة الامم)

صاحَ : المروءةُ يا فرنــجُ فليس لي
في صــدِ غــاراتِ الدروزِ يــدانِ

عهدي بهم في السلم حِملانًا .. فوا
رُعبــاهُ بعدهــمُ مــن الحملانِ !!

يَلقَــونَ متراليوزِنــا بِصدورهــمْ
ويُكافحونَ الطنكَ .. بالابدانِ » (٦٧)

أَرأينا اصدق من هذا التعبير ، الذي اكده الواقعُ واثبته القلم النزيه . ثم لِنسمعهُ مُتمثلا ذلك العِملاقَ سلطان ، على صهوةِ جواده غائرًا يأكله الحقــدُ على العدو المجتاح :

« ..ولئنْ نسيتُ فلستُ انسى بينهــم
رجــلَ الرجال وفارسَ الفرســانِ

وحُلاحلَ الحرب الذي يغشى الــوغى
ووراءَهُ نفــرُ مــن الفتيــانِ

يُفني الرجــالَ بأحــدبٍ ومُقــوَّمٍ
ضدينِ فــي اللبّــاتِ يلتقيــانِ

ويكــادُ يفترسُ العــدوَّ جــوادُهُ
فكأنــه اسـدُ علــى سِرحــانِ

فذُّ .. كفيتُ بــــهِ سؤالَ الناس مَنْ
تَعني ؟؟
وهل أعني سوى (سلطانِ) ؟! » (٦٨)

لم يدع شاعرُنا الكهلُ ايةَ سانحة تفوته ، في مغتربه البرازيل ، لقد طالع في الصحف ما يكتَب عن بلاده ،وما تتّسم بمعارك جبل الدروز فنظم قصيدةً القاها في احدى الحفلات يخاطب بها الشاعر(طُورس) الذي زار سوريا إبّان هــــذه المعارك ، مُراسلا صحفَ موطنِه البرازيل .

قال القــروي :

« حَدِّثْ فانـــك صادقٌ يـــا طورّسْ
مـــا اللامِسُ الرائـي كَمَن يتلمسُ

قلْ يا غريبَ الجِنسِ عنا ، مـــا ترى
حقًا ، فانَ الحـــقَّ لا يتجنَّسُ ..

... تلكَ الانوفُ الشمُ ليس يُذيلُهـــا
مـــن أعبُـــدِ المستغَالِ أنفُ أفطسُ

والضيغـــمُ العربـــيُّ ليس يروعُـه
عند الصِدام .. مُخَنَّثٌ متبرّسُ (منباريس)

وحسامُ سلطانٍ ، وهــل مــن سامـــعٍ
بحسامِ سلطانٍ .. ولا يتحمـسُ ؟؟

... ان تَجمدِ الانفـــاسُ عند لقائــه
فعلى مُهندهِ .. تسيلُ الانفُسُ ..» (٦٩)

يتخَيّل نفسَهُ ، من يقرأُ شعرَ القروي ، الزاخرَ بالحماسة وبالصور الصادقة انه يعشُ اوضاعَ الوطن ، ويخوض معاركَه التحررية ويسمعُ ويرى ، ويحسُ ويلمسُ : صوتَ المتفجرات ورائحة البارود ، وانقلابَ الطنك وقرعَ الصـوارم . وان الشاعر فوق ذلك يتحسَّسُ بثاقب مداركه ، ما كان يحوك المســتعمرُ مـن موامراتٍ وسِعايات لإفشال الثورة .

فلنُعدِ الاصغاءَ اليه :

... « فرنسةُ .. ليس في حورانَ لحمٌ
يَسدُّ طَـواكِ يـا أُم الضِبـاعِ

وهــل لاقيتِ فــي حــورانَ الا
مآسدَ .. خِلتهـا قبـلاً مراعـي ؟

طرقتِ ضِياعهَا قبلاً .. فشِمنـا
ضَيـاعَ الامـنِ في تلـكَ الضِيـاعِ

وكِــدتِ لأَهلهـا بالسيفِ طَـورًا
وطورًا بالسِعاية والخداع .. » (٧٠)

وهذا مقطعٌ من قصيدةٍ بليغة للمقدَّم اللبناني نُعمان ابو شقرا نظمها عام ٩٢٦ أبانَ ثورة الجبل وتنافرِ شبان لبنان للمشاركة في النضال ، وكان مُسندًا للشاعرِ حفظُ الامنِ في الشوف،في تلك الحِقبة ، قال :

« كَسرنـا شوكةَ الاتـراكِ كسـرا
وشيّدنـا (لإبراهيـمَ) قبـرا

بنومعـروف في سـود الليالـي
نِضالُهـمُ .. يُحيـلُ الليل فجـرا

مِنَ المستعمـرِ الباغـي .. فـرنسـا
اسـالوا في (لِجا) حـورانَ نهـرا

أبَوا إمـا أُقتتـالٌ .. او جـلاءٌ
يُطهِّـرُ ارضَهـم شِبـرا فشبـرا ...

نِضالهُمُ المجيـدُ فِـدا حِماهـمْ
على أسيافِهمْ .. نقشوه شِعرا » (٧١)

اما الشعرُ العامي ، فللدروز فيه كثيرٌ ، خاصةً شاعر الجبل الشيخ شبلـي الاطرش . وفي ارتداد المغاوير عن كل غارة ، كانت الاغاني الشعبية والحـداء يطبقان الفضاء . من تلك ، قولهم لدىعودتهم من معركة المزرعة :

« العـــزْ بظهـور المطايـا
والعمرْ عند اللـهْ وديعْ (وديعـة)

يـا حاضراً سوق المنايـا
عيبـاً علـى اللـي مـا يبيـع »

ولنا ان نوجز بعضَ ما كتبه ارباب القلم النزيه ، من اهل الفرنجة خاصةً في طبيعة الجبل وساكنيه ، قالوا :

« اذا سَمِعوا (الدروز) بسقوط احدهم في ساحة الوغى ، اثنـوا عليـه وحسدوه على سَعده ، وتمنى كلُ واحد لو اصاب حظه .» (٧٢)

« **إن نَسَكَ (الدرزي) اذابَ جسدَه ، وأَشاحَ عن دنياه ، وان جهلَ فهو رجل الزِناد والجناد** .» (٧٣) هذه شهادة فرنسي أصيل لِمن يكابرون .

« ان طبيعةَ البلاد . وخشونةَ المعيشة التي الفها « الدرزي » منـذ صغره ، واحاديث البطولـة وقصصِها ، كل ذلك يجعـل منـه محارباً وشجاعـا مُتهورا .» (٧٤)

« **يُوازي وحدَهُ (الدرزي) عشرينَ رجلاً** .» واضافت :

« يُعدّونَ (الدروز) من اكثر الناس عزةً واشجع رجال الحرب ، لا فـي سوريا ولبنان فحسب ، بل وفي الشرقِ كله . » (٧٥) شهادةُ امرأة اجنبيةايضا؟

معركة السويداء عن طريق المُسَيفِرة

كانت قد هجعت خواطرُ الدروز ، واطمأنوا للنصر المبين في (عين المزرعة) . اما المستعمرون ، فأخذوا يُعدون الجيش ، ويستقدمون من فرنسا الويةً وفيالـقَ لمحو هذه الوصمة من سجل تاريخهم . وكان القائدُ العام للحملة الرهيبة التي وصلت وتدربت ، وتلقت كل التوجيهات ، كان **الجنرال البطلُ « غملان »** علـى راسها ، وهو المشهود له بالحرب العالمية الاولى ؛ مخطط حربي كبير ، وشجـاع متفانٍ ، وصادقٌ ومستقيم . وكان **الجنرال اندريا** ، اقلَّ منه رتبةً في معركـة الجبلِ ، كان مُنضوياً تحت إمرته ، **فلندعْهُ يتحدث بنفسهِ عن معركة السويداء** . قـال :

« لقد تم تجمّع القوات في أزرع وبصرى في ١٩ ايلول ٩٢٥ وتعيّن موعد الهجوم في ٢٥ منه · تقدمت الحملة الى المُسيفرة ، واخــذت استحكاماتها ومتاريسها بين البيوت وخلف الجدران ، وحفروا خنادق هنا وهناك · في ليل ٢٠ ايلول سقط من الجبل الفا ثائر درزي باتجاهِ المعسكــر الفرنسي · وكانت معركة عنيفة لم نتزحزح فيها من استحكاماتنا ·» وتابع :

« كثيرًا ما كان المقاتلون الدروز يتركون قتلاهم في ساحة المعركة ، لكنهم **لا يتركون لهم جريحًا ابدًا** » قال هذا الكلام حرفيًا · (٧٦) ثم اردف : «» في ٢٢ ايلول اكملت الحملة تجمعَها واتّجهت الى السويدا · حمينا الحملة من جميع الجهات ، ولبثنا حذرينَ من هجومٍ مفاجيء رغم ان المنطقة مكشوفة · حصلت مناوشات خسرنا فيها بعض القتلى ، لكننا وصلنا السويدا · اذا هي خاوية ، فانقذنا الجنود من قلعتها وهم خمس مئة ، اما نساؤهم واطفالهم فكان جماعة الدروز قد **وافقوا على اطلاقهم بأمر من سلطان خوفا عليهم من الاذية ، مَحميّينَ حتى دمشق في ١٦ اذار سنة ٩٢٥ :**

في هذه الاثناء ، كانت دمشق بقلقٍ وهياج ، فأوجسَ غملان · وتريّث في زحفــه ·

اما المفوض السامي : الكونت (دي جوفنيل) فقد وجه الى الدروز منشورًا مُلخصه : ايها الدروز : لماذا تقاتلون ؟ انا إنما جئت لامنحَكم وحدكم الحقَ في انشاءِ دولتكم · مِن اجل مَن تحاربون ؟ ان فرنسا وحدها تستطيع ان تمنحكم القمحَ والماءَ والمدارسَ ، والحرية ـ المسؤول عما ستواجهون من كوارثَ ، هـو سلطان الاطرش · أُنذركم ، وغدًا سيكون اطفالُكم الحكَمَ بيني وبينكم ـ الوسيلةُ الوحيدة ، هي القاءُ السلاح ·

التوقيع : دي جوفنيل

اجاب سلطان بموافقة اعيان الدروز ولفيفٍ من الوطنيين السوريين : اننــا مُعتصمون بسلاحِنا حتى يتم لنا ما يلي :

١ ـ **الاعترافُ باستقلال المناطق السورية وقبولها في عصبة الامم ·**
٢ ـ **اعلانُ الوحدة السورية ·**
٣ ـ **عَقدُ معاهدةٍ مع فرنسا ·**

٤ ـ انسحابُ الجيوش الفرنسية من الاراضي السورية كافة ٠

٥ ـ عفوٌ عـام ٠

التوقيع : الشعب الدرزي ٢٨ شباط سنة ٩٢٦

عرف المفوضُ نوايا الدروز ، وبُعدَ مطامحهم ، واعياهُ امرُ استمالتهم وكَفّهم عن القتال ، محاولا بذل كل الجهود كيلا تُستانف المعارك ٠

وكان الجنرال غملان في قراراته ، مقتنعًا بأنهم (الدروز) عـلاوة علـى شجاعتهم فانهم واثقون من انهم **يقاتلون من اجل قضيةٍ وطنية ، تُهدّد نسلَهـم اذا هم اغضوا عنها** ٠ (٧٧)

وتابع الجنرالُ المؤلف :

« ان اشعالَ النار على التلال هي بمثابة دعوة للدروز ، الى حمل السـلاح والتجمع استعدادًا للمعارك ٠ وان اكثرَ ما يخافونه التطويق ، لكنهم حـذرون جدا وقلما يخطئون تقديرَ قوة الخصم ، وقلما يصادمونه مُجابهةً ، لان معداتهم بدائية ٠ ويتخذون من الليل فرصةً للراحة والاكل ، في معظم المواقف ٠» ثـم تابع : « في حلول مطلع الشتاء توقفت العمليات الحربية في الجبل ، لمعالجـة اوضاع سوريا حتى اذا ما بدا الربيع تعين يوم ٢٥ نيسان سنة ٩٢٦ موعـدا لانقضاض جيوشنا على العاصمة ٠ تقدمت الوحدات الى (المُسيفرة) وتابعـت في اليوم التالي ، حيث كانت الاصطدامات مستمرة والقتلى تسقط من الفئتين ٠ وعاود الجنرال مكملا : « في يوم ٢٥ نيسان تكاثف الضَباب فحجب عمـلَ الطائرات ، واخفى عنا تحركاتِ الدروز الذين اعدوا انفسهم للهجوم علينـا ٠ وتحت حُجُب الضباب أستطاع الثوار ان يُصلونا بنار بنادقهم ، من خنادق طبيعية مُمتدةٍ حيث نتّجه نحن ٠ كانت مفاجأة مؤسفة لنا ، ان تصعقنا مدافعهم عيار ٧٥ و ٦٥ التي غنموها منا ٠ حملتُنا تتقدم ببطءٍ وحذر ، ومدافعنا تمهّد لنـا السبيلَ الى السويداء ٠ (٧٨) راينا من بُرجِ المراقبة اشباحًا سـوداءَ تتقدم ، صوّبنا عليها نارَ الرشاشات ٠

بعد قليل وجدنا شرذمة من الثائرين تدخل بيننا ، حين فُقِد احـد القواد ، وتراجعت فرقته تحت وابلٍ من رصاصهم ٠» وما برح يتابع :

« **كان الدروز يتركون الصخورَ والمتاريس ويقفزون مُنقضّين على رجالنـا**

بالخناجر والسيوف . رأينا في هذه الساعة موقفًا مُدهشا :

« ابى الثوارُ ان يتراجعوا . مُنبَطِحينَ ارضًا **يَرشقوننا بالرصاص ، حتى مرّتْ فوقهمُ العرباتُ وسحقتْهُمْ** .» (٧٩) واكمل :

« وتابعت الحملة مَسيرتَها اذا ببعض الدروز ينقضّون على الميَمنة . **هاجموها** بشراسةٍ بالغة ، دون ان يستطيع الطيارون رؤيتهم بسبب كثافة الضباب . **ثم** اخذوا بالتجمع . كانت موقعة رهيبة ، غمرت القتلى ساحة المعركة .»

وقال المؤرخ بالحرف : « ان قوات القلب التي يشكلها اهالي السويداء **قاتلت** بضراوة ، **مُتسللةً الى الخطوط الفرنسية ، مُنتزعةً السلاحَ من ايدي الجنود** .» (٨٠) وانتهى هنا تصريح القائد الفرنسي المقاتل .

وقال المؤرخ عبيد : كانت اهازيجُ شبيبة بني معروف داويةً وكانت الانوار الكشافة تسطع من العدو ، والاسلاك الشائكة تحيط به ، وهو خلف استحكامات حصينة ، وبمعدات زاخرة وثقيلة ، وطائرات قاصفة تملأ الفضاء . وفي الصباح كانت معركة صاعقة دامت ، ثلاث ساعات وبلغت ٢٧ غارة وكانت المياه تتدفق بين الطرفين ، ولا سبيل لظامىء اليهاولو الُهبةُ العطش . في المساء وردت مساعدات للعدو ، استطاع بها ان يتابع مسيرته . وقد فقد الدروز يومذاك (٢٧٠) شهيدًا ، فيهم ابرز القادة . (٨١)

وصف هذه المعركةَ الصحافيُّ الذي قصد جبل الدروز ابّان ثورته الاستاذ السوري منير الريّس ، قائلا :

« كان زحفُ الجيش مباغتًا للسويدا ، وكان التلاحمُ والقصف والتراشق مستمرا حتى **لقد اسقط الدروز خمسينَ طائرةً في المعارك كلها** ، ذكر الكتاب الذهبي الفرنسي منها (٢٦) طائرة والحقيقة هي ضعف ذلك . سبب فداحة خسائر العدو الضباب الكثيف احيانا وموقع اللجاه ، وجَسارةُ الرُماةِ الدروز ، ومهارتُهم في التصويب ، **فهم يَنبطحونَ على سطوحِ المنازلِ او في العَراءِ وكثيرًا ما يُصيبون فتهوي الطائرةُ تِلوَ الطائرة** ، حتى في داخل القرى التي كانت تقصِفها .»

وتابع الصحافي : « كانت اسرابُ الطائرات المشتركة في القتال تُغطي السماء وأرتالٌ من الدبابات الثقيلة ، نراها تتسلقُ المرتفعات وتتجاوز الصخور ، وتقفز

فوق الخنادق وتحصد كل ما تراه في طريقها · وكان انسحابُ القائد غملان من السويدا تنفيذًا لِخطةٍ رسمها لنفسه والغاية منها : زيادة استعـداداته لاحتلال الجبل اجمع ·

لبث حتى الثاني من تشرين الاول حيث ارتدّ بجيش يقارب العشرين الفا · فيه الفيالق والالوية والخيالة والمدفعية ، والسيارات الرشاشة وقوافل العجـــلات وذخائر وعدد مختلفة · هذا ما حصاه الكتاب الذهبي لجيوش الشرق الفرنسية، نقله عنه بتفصيلٍ وبتسمية الفيالقِ والقادةِ واحدًا واحدا،نقله بهذه الدِقة منيـرْ الريس:ص ٢٢٤ الى ص ٢٥٣ ·

وتابع : في اليوم الثالث من تشرين الاول زحف الجيش الى (عِرِي) حيـن كان الدروز في انهماكٍ بنقل اطفالهم ونسائهم وغذائهم ، الى القرى البعيدة عن العــراك ·

سعى سلطان بالحاج مَريرٍ لمتابعةِ القتال ، فلم يُفلحْ ، لان الاغراءاتِ أعمــت البصائــر ، وشنّجت اعصابَ الضمير ، وقد كان المفوضــ الســامــي المعيــّا وداهية في استقطابِ ضعفاءِ الايمان بالوطنية ·

لكن غملانَ ما طال مكوثُه في السويداء حتى رجع عنها لِمشاغلَ في قلب دمشقَ وحِمــاه ·

اما المؤرخ الفرنسي ب·ج دوتي الذي حضر المعارك شخصيًا فقد اوضــــح تَعقيبًا على ما سبق :

« عادت رشاشاتُنا تهدر وبنادقُنا تدوي ، الا ان تلك الكتلـــةَ البشريـــة (الثائرين) كانت تتقدمُ صوبَنا في هجوم ضارٍ مُستميت ، وهم يتصارخون في عزيفٍ كعزيفِ الجنّ : اللهُ اكبر !! الله اكبر !! وكثيرًا ما كانوا يُهاجموننا فـي المتاريس ، رغم نيراننا المتواصلة · وجدنا شيخًا يهاجمُ متاريسنا وهو اعزل ، مُسجّى هناك ، واصابعُه مُتشبثة في الزاويةِ الداخليةِ من الحاجز ، يتطايرُ رَذاذٌ من دماغ جمجمتِهِ · وقد ادهشنا انْ نَعدّ في تلك الجثةِ ثلاثين اصابة » · (٨٢)

واستمر دوتي يقول في المرجع نفسه :

« مرت بي ساعاتٌ وكأنني في حلم ·· انقضَّ فوق مِتراسي عشرةٌ من الدروز كانما هم ارواحٌ سحرية ·· وصلوا اسلاكَنا الشائكةَ وما فتئوا يتقدمون تحـت وابلٍ من الرصاص ، حتى سقطوا كلهم قتلى · » يساعدُ اولئك إيمانُهم بان القدَر كائنٌ لا يمحى ·

الديمقراطية الاصيلة

وما يدعو الى الانتباه والاعجاب ، ان في هذه البيئة المتخلفة علمياً ديمقراطية "عريقة" ، « فالثائرُ او المجاهد منهم لا يستطيع ان يتصورَ نفسه جنديًا تحت قيادة سلطانٍ ـ على ما لهذا من الاحترام والحب في نفوسهم ـ لكنه يتصور نفسه رفيقًا لِسلطان ، او زميلاً له في المعركة ». (٨٣)

هذه الديمقراطية في الدروز نابعةٌ من صميم مُعتقدهم واصيلة فيهم . كان الدعاةُ لمسلكهم ، مثالاً للديمقراطية الصحيحة ، في احرج الاحوال ، كما كانت معاركُهم في كل زمان ومكان ، تفرضُها عليهم المصلحةُ العامة : من حفظٍ للذمار وتعشقٍ للحرية ، وصيانةٍ للشرف والحق . فالداعي لكل اقتتالٍ هو الصالحُ العامُ لا الخاص .

وطال هجودُ الجبل بعض الوقت ، لولا مناوشاتٌ هنا وهناك ، حتى كان اليوم الرابع من تشرين الاول سنة ٩٢٦ موعدًا لِبدءِ الثورة في (حماه) . وكان نشاط ديبلوماسي للتفاوض والمصالحة ، وكانت شروط من هؤلاء وشروط من اولئك . وكان تسليمٌ من مُعظم القرى ، غير ان سلطان مع جمهرةٍ غفيرة استمروا يناوئون وينقضّون حيث تسنح الوثبة .

وقد وجَّهَ سلطانُ ، في هذه الآونة ، هذا النداءَ الى دروز الجبل عقب احتلال السويداء :

الى ابناء عمومتنا الصناديد .

دخل العدوُ السويداءَ ونهب ودمَّر ما تعرفونه ، وانه سَيصيبُكم ما اصاب الأرمنَ ، اذا لم تستجيبوا للثورة .. دمكمُ الدرزي يناديكم لنجدةِ الوطن . قاتِلوا الى جانب اخوانكم .. وامنعوهم من الدخول الى القرى .

هبّوا جميعًا لِنجدةِ شرفكم ودينكم . (٨٤)

التوقيع سلطان

وكان قد سبق لِسلطان ان بعث منشورًا الى صحف القاهرة ، في العام الفائت لهذا ، المصادف بمنتصف آب سنة ٩٢٥ جاء فيه :

ايها السوريون : لقد أثبتت التجارب ان الحق يؤخذ ولا يُعطى ··· لِنطلبِ الموت توهب لنا الحياة ·· الى السلاح ايها الوطنيون ، تحقيقا لاماني البلاد المقدسة ، وتأييدا لسيادة الشعب وحرية الامة ·· الى السلاح ·· لِنغسل اهانة الامة بدمِ النجدة والبطولة ··· **حربُنا مقدسةٌ ومطاليبنا هي :**

وحدةُ البلاد السورية ـ قيامُ حكومة شعبية ـ جلاءُ القوات المحتلة ـ وتاييدُ مبدأ الثورة الفرنسية : حرية ومساواة وعدالة ·· الى السلاح ··

قائد جيوش الثورة السورية العام ·

سلطان الاطرش

معارك إقليم البلاّن

كان رايُ قادة الثورة السورية على اختلاف مذاهبهم ، ان انتقالَ الثورة الى مناطق مختلفة ، يُخفف من الضغط على الجبل ، فكانت معارك الغوطة وحماه ، وكانت معارك وادي التيم · في هذه الاخيرة نزلت كارثةٌ بالجيش الفرنسي اذ أبيدتِ الحملة جمعاء وعددها ثلاثماية جندي غنم المناضلون كل معداتها · يطلق على المعركة اسم : (الفالوج) وموقعها بين راشيا والمصنع (طريق الشام) ·

وجرت في (مجدل شمس) شرقي جبل الشيخ ، مواقعُ دامية حامية ، ثبتت فيها شبيبة المجدل ، وناضلت اشد نضال عن بلدتها ، وقد احيطت بالمفارز ، ولم تعيا ، بل ثبتت وكافحت بعناد · وكانت هنالك معركة (غجر) ثم (وادي العسل) حيث تلاصقَ الفريقان اجسادًا باجساد ، حسبَ تعبيرِ الكتاب الذهبي الفرنسي ، تاركين من ضحايا المجاهدين (٢٠٤) قتلى ، حين فكّ اخوانُهم عنهمُ الحصارَ ، والتحقوا بجيش سلطان لمتابعة الجهاد ·

اما مصيرُ البلدة فقد حدّثنا عنه أليس پولو ص ٢٤٦ فقالت :

« قال شاهد عيان عن مجدل شمس : ان المنطقة التي تقع فيها هذه البلدة قد اصبحت **مقبرةً جماعية للنساء والاطفال والشيوخ ··** » بعد تتابع قصف الطائرات ·

هذا هو التمدن الذي اعتمدته فرنسا في سوريا ·

وهذا شاهد من اهله : « شعر الفرنسيون بان الطيـــران هو سلاحهــمُ الامضى ٠ » (٨٥)

« فداوموا إلقاءَ القنابل يوميًا على القرى » ٠ (٨٦)

« حيث تحفر القنبلة منها اكثر من متر بسعة مضاعفة» عن عزّ الدين ص١١٨٠

وقال عبيد ص ٢٢٥ : « استعملت القيادة الفرنسية اشد وسائل العنف ٠٠ اخذت الطائع بجريرة العاصي » (٨٧)

اذا تبصَّر المحققُ النزيه بين هذا السلاح الوحشي الذي اتخـذه المستعمـرُ دارئا ، لِتمكينِ استعماره ، واطلاق سراح مخالبه للنهشِ والهصر ، وبين ذلـك السلاحِ العربي اجسادٍ تقلب المصفحات ، وعمائمَ تسدُ فوهاتِ المدافع ، وصدور تتلقى هامرَ الرصاص ، يجدْ ذلك المحققُ اين تكمنُ البطولة الحـــق ، والانسانيةُ الصحيحة ٠ وقد ذهل لمواقع الدروز القائد الفرنسي الذي خاض معظمها ورأى بأم العين كيف ان « **هنا عربات محطمة الدواليب ، وهناك شاحنات محروقة الا هياكلها ، ورشاشات معطلة ، وعظام مبعثرة فوق التراب ، ومومياء الاجســاد البشرية ملقاة في كل مكان اكداسا ٠ انها شهادة ظاهرة على المصيبة التـــي حلت بنا ٠** » (٨٨)

اين تتلاقى الانسانية بين قوم يُسقطون القنابـــل على الآمنين والاطفـــال والنساء ٠ وقومٍ هم ينبوعُ المكرمات ، ولقد شهدَ على عظم مناقبهــم الجنرال اندريا نفسُه الذي نجا من رصاصهم فحدثنا قائلا :

« اضطر طيَّارانِ فرنسيان ان يهبطا في ارض العدو ، لِعطلٍ اصاب المحـــرك وبناء لقوانين الضيافة، لم يطلهما اي مكروه، واكثر من ذلك ،فقد طلبهما سلطان فتمنع المضيف الجبلي تسليمهما باصرار ، وبقيا في منزله مكرمين محروسيــن مدة شهرين ، حيث جرى تبادلهما باسرى دروز » ٠ واضاف الجنرال : « لقاءَ هذا العمل ، توقف الطيارون عن قصف هذه القرية اعترافاً بالجميل ٠» (٨٩)

لقد اعترف المستعمرُ بجميل هذه القرية فلم يقصفها ، اما القرى الاخرى فلم تسعد بسقوط طيارين آخرين ، لِينحرف عنها التدمير ، وبعثـــرةُ اشلاء النساء والاطفال ٠ انه لَمنطق سليم ، ومدنية عريقة !!

معاركُ وادي التَيم

ولنعدْ الى غربي جبل الشيخ ، فان المناضلين هناك ، بعد توزيع قوات الثورة الضاربة ، كان هدفهُم الاولُ : الاستيلاءَ على قلعة راشيا الحصينة والعامرة بالجنود واهليهم · تقدم المناضلون خلال المنازل ، وفتحوا ثغرات تشرف على القلعة المحاطة بالاسلاك الشائكة ، والتي تطلُ من ثقوب جدرانها فوهاتُ الرشاشات ، من كل جانب · اخذ الشبان يتقدمون والجنود تلقي القنابل اليدوية ، والمدفع الهاون يدوي والرشاش متواصل الطلقات · سقط رهطٌ من اولئك المغاوير حول القلعة وبين الشريط الشائك ، لكنهم تمكنوا من اقتلاع ذلك الشريط وجاؤوا بسلّمين شدوهما معا ، **تحت هذا الوابل المنهمر ، وصعد احد المناضلين ، وتبعه آخر ، وثالث ، وكانوا يتساقطون قتلى ، وكانوا لا ينثنون عن الصعود** ، حتى وصل احدهم الى اعلى القلعة ، وبادر الجند بقنبلة يدوية ، فثانية فثالثة وقد انفجرت كلها ، فخلا المكانُ وتلاحقت الشبان اجتياحًا للقلعة ، فدبّ الرعب في قلوب الجنود المحاصَرين وتجمعوا في الاقبية ·

كانت في هذه الاثناء قد وصلت الطائرات ، فقصفت المهاجمين عن جانبي القلعة ، والقتْ منشورا مفاده : النجدة على الطريق فتشبثوا في حصونكم يا جنود ·

روى هذه الواقعة ، الكتاب الذهبي الفرنسي ونوّه بتفاني المناضلين المتوثبين (٩٠) كان هذا في ٢١ و ٢٢ تشرين الثاني سنة ٩٢٦ ·

على اثر هذه المعركة ، زحفَ رَكبُ القاتلين باتجاه مرجعيون ، واذا بِرهط من رجال قرية (كوكبا) يَدعون مُلحين ، احدَ قادة الرَكب (حمزه الدرويش) وجماعتَه على الغداء ، لبّى حمزةُ وبعض الشبان · وبينما هم على الطريق اذا بالرصاص يفاجئهم ويصرع ثلاثة منهم فصرخ فيهم حمزة : نحن محرّرون لا غازون ، لا تخافوا ·· فما ارتدعوا ، وحين سمع الثائرون ازيزَ الرصاص ، ادركوا ان الدعوةَ انما هي خديعة ، اوحى بها المستعمرُ لأعوانه ، فانقلبت الوليمةُ مجزرةً ، وتشتت الغادرون · ودوت في الانحاء ابواق التعصب الطائفي ، بقصد التفرقة ، وتشويه مضمون الثورة ، في حين ان النساء والصبية لم يتعرضوا لسوءٍ قط ، رغم هذا التحدي الجبان ، الذي سمّم نفسيّة نفرٍ قليل من القاتلين ضعيفِي الايمان بدعوة ثورتهم ·

الم نسمع سلطان ، القائد العام للثورة ، يُصرّح سابقا في مطلع انتفاضته :
« يا بَني وطني : ليس لكم على اختلاف المذاهب والفئات ، الا عدوٌ واحد هو الاستعمار ، فانفروا الى انقاذِ البلاد من اوضاعها السيئة ، وارفعوا علَم الاتحاد والتضامن والتضحية ... حركتُنا مقدسة ، غرضُها المطالبة بالحرية .. والاستقلال .. فليَكنِ اتحادُنا وثيقاً ...»

التوقيع : سلطان (٩١)

مطالب سلطان وصداها

هذا هو المبدأ المقدسُ الذي من اجله سفك الدروز والسوريون قوافلَ من الشهداء . وعلى هذا الهدف الشريف ، صوب المستعمرُ الفرنسي قذائفه ، وقنابله ، وصوب ، واحسن تصويب ، ألسنةَ التعصب والتفرقة وتسميم الجو الوطني ، بِمَباخِرِ دعاياته المُغرضة الكاذبة ،لِشلِ الحركة الشعبية الوطنية ، وتفريق الصفوف ، وعدم المتعة بثمرة الحرية ونشوة الاستقلال .

ولم تكن اهدافُ سلطان في بدءِ الثورة غيرَها في مُنتصفها ونهايتها ، كانت هيَ هيَ في كل الظروف ، وكان صوته الداوي يردد دائما :

« ١ ـ مواصلةُ الحرب حتى تنال سوريا (لا الجبل وحده) امانيها وحقوقها المشروعة .

٢ ـ إصرارٌ على الاستقلال التام الناجز وتشكيلُ حكومة وطنية سورية .

هل جاء هذا التأكيدُ على استقلال سوريا ، بهذا الاصرار والوضوح الا من سلطان الاطرش . أما كان في كل رسائله ومنشوراته **يؤكدُ على الوحدة الوطنية ويرفضُ اي حلٍ اقليمي ؟؟ » (٩٢)**

كانت تلك الوقفة الجريئة في وجه المفوض السامي دي جوفنيل في اول كانون اول سنة ٩٢٥ وكانت هي نفسها المطالب التي تقررت في المؤتمر (بشِقّه) احدى قرى الجبل في آب سنة ٩٢٦ . وكانت هي نفسها المطالب والنضالات البطولية التي انتزعت من المستعمر فريسته ، ومهدت لمجلس الامة السوري المتحد ، ان يلتئم في قاعةٍ واحدة ، ويُنصتَ الى تصريح **سلطان الاطرش وتنازلِه عن جميع امتيازات دولة جبل الدروز** ـ تلك الدُويلة التي غرّر المستعمرون بها مُتلقفي الزعامات .

هذا التنازل النبيل ألهبَ مشاعر **الاستاذ الكبير فارس الخوري ، رئيسِ مجلس الامة السوري يومذاك** ، فصفّق له بحرارةٍ وصفق الجميعُ بعده واعقبَ التصفيق الداوي بكلامه المأثور : « **ان جبل الدروز هذا ، الذي أطعمَ لبنان وسوريا في الحرب العالمية الاولى وتنازل** اليوم **عن جميع امتيازاته ، هو جدير في لقب : (جبل العرب) لانه للعرب جميعًا** · » (٩٣)

ومَن غيرُ سلطان وجماعة سلطان ، دوى صدى اهازيجهم الحربية عبرَ البحار ؟ في عهد الاستعمار الفرنسي ، وظل يدوي حتى دفع احزابَ اليسار في العالم ، وفي فرنسا خاصةً ، وفي مجلس امّتها بالذات لتقول :

« نطالبُ بالجلاء العسكري ، وبِمنحِ سوريا استقلالها ·· إنما النهّابونَ هم الذين ليسوا في وطنهم (يعني جيوشهم) (٩٤) ·

وقالت (اليس بوللو) في:دمشقُ تحتَ القنابل ص ٢٦٠ :

« أَلا يحقُ لي بان أُشير الى الاخطاءِ التي تحطّ من قدر بلادي ، وتلطّخُ شرفها ؟» ·

وقالت جريدة البيان في تاريخ ١٧ شباط سنة ٩٥١ : **ان البطولة الدرزية في الثورة السورية كانت من الاسبابِ المباشرة لأعترافِ فرنسا بقسمٍ وافر من الحقوق لسوريا ولبنان وبإعلانِ الحكم الجمهوري في الدولتين : التوقيع (عمر فرّوخ)** ·

ان سحائبَ الدماء ، وأكماتِ الجماجم التي قدمها بنو معروف ، في معاركهم البطولية ، بالجبلَين : لبنان وسوريا معا ، هي التي تجمعتْ لِتنقضّ صواعقَ على ضمائرِ ساسةِ الغرب ، وهي التي الهمتْ عن طيبة وعن صدقٍ هؤلاء الكتّاب المجردين ، لِيجهروا في بيناتهم بتلك التصريحات الجريئة · ولولا هذه الصواعقُ وتلك الاقلام ، لما كانت قد تنازلت ذُوبانُ الغربِ عن فرائسِها ، ولا كانت تسعّرت النخوةُ بصدرِ الوطني الخطير فارس الخوري ، مارجِ الاباءِ اليعربيّ،بذاك العنفِ والعنفوان ·

هل جاء الاطراءُ للدروز ، نتيجةً لصمودِهم وشجاعتهم وحسب ، ام هناك مناقبُ أعمقُ وأنبل ؟؟

دلّت الاحداثُ على ان هذا الشعب له من تحمُّلِ الاعباء ، والصبرِ على المحن،

وكَبتِ النفس عن كل هوى رخيصٍ ما يدعو الى الفخار · **قال ابو راشد ، المرجع نفسه :**

« ان المقاتل الدرزي ، اذا جُرح في المعمعة ، وليس من طبيب غير تجلّده ، كان يربط الجرحَ بكوفيته ، او بمنديل رفيقه ، ويتابع النضالَ ، وكان اذا سعد الجريح ، وخمدت نار الموقعة ، **تُحشى جراحه بالبارود ، او يسكبُ الدبسُ والقطرانُ الساخن في جرحه لتعقيمه ، ولايلبث المقاتل ان يكمل مسيرة الدفاع»** ليبقى مساهما في بناء ركائز الاستقلال ·

هوذا المقاتلُ الدرزي في منفاه ، مشردًا تحت الشمس اللاذعة ، معرضاللمرض والجوع والعطش والعراء ، هل تخاذل واستذلّ ، ام تابع **المسيرة المشرفة مع جماهير شعبه** بالصبية والعجائز ؟؟ لنتامله :

في وادي التيم

حين انتقل مركزُ المقاومة من المقرن الجنوبي في الجبل ، الى واحة الازرق ، على تخوم الاردن بدأ الدروز يشنون الهجماتِ على المحتل الغاصب · من المعارك الناجحة (معركة أيصا) تكبد فيها العدو خسائر كثيرة بالارواح · على اثرها جهد الفرنسيون في ان يتفاوضوا مع الانكليز فأفلحوا ، وانفتحتْ لأول مرة في هذه الاحداث ، **أشداقُ الاسد البريطاني وبرزت نيوبه الدامية · صادرَ الخيولَ وأحرقَ البنادقَ ، وحظرَ من دخول الازرق على كل ثائر ·** (٩٥) ان اغلى اماني هذا الشعب المشرد ، الذي كانت في نظره ، احلكُ ليالي الصراع ابهجَها لنفسه ، واكثر غارات الطائرات ، حمائم ترف فوق رأسه ، وانفـذ الرشاشات بشائر لجسده وروحه ، **أغلى امانيه كانت : دعوة لِحرية كاملة تشمل الوطنَ العربي اجمع · فلا احكام الادارة العرفية الانكليزية ، ولا فصائلهم وطائراتهم المنذرة بالويل ، ولا حريق الخيام وقطع الماء قطعًا ولا قضم الاعشاب زادًا · كل هذه اللاآت كانت غمائمَ ربيعٍ** في محجرِ المجاهدين الصامدين ، تُبشّرهم بصيفٍ خيّرٍ معطاء ، من ثماره : **التحررُ والاستقلال** · انه الصبر ، والجلدُ على المكارهِ والمخاطر وجدّية القتال ، ذلك هو العلاجُ الشافي من سرطان الاستعمار ، ولا علاجَ سـواه ·

وما أمجد الشعراء الذين عاشوا هذه المأساة ، او تصوروها فانبجس من صدورهم العامرة نُبلا ومشاعر ، قصائد حية صادقة ، نورد منها ما المحَ اليه احمد شوقي :

وما كــان الـدروزُ قبيــلَ شرٍ
وان أُخذوا بما لـم يستحِقــوا

ولكنْ ·· ذادةٌ وقِـراةُ ضيــفٍ
كَينبوعِ الصفا ·· خشنوا ورقـوا

وامين ناصر الديـن :

« فخـارًا حُماةَ المجد ان جهادكم
لَخيـرُ جهادٍ عـزّ فيـه قبيــلُ

صبرتمْ الى ان أصبحَ الصبرُ سُبةً
فثُرتم ·· ومــا في الثائرين نكولُ »

والشاعر القـــروي :

« فتــى حـورانَ ، لا لاقيتَ ضُـرا
لانتَ احـقُ أهــلِ الشام فخـرا

لئِن لـم يؤتِكَ الرحمــانُ نصرا
فحسبُـك ان غضبتَ ومتَّ حُـرا

ولـــم تسلسْ لِقيـدٍ او قيـاد »

واستطاع القرويّ الجليل ان يجعلنا نتلمس فلذاتِ فؤاده ، ونحسُ شراراتِ جوارحه تتصاعد وتنبعث في هذه الابيات الرائعة لسلطان :

« ايهـا المبْعـدُ المـزَّودُ عـــزا
ايــن للمترفيــن فضلــةُ زادِكْ

يـا شريـدًا عـن البـلاد طريـدًا
انت في كل معبــدٍ مــن بـلادكْ

كـلُّ مــا فـي اقلامنـا من مضـاءٍ
مُستَمَدٌ مــن مُرهفــاتِ حِـدادكْ

كل سبق في شعرنـا ، وانتصـار
هو مــن مُلهمــاتِ خيـلِ طِرادكْ

... ، كل ما في صدورنا من لهيب

هو إضرامُ شعلةٍ من زِنادك

كل ما في هُتافنا من دويّ

هو ترجيعُ نَبَضةٍ من فؤادك

كل ما في آثارنا من خلود

هو تاريخ ساعةٍ من جهادك

كل امجادِنا بَناتُك - يا مَن

قد أضفتَ المنفى .. الى أمجادك

ايها المُنجدُ المحاويجَ .. عارٌ

ان نُصمَّ الآذانَ عن إنجادك

لو فرشنا لكَ الجفونَ مِهادًا

وجعلنا الاهدابَ حشوَ وِسادك

ما جزيناك ساعةً من ليالٍ

بتّ عنا .. على حِراب سُهادك

كلّ حرٍ فِداك يا فاديَ الشام

واولادهُ فدى اولادك

وقال عادلُ أرسلان رائدُ الثورة المخطّط ، والمناضلُ الابيّ المَهيب ، الذي اسعدَنا بشقائه في القفر ، في قصيدةٍ تَندى احاسيسَ ورجولةً منها :

« أبى الحرُّ وابنُ الحر نفسًا ومحتدًا

بلادًا يَرى الاحرارَ فيها مواليا

حواجزُ عاف المرءُ فيها مُقامَه

وفضّلَ مختارًا عليها .. البواديا

... اقولُ لمَن يبلو لدى الخطبِ .. صبرَنا

ترى الصبرَ فينا .. شيمةً وتواصِيا

اذا الوطنُ المحبوبُ فازَ بحقّهِ

وجدنا المنايا في هواهُ .. تعازِيا ..»

ومن قصيدة ثانية لهُ ، صور فيها طبيعةَ النَبك بِجفافها وخشونةِ عيشها ، كما المعَ الى عنفوانِ عشيرته وتجلدِهم على مضّ المعاش في سبيل المُثل العُليا · قال :

« يا ساهرًا في النَبك ·· ايـن الأُلى
انت من الشوقِ اليهـــم قريـــح

في مَهمهٍ قفرٍ ·· كـــأنَ السمـــا
لم تروهِ بالقطـرِ من عهد نـــوح

··· وعصبةٍ عَرباء فـــوق الثرى
لكنهـــا مـــن مجدِها في صـروح

أخرسهـــا الصبــرُ ·· ومـــن حقهـــا
من طـولِ ما عذّبهـا ·· ان تَصيـــح

كـــلُّ رغيـــفٍ حولهُ تِسعـــةٌ
كأنمـا صلّى عليــه المسيح ··· »

وسلطانُ ·· ذلك المغوارُ المتقشف ، كانت تهزّ دوحةَ عنفوانه نفحةُ الرافة ، فينتفض لتنسّمها بملء صدره · وهذا هو ، حين وقف امامه احدُ الخونة محكومًا بالاعدام ، وتحسّسَ وضعَه ، طلب من المحكمة العليا اعادةَ النظــر بأمــره ، والاكتفاءَ بقطع ساعدِه الايسرِ (لا الأيمن) ·

وهذه رسالة له لابن عمّه حسن تنمّ عن جزيل اريحيته قال :

« علمتُ ان دروز الاقليم (اقليم البلاّن شرقي جبل الشيخ) بحريمهم وعيالهم هاجروا بمقدار عشرة الاف نسمة ، مُعرضين للبرد والجوع ·· الامل تعريف الاجاويد ··· الوحى !! **الوحى !! يا اهل المروءة والناموس ، وفكّوا الضيق عن هؤلاءِ التعساء · التوقيع :** **سلطان** ٢٦ رمضان سنة ١٣٤٤ ·

كان الجواب السريع : « **العمومُ فزعتْ بالمعداتِ اللازمة** » · (٩٦)

التوقيع : **حسن الاطرش**

وكانت شذراتُ لاهبة من اقوال هذا القائد الصامد ، نقتطفُ القليلَ الموجـز منها :

« **لِنغسلْ اهانةَ الامة بدم النجدة والبطولة ‥ اصبروا في القتال فالله مع الصابرين ‥· يا اهلَ النخوة : وحّدوا مساعيكم وتعاقدوا بقلوبكم وتقلدوا سلاحكم** ‥· يجب على الثوار صيانةُ الاموال والنفوس ورعايةُ المصالح والاعتناءُ بالطفولة ، واحترامُ الامهات ، **والمحافظةُ على الاقليات** ، ومن عصى يحاكمُ عسكريًا (٩٧) ·

كانت كلُ مواقف سلطان توحي الانفةَ وضبط النفس والفداء ومنها جوابه المفحَم ، للقائد المستعمر :

« **اننا نردّ كلمة العفو ، ردًا مُطلقا · من يطلب العدل والانصاف اكبر من ان يُمنح كلمة : العفو** · اننا احرصُ الناس على السلم ‥· ولكن طفحَ الكيل ، وغدت العهودُ قُصاصاتٍ من الورق ، تلقى بين الأرجل » · (٩٨)

ومن حنكته السياسية ، ومعرفته الكاملة لمضمون شِرعة حقوق الانسان ، فقد تقدم سلطان ، اثر الغارات المدمرة والمهلكة لطائرات العدو ، تقدم ببرقيةٍ الى الدول الكبرى ، جاء فيها :

« ان القوات الفرنسية التي تُساق اليوم لِخراب بلادنا ـ ضاربةٌ بشراسة لا مثيل لها في التاريخ ، قُرانا بالاطفال والنساء والشيوخ ـ ‥ تدفعُنا للذود عن كياننا وشرفنا · نحمّل رجالَ فرنسا وحدَهم مسؤوليةَ سفكِ الدماء البريئة ‥· ونستنجدكم لبطلان رِقّ الشعوب » ·

التاريخ ٥ ايلول سنة ٩٢٦

التوقيع : سلطان الاطرش · (٩٩)

وفي ١٧ كانون الاول سنة ٩٢٦ كان بونسو (المفوض السامي الفرنسي) يُلقي الاضواء للمباشرة باعطاء الوحدة لسوريا ، اضطرارًا لا اختيارا ·

وبعد العفو عن سلطان وجماعته عاد الى الجبل ، وكان له مهرجانٌ وحَشدٌ كبير ، تقاطرَ اليه معشرُ الدروز واعيانُ سوريا من اقصى بلدانهم · وقد القى الاستاذُ عارف ابو شقرا في الجماهير قصيدةً نقتطف منها :

أرأيـتَ كيـف نـزا الحديـدُ ولانـا
وتعاظمَ الخطـبُ الجسيـمُ وهانـا ؟!

·· وتوطَّنَ الاسدُ الهصورُ عرينَهُ
فارتدّ ·· مرهوبَ الجنابِ ·· حمانا !

··· سلطانُ: لستَ تكونُ اعظمَ حُرمةً
لو توّجوكَ على الحمى سُلطانا

ان البطولةَ في جَلال مُقامِها
تَضَعُ الملوكَ وتَزدَري التيجانا

·· فَخُذِ الطريقَ على الذين تعوّدوا
ان يَستغلوا الدينَ والأوطانا

فَشِعارُنا : وطنُ العروبةِ وحدَهُ
وعليهِ مَلقانا معًا ·· إخوانا (١٠٠)

أُكان هذا المجرى الدافقُ كرامةً واباءً ،وطماً نينةً ورخاءً ، الا تجمّعَ قطراتِ الدم الزكي الذي تفجّر سخيًا على تربة الوطن ، من جِراحاتِ هؤلاء المناضلين المذاويد ؟؟

ألا بوركَ بالاستقلالِ وبجبلِ العربِ الأنوفِ بشرًا ومناقبَ !!

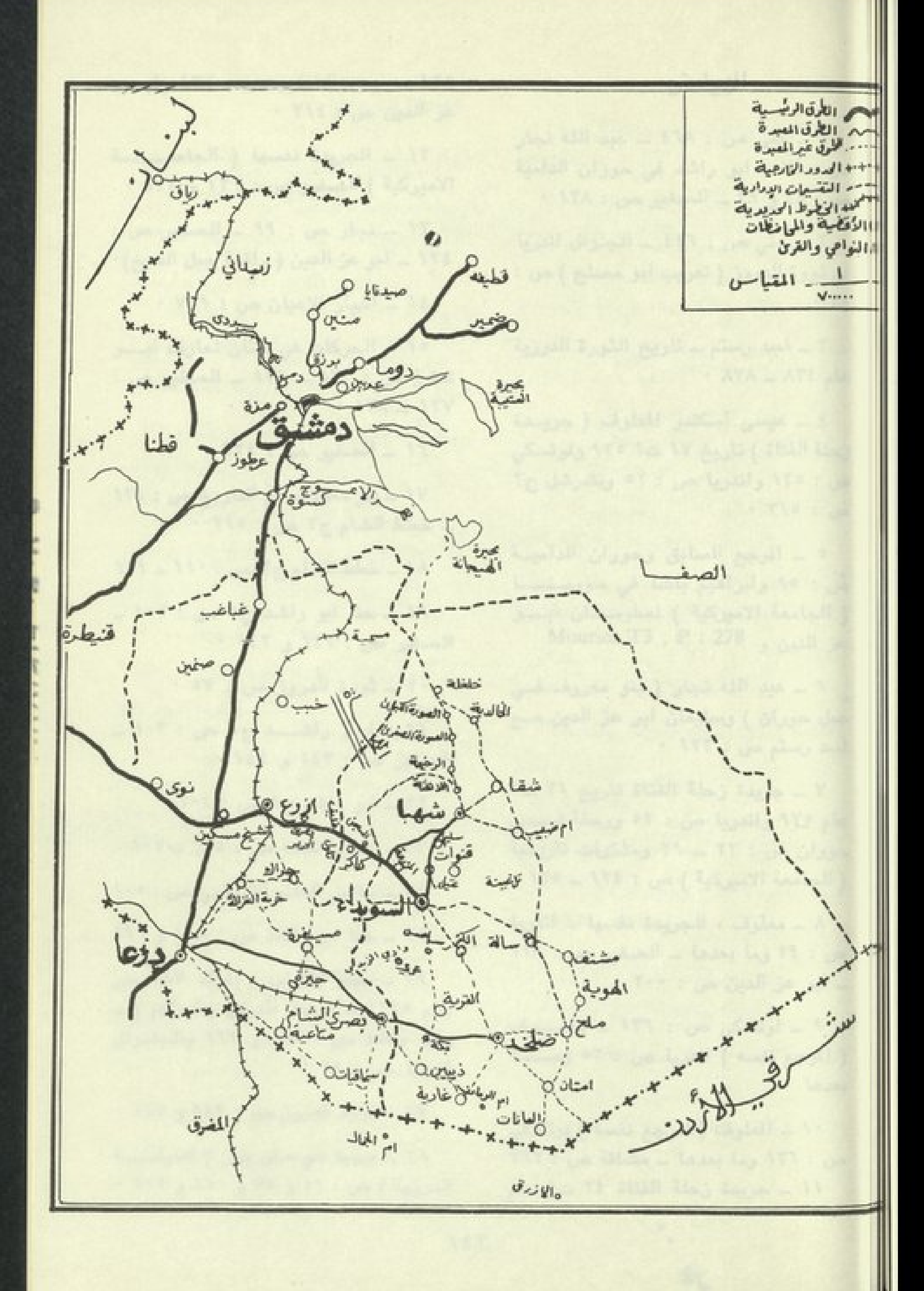
وعلينا بعد هذه الوقفةِ الطويلة على شُرفات جبل العرب ، ان نتّجهَ شطرَ لبنان ، مُتبصّرين في ما رسمته الاحداثُ بُعَيدَ حِقبةِ العهدِ المعني ·

التاريخ ٥ ايلول سنة ١٩٢٦

التوقيع : سلطان الاطرش (٩٩)

وفي ١٧ كانون الاول سنة ١٩٢٦ [illegible]

وبعد العفو عن سلطان وجماعته [illegible]



الطرق الرئيسية
الطرق المعبدة
الطرق غير المعبدة
الحدود الخارجية
التقسيمات الإدارية
الخطوط الحديدية
الأقضية والمحافظات
النواحي والقرى
المقياس
لبنان
رياق
زبداني
قطيفة
صيدنايا
منين
ضمير
دوما
بحيرة العتيبة
مزة
دمشق
قطنا
عرطوز
الكسوة
بحيرة الهيجانة
الصفا
غباغب
قنيطرة
صنمين
خبب
شقا
شهبا
نوى
ازرع
الشيخ مسكين
قنوات
السويداء
سالة
درعا
القرية
بصرى الشام
ملح
صلخد
امتان
ذيبين
غارية
العانات
المفرق
ام الجمال
الأزرق
شرقي الأردن

الهوامش

١ ـ حتي ص : ٤٦٨ ـ عبد الله نجار ص : ٧٩ ـ ابو راشد في حوران الدامية ص : ٤٨ و ٤٩ ـ الصغير ص : ١٢٨ ·

٢ ـ حتي ص : ٤٤٦ ـ الجنرال اندريا في ثورة الدروز (تعريب ابو مصلح) ص : ٤٨ ·

٣ ـ اسد رستم ـ تاريخ الثورة الدرزية عام ٨٢٤ ـ ٨٣٨ ·

٤ ـ عيسى اسكندر المعلوف (جريدة زحلة الفتاة) تاريخ ١٧ ت١ ٩٢٥ ولوتسكي ص : ١٣٥ واندريا ص : ٥٢ وتشرشل ج٢ ص : ٣١٥ ·

٥ ـ المرجع السابق وحوران الدامية ص : ٩٥ وابراهيم باشا في سوريا (الجامعة الاميركية) لسليمان ابو عز الدين و Mourier T3 , P : 278

٦ ـ عبد الله نجار (بنو معروف في جبل حوران) وسليمان ابو عز الدين مع اسد رستم ص : ١٢٣ ·

٧ ـ جريدة زحلة الفتاة تاريخ ٢١ ت١ عام ٩٢٥ واندريا ص : ٥٢ ورحلة في حوران ص : ٢٣ ـ ٢٩ ومذكرات تاريخية (الجامعة الاميركية) ص : ١٢٤ ـ ١٢٥ ·

٨ ـ معلوف ، الجريدة نفسها ـ اندريا ص : ٤٤ وما بعدها ـ الصغير ص : ١٢٨ ـ ابو عز الدين ص : ٢٠٠ ·

٩ ـ لوتسكي ص : ١٣٦ ـ معلوف (المرجع نفسه) اندريا ص : ٥٢ وما بعدها ·

١٠ ـ المعلوف (المرجع نفسه) لوتسكي ص : ١٣٦ وما بعدها ـ مشاقة ص : ٢٦٢

١١ ـ جريدة زحلة الفتاة ٢٤ ت١ عام ٩٢٥ ـ سعيد الصغير ص : ١٣٢ وابو عز الدين ص : ٢١٤ ·

١٢ ـ الجريدة نفسها (الجامعة الاميركية) الصغير ص : ١٣١ و ١٣٢ ·

١٣ ـ نجار ص : ٩٩ ـ الصغير ص : ١٣٤ ـ ابو عز الدين (واقعة جبل الشيخ) ·

١٤ ـ اخبار الاعيان ص : ٧١١ ·

١٥ ـ الحركات في لبنان لعارف ابو شقرا ص : ١٢٢ ـ ١٣٦ ـ الصغير ص : ١٣٧ ـ ١٢٨ ·

١٦ ـ الصغير ص : ١٢٤ ·

١٧ ـ بنو معروف في التاريخ ص : ١٣٤ ـ خطط الشام ج٣ ص : ١١٥ ·

١٨ ـ خطط الشام ج٣ ص : ١١٠ ـ ١١١

١٩ ـ حنا ابو راشد ج١ ص : ١٠٢ ـ الصغير ص : ١٤١ و ١٤٢ ·

٢٠ ـ ثورة الدروز ص : ٥٧ ·

٢١ ـ ابو راشد ج١ ص : ١٠٢ ـ الصغير ص : ١٤٣ و ١٤٤ ·

٢٢ ـ ابو راشد ج١ ص : ١٠٤ ·

٢٣ ـ المرجع نفسه ص : ١٠٤ ـ ١٠٧ ·

٢٤ ـ حاضر العالم الاسلامي ص : ١٠٥

٢٥ ـ حنا ابو راشد ص : ١١٨ و ١١٩

٢٦ ـ مجلة المقتبس ، المجلد الخامس عام ١٣٢٨ هـ (جبل الدروز وثورتهم) ـ وابو راشد ص : ١١٩ و ١٢٣ والجنرال اندريا ص : ٥٨ ·

٢٧ ـ ثورة الدروز ص : ١٤٣ و ١٤٧ ·

٢٨ ـ بيجيه دي سان بيار (الدولة الدرزية) ص : ٤١ و ٧٥ و ١١٠ و ١١٢ ·

٢٩ ـ الرحالة الاميركي :
Russel Reusing

٣٠ ـ وثائق رسمية عن عهد محمد علي باشا (الجامعة الاميركية) ·

٣١ ـ بنو معروف في التاريخ ص : ١٢٩ ·

٣٢ ـ عبيد (شاهد عيان مجاهد) ص : ١٢ وكبريال منسى الشرق ص : ٩٨ ـ ١٠٠

٣٣ ـ عبيد ص : ١٣٦ ·

٣٤ ـ الثورة السورية الكبرى (نقلا عن سلطان نفسه) ص : ٨٣ ـ ٨٤ ·

٣٥ ـ المرجع السابق ص : ١٣٩ ·

٣٦ ـ قرار الجنرال غورو رقم (١٦٤١) تاريخ ١٤ ت١ ٩٢٢ ـ الصغير ص : ١٥٣ ·

٣٧ ـ عبيد ص : ١٠٤ ·

٣٨ ـ رسالة الجنرال كاترو ملحق ٢ ـ قنطار ، مراسلات (١٢ و ١٦) ·

٣٩ ـ منير الريس (مجاهد وشاهد عيان وصحافي) في كتابه الذهبي ص : ١٤٢ و ابو راشد ص : ١٨٠ و ١٨١ ومهنا كرباج ص : ١٢٤ ·

٤٠ ـ الصغير ص : ١٥٦ ـ الريس ص : ١٤٣ و ١٤٤ وعبيد ص : ٩٤ و ٩٥ ·

٤١ ـ عبيد ص : ٩٥ ـ الريس ص : ١٤٥ وابو راشد ص : ١٨٦ ـ ١٨٨ ·

٤٢ ـ كتاب في جبل الدروز (عام ١٩٢٦) ص : ٨٥ ·

٤٣ ـ مذكرات عبيد ص : ٤٦ ·

٤٤ ـ ثورة الدروز ص : ٧١ ·

٤٥ ـ المرجع السابق ص : ١١٢ ·

٤٦ ـ الكابتن بوردون في تاريخ لبنان وحوران ص : ٢٣٨ ·

٤٧ ـ عبيد ص : ١٢٦ ـ ابو راشد ص : ٢٩٠ ـ الصغير ص : ١٦١ ·

٤٨ ـ ابو راشد ص : ٢٢١ و ٢٢٢ والجنرال اندريا ص : ٧١ ـ ٧٢ و ٨٤ ·

٤٩ ـ ديوان الشاعر القروي (طبعة ١٩٦١) ص : ٢٤٨ ·

٥٠ ـ ابو راشد ج٢ ص : ٤٢٨ ·

٥١ ـ الصغير ص : ١٦٢ ·

٥٢ ـ عبيد ص : ١٣٠ والجنرال اندريا ص : ٨٦ ·

٥٣ ـ ابو راشد ص: ٢٩١ وعبيد ص : ١٣٢ ومنير الريس ص : ١٧١ ·

٥٤ ـ عبيد ص : ١٣٣ و ١٣٤ ومنير الريس ص : ١٦٨ ·

٥٥ ـ منير الريس ص : ١٧٠ (شاهد عيان) ·

٥٦ ـ الصغير ص : ١٣٣ ·

٥٧ ـ منير الريس ص : ١٧٣ ·

٥٨ ـ ابو راشد ص : ٢٩٢ ـ عبيد ص : ١٣٦ ـ الصغير ص : ١٦٣ ·

٥٩ ـ ثورة الدروز ص : ٨٦ ـ ٨٩ ·

٦٠ ـ مذكرات الشهبندر ص : ٢٨ ·

٦١ ـ المدفعية في المستعمرات ص : ٢٥٣ ·

٦٢ ـ منير الريس ، الكتاب نفسه ص : ١٧٨ ·

٦٣ ـ الشوقيات ج٢ ص : ٣٧ ·

٦٤ ـ عبيد ، المرجع نفسه ج٢ ص : ٤٤٠ ـ ٤٤١ ·

٦٥ ـ الصغير ص : ٢١٣ ·

٦٦ ـ ديوان القروي طبعة عام ٩٦١ ص: ٢٤٣ ·

٦٧ ـ المرجع نفسه ص : ٢٤٨ ·

٦٨ ـ المرجع نفسه ص : ٢٤٩ ·

٦٩ ـ المرجع نفسه ص : ٢٧٢ ·

٧٠ ـ المرجع نفسه ص : ٢٧٥ ·

٧١ ـ من ديوانه المخطوط ص : ٧٦ ·

٧٢ ـ للاب فيتالي تعريب بولس قرالي ص : ١٠٥ ·

٧٣ ـ عبود بارون (طبعة الاتحاد) ص : ٦ ·

٧٤ ـ بورون ص : ٢٥٢ ·

٧٥ ـ لايدي ستانهوب ج٢ ص : ٢٧٨ ·

٧٦ ـ ثورة الدروز ص : ٩٦ ـ ١٠٠ ·

٧٧ ـ المرجع السابق ص : ١٤٧ وابو راشد ج٢ ص : ٤١٦ ·

٧٨ ـ ثورة الدروز ص : ١٥٧ ـ ١٦٢ ·

٧٩ ـ المرجع نفسه ص : ١٦٥ ·

٨٠ ـ المرجع نفسه ص : ١٧٨ ·

٨١ ـ الكتاب الذهبي ص : ٥٤ وعبيد ص : ٤ ·

٨٢ ـ الفرقة الجهنمية (الفصل السابع والثامن) وعبيد ص : ١٥٠ ·

٨٣ ـ عبيد ص : ١٥٤ ·

٨٤ ـ الجنرال اندريا ص : ٢٠٦ ·

٨٥ ـ الكتاب الذهبي الفرنسي (اعدته قيادة الجيوش الفرنسية في الشرق) ص : ٢٤٤ و ٢٤٥ ·

٨٦ ـ البشير تاريخ ٢٤ نيسان عام ١٩٢٦ ·

٨٧ ـ ج· هارفي ص : ١١٩ ودوتي ص : ١٠٩ و ١١١ ·

٨٨ ـ الجنرال اندريا ص : ١٠٩ ·

٨٩ ـ ثورة الدروز ص : ٢٥٥ ·

٩٠ ـ منير الريس (المرجع نفسه) ص : ٢١٢ و ٢١٥ ·

٩١ ـ عبيد (المرجع نفسه) ج٢ ص : ٣٤٧ ·

٩٢ ـ المرجع نفسه ص : ١٨٢ ·

٩٣ ـ فؤاد الاطرش في كتابه الدروز ص : ٢٩٠ ·

٩٤ ـ عبيد (نقلا عن و·ي· هوكنغ) القومية ص : ٢١٥ ·

٩٥ ـ عبيد ص : ١٩٣ و ١٩٤ ·

٩٦ ـ المرجع نفسه ج٢ ص : ٣٢١ ·

٩٧ ـ ابو راشد ج٢ ص : ٤٢٩ و ٥٢٠

٩٨ ـ المرجع السابق ص : ٤٨٩ و ٤٩٠

٩٩ ـ المرجع نفسه ص : ٤٩٠ ـ ٤٩١ ·

١٠٠ ـ من ديوانه المخطوط ·

[illegible]

Russel Roming

[illegible]

٤٣ – مذكرات عبيد ص : ٤٦ .

٤٤ – ثورة الدروز ص : ٩٦ .

[illegible]

العهد الشهابي

عناصر البحث :

أ ـ عواصف تجتاح لبنان

ب ـ مطلّ العهد الشهابي

جـ ـ الامير بشير الثاني

د ـ مع المؤرخ فيليب حتّي

هـ ـ التاريخ يتساءل

و ـ اين هو الانصاف ؟

ز ـ عِظة ٠

ح ـ وثائق ومُستندات

العَهد الشهابي

عواصف تجتاح لبنان

انقضى العهد المعني وادعًا لِخلفه العهد الشهابي رصيدًا كبيرا تبنّاه من سلَفه ٠ واهمّ ما في هذا الرصيد : الحبُ المتبادل ، والتضامنُ الاخوي في الحرب والسلم ، لِتعزيز رفاهيةِ المواطنين ، وصيانةِ الوطن شعبًا وارضًا من المغتَصِب الطامع ٠

انتهى فخرُ الدين الثاني لكن الشعبَ الذي ربّاه ورعاه ووجهه ، لم ينتهِ ٠ ظل معتصما بتقاليده ، محافظا على قُدسية اخلاقياته ٠ كان يرى في قائده واميره المثلَ الاعلى للحكمة والشجاعة والتسامح ، واستمر هو متسامحا شجاعا وحكيما ، في اعماله واقواله ٠ كان اميرُه جريئا صريحا : من عاداه كشف له نابَ العداء ، ومن والاه وحالفه صدقَه المحالفةَ والولاء ٠ وكان اذا اضطر ان يضاعفَ الضرائب ، يعملُ ناشطًا لتنمية الزراعة والصناعة والتجارة الخارجية ، حتى لا يُعاني الشعب ، ولا يشعر بانخفاضٍ في مستوى المعاش ٠ وكان من ماله الخاص ، ينفق على مشاريعه الخاصة به ، ما كان يلجأ لخزينة الدولة ، ولا كان يسخر عامة الشعب بالعمل والجهد لانجاز مشاريعه الخاصة وزخرفة مبانيه ٠ وكان عطوفا على البعيد والقريب ، لا يخشى المنافسةَ ولا الانتقامَ ولا النقمةَ عليه ، لانه كان بعيدًا عن العنجهية والتبجّح ، شجاعا وحليما معا ، الى جانب الرحمة والغفران ٠ وكان في منزله وبينه وبين نفسه، يَدينُ بالحق ، ولا يعرفُ التزلفَ ، ولا الفجورَ و لاالمحاباة ٠

اذا همَّ فخر الدين لحرب ، كان ابناء لبنان وحدهم هم المقاتلين ، حتى اذا امتد سلطانه ، واعوزه الاعوان ، كان مناصروه ، اولئك الذين ايدوه وارتضوا

به قائدا عليهم · ما اتخذ في معركة حليفًا سليطًا عليه ، مناضلًا معه ، لانه كان يُدرك ان الغُنم في المعركة للسليطِ لا للأضعف ·

هذا هو الدرس الذي لقنهُ القائدُ الخالد لمن سيخلفه ، وسيشهد التاريخُ اي خَلَفٍ له ، سيتربع بعده على كرسي الحكم في لبنان · واي التصرفات سيتخذها ، واية عصبيةٍ طائفيةٍ وخيمةٍ سيمارسُها ، واية يدٍ اثيمة داخلية واجنبية سيشلها ، واي تذبذبٍ وتلوّنٍ واحتيالٍ سيستأصله من جوارح صدره، وحميم شعبه · سيشهد التاريخ ، وسيروي بحقٍ مهما موَّهَ وزيفَ المؤرخون المُحدثون ·

ما طال الزمن بعد مقتل فخر الدين ، حتى انتقل الحكم لانسبائه الشهابيين · ندع مَن برز منهم لاقلام مؤرخيهم · وقبل هذا ، يهمنا ان نوضح الاسبابَ التي عملت على استبدال الحال في لبنان حُكامًا وشعبًا ، بإيجاز مُمكن ·

عواملُ كثيرة اسهمت في خلق لبنان جديد قاتم ، لكن اكثرَ ما يعنينا منها ما كان له التأثير الاعمق ، مُعتمدين ما دونته المستنداتُ التاريخية والاقلام المجردة ·

من تلك المراجع وحدَها سنسمحُ لقلمنا ان يعالج موضوعاتِه تلك · منذ مطلع القرن التاسع عشر ، « والمسالة الشرقية » هي الشغل الشاغل للدول الاوربية الكبرى · وهذه المسالة هي : كيف يتمُ تقسيم الامبراطورية العثمانية « الرجل المريض » التي اصبحت على شَفيرِ الزوال · ما يعني ابناءَ لبنان من هذا ؟؟

واكثر ما راب الدولَ الغربية الكبرى ، هو نفوذُ الالمان في صميم الدولة العثمانية ، والمساندة المادية والعسكرية لهذا الرجل المريض (١) من ذلك الشاب الدافق حيوية ووعيًا : المانيا ·

ولم تتفق الدولتان الكبريان على مجابهة الخصم ، بل اخذتا تحوكان المؤامرات في قلب لبنان ، لِخلقِ البلبلة في صفوفه ، وانشابِ الفِتَنِ والمجازر فيه ، لكي يتسنى لهما الظرف فتتسللان لهذه المِهادِ الثريّة · يقول المؤرخ الروسي (لوتسكي) : كانت كل من انكلترا وفرنسا تسعيان الى اشرافهما على المضايق ···· وعلى سوريا (لبنان) · لقد ظهرت هذه المطامعُ في القرن الثامن عشر ثم تطورت بصورة اكمل في القرن التاسع عشر ، وشغل هذا الصراعُ حيزًا كبيرًا في الديبلوماسية الغربية يومذاك · (٢)

وقد اتخذ النزاع الديبلوماسي بين فرنسا وبريطانيا شكلًا جدّيًا عنيفًا في اخر الامر ، مما اضطر (بالمرستون وزير خارجية بريطانيا) على ان يصرح بان جلالتها مستعدة ان تعلن الحرب اذا استمرت فرنسا على هذا التقارب والعضد لتركيا · فالمسالةُ الشرقيةُ هذه هي احدى عوامل تسمم نفوس اللبنانيين ، وجرِ البلاد الى مهاوي الدمار ، والتفسخِ الخلقي الرهيب ، الذي تعانيه حتى الساعة · كان لبنان في تلك الفترة المعتمة ، زَورقًا مُخلعًا في بحرٍ صاخب · لكنه يعجز عن ان يتجهَ الى الشاطىء ، لانه فَقَدَ القُدرةَ على الاياب · ومَن جعل هذا الزورق المتينَ مُخلعًا ؟ ومَن رماهُ بين الانواء ؟ ومَن افقدهُ القدرةَ على التجذيف ؟ ان حافظة التاريخ واعية ، وعريفة ، وما استمرَ نوءٌ في يَمّ قط · ومتى طغت الانانية في نفوس حكام البلاد ، ورائدي فكرهِ المادي والروحي ، فكَبِّرْ على البلاد ·

لم تكن الفتن التي تتالت لاحقًا على لبنان وليدةَ ساعتها ، كما يصورها المشوهون ، ولا هي بدوافع خارجية وحسب ، انما هنالك حقدٌ دفين وحقٌ لم يُحرص عليه ، وتسامحٌ مفقود ·

مَطلُّ العهد الشهابيّ

ان الامراءَ الذين تعاقبوا على الحكم في العهد الشهابي كانوا ادنى من المستوى الذي يتطلبه وضعُ لبنان السياسي والاقتصادي ، وكانوا اكثرَ من ذلك : ضيّقي البصيرة ، مُخضّبين بحُثالة التعصبِ الحزبي اولاً ثم الطائفي ؛ كما كانوا يسهرون على تغذية هذه الروح بشتى الوسائل محافظةً على الحكم ، فكان : ضغطٌ ، وحيلٌ ، ومراوغةٌ ، وعمولةٌ ودَسّ ·· (٣)

وان بادارة حيدر شهاب الطائشةِ وضَياعِ حكمته **وانجرافهِ في الحزبية الضيقة نشبتْ معركةُ عَين دارا سنة ١٧١١** بحيث نشّط بتوجيهاته الروحَ الاقطاعي ، ونظّمه على هواه ، لا على ما يُمليه صالحُ البلاد واصلاحها المفقودان · (٤) كنا واقعيًا خاضعين للسلطة العثمانية ، خضعنا يوم كانت تُلقّب بـ « الصاعقة العثمانية » ، وما برحنا محافظين على هذا الولاء ، ملزَمين بهذا الخضوع النسبيّ قدر ما يسمح به اباء الحكام اللبنانيين وكرامتهم ·
ان القيمَ الانسانية في نظر الدول المستعمرة تافهة كقيمة العنصر البشري·· وان قيمة لبنان العسكرية غيرُ قيمة شعبه في مَفهومهم ·

صرحت بتاريخ متأخرٍ جريدةُ التيمس في ٢٤ت٢ سنة ٩٤٣ تقول : « اظهر لنا مجرى الحرب أهمية الشرق الاوسط ، لا سيما لبنان ... لو تمركزتْ قوة جوية لاعدائنا من قاذفات القنابل بين سلسلتي جباله تستطيع السيطرة على (السُوَيس) وعلى حقول البترول في (كَركوك) وخطوط الانابيب ... » .

لم يحدث ايُّ تبدلٍ في استراتيجية لبنان الطبيعي بين ١٨٠٥ و١٩٤٢ بل العكس هو الاصح ، بالنسبة الى تطور الالة الحربية ، وما كان البترول قد اكتشف غير اقله ، ولكن طريق الهند كانت الاهم في نظر الدولتين : فرنسا وانكلترا ، ومطامع روسيا القيصرية كانت ناشطةً في البحر الدافىء ، لحماية الكنيسة الارثوذكسية =على زعمِها= .

والدليلُ الحسيُّ على قيمة لبنان العسكرية ، هو ما نراه من اثارٍ على الهضبة الصخرية الصغيرة عند مصب نهر الكلب ، عليها سبعةَ عشرَ نقشاً لتخليد ذكرى الفاتحين الستةَ عشر ، الذين دخلوا لبنان ابتداءً من الفراعنة حتى الاستقلالِ . تلك النقوشُ تُثبت ان الجبل هو من اعظم شرايين المواصلات في العالم .

قيمةُ لبنان هذه ، خلا ما فيه وفي سوريا من موارد طبيعية ، جعلتهما محطّ انظار المستعمرين . ولن نَنحَى باللوم كله على هذا المستعمر او ذاك ، بل نلوم انفسنا اولا ، اذا آمنا بصوابية راي (لِنكولنُ ستيفنسن) حين قال :
« ان المسؤولية لا تقع على آدم او حواء او الشيطان ، في اكل التفاحة ، **انما التفاحةُ نفسُها هي المسؤولة ، لان ما فيها من نكهةٍ وجمال اغرى بها الطامعين** » .

ان أولى الدول الغربية التي أشاحت بنظرها وقلبها شطر لبنان والمشرق كانت فرنسا . اتخذت في البدء ذريعةً لها ، تعرضَ الحجاج الاوربيين للاخطار اثناء قدومهم لفلسطين ، كما المحنا سابقا ، فكانت سيدةَ الحملة المشهورة ، وكان (غودافروا دي بويون G. de Bouillon) المؤسّسَ الفرنسي لمملكة القدس . وزالت مملكة القدس ، وظل البصرُ الفرنسي محدقا في مروج البلاد وستراتيجية ارضها ، فاتخذ من الارساليات والبعثات العلمية وسيلة ناجحة لترسيخ تعاطفه مع جماعة من الشعب اللبناني . وما كان الامير فخر الدين وخلفه الصالح لِيتوقّعوا ان وراءَ العبارات المقدسةِ ، سُمًّا زُعافا سوف ينهله

شعب لبنان ؛ **وفي صفوف التهذيب والتدريس ، سوف يُلقّنُ التعصبُ باحدّ مخالبه ، ويُطفأ مِشعلُ التحرر ، ويُبذرُ التنابذُ بدلَ الوئام** ، في الناشئةِ الطيبة **المولد** ٠

وجاء (بونابرت) Bonaparte فطلب من فئة لبنانية (هي الدروز) ان تواليه، ويقطع لها من لبنان قسما يكون امارة مستقلة لها ٠ **فابت هذه الفئة ان تبدل مجتاحًا بمجتاح** واستمرتْ على عدائها ونضالها المتواصل ازاء كل استعمار ٠

وكان عنفُ العصبية في مطلّ عهد الشهابيين يصلُ الى حدٍ يجعل الاخَ خصما دمويا لاخيه ، ومكافحا على رأس حزبه لِقهرِ شقيقه ، ولو ساق الخرابَ للبلاد ٠ (٥)

وكان الاميرُ يوسف شديدَ السهر على رعاية الارساليات الدينية ، وتنشيطهم، وتامينِ مساكنَ ومعابدَ لهم ، يقومون فيها بتأدية رسالتهم الدينية والاستعمارية معًا ، لانهم انحرفوا عن مبادئهم السليمة السابقة ٠ وما كان يوسف ليعبا او ليمنعَ هذا التوجيهَ الخطرَ ، ويجعلَ الدينَ لله ، ويحضَ على التعاون الوطني ، ويعملَ على التسامح الديني ، بل نجدُه انجرفَ كُليّاً في ذلك التيار ، غير عابىءٍ بالمحاذر ٠ وقد ذكر كتاب « الحركات في لبنان » ان الامير يوسف شهاب بعد ان كان اقطعَ مَن شاء ، وتابعَ سياسة تقوية الاقطاع على حساب الاقطاع نفسه ، **خطرَ له مرةً ان يفرضَ ضريبةً ، على « الشاشيات » وهذه الضريبة تطالُ فئةً معينةً من اهل البلاد لا سواها** ، مما دفع احدَ كبار المشايخ ، ان يتوعدَه قولاً وعملا ، حتى ارتدّ عن رأيه مخذولا ٠ (٦)

وكان عطفُ هذا الامير على المستعمر الاجنبي ، يتضاعفُ مع الايام ، حتى سوّلت له نفسه ومطامحه الضيقة ان يقبل في بلده قناصلَ عن دول الغرب عن ابناء لبنانَ نفسه ، وهذا يثبت مدى فائدة تلك البعثات الاوربية ، وما كان هؤلاء القناصلُ من فئات مختلفةٍ من ابناء لبنان بل من واحدةٍ مفردة ، لتكون فوائدُ التعليم ومنافعُ الارساليات والبعثاتِ مقصورةً على هذه الفئة دون غيرها ٠

لقد تعدى الامير يوسف نطاقَ الحزبيات المخرّبة ، وحسبناه يسمو فوقها ، لولا انه تكسّر جَناحاهُ في عواصف العصبية الدينية التي ازدادت تفاقما مع الايام ، فانحطّ وانحط الشعب اجمع ٠ كان هؤلاء القناصل ، الساهرون على

ازدهار لبنانهم الخاص، المدَّعون بوحدة صفه وعزة جيشه ، كان منهم : نـــادر الخازن وسَعد الخوري وكان بعدَهم اساقفة ورجال فكر ، (٧) على غِرارهم ٠

الامير بشير الثاني

وحين تولى مقدراتِ لبنان الامير بشير الثاني ، ترقَّبَ الشعبُ تغييرًا جذريـا في الحكم ، وروحا عاصفة من التسامح الديني ، ونكران الذات ، وخنق كـل اقطاع متجبر مستغل ، وطعن المستعمر بشراسة ومجابهة ، بعد ان غدا المريضَ السقيم ، لان الامير كان صنيعةَ الاقطاع الدرزي بالذات ٠

ماذا حدثَ بعد هذا الترقُّب ، وتلك التطلُّعات ؟

جاء الحكمَ متوسلًا وقضى مُستجدِيا ، فخدم من عام (١٧٨٨ ـ ١٨٤٠) ٠
يقول فيليب حتي في « لبنان في التاريخ » ص ٥٠٠ : « قد تعاقبت فـي عهـده الاحداث ٠٠٠ وأدخل المدينةَ العصرية للبلد ، وتوسعَ سلطانُـــه ، وحـــارب العثمانيين ، وقسا على الاقطاع لِفرضِ السلطة الكاملة ونشرِ العدل » ٠

لِنقفْ لحظة مع المؤرخ اللبناني : ايّ الاحداث تعاقبت ؟ وكيف عولجتْ ؟؟

كان للامير وجهان ، في احدهِما مخلصٌ للعثمانين ، سخيٌّ بدفع الضرائـب من قلب الفقراء ٠ ثم انه بحماسةٍ متناهية جند الشبابَ للانضواء تحت اللواء العثماني ومحاربة الوهابيين خارج حدود امارته (٨) ، شفقـــةً منـه عـلى « الرجلِ المريض » ٠

ويوم انتفضَ مناضلون (نابلسيون) لِخلعِ النير العثماني ، بادرَ الاميـــر الغيور ، ونادى بالجنود اللبنانيين ليزحفوا الى فلسطين تحت اللواء التركـي ، لِقمع هذه الثورة (٩) ٠

هذه الدماءُ اللبنانية التي أُريقت على ابواب قلعة (سانور) في نابلس ، كانت خدمةً للمستعمر ، وطعنةً في صدور دُعاة التحرر الوطني ، ولم يظفـرْ لبنـــان **منها بِقُلامه ٠**

يقول المؤرخ نفسه انه قدم لبنان في عهد هذا الامير مستشرقٌ غربيٌّ هـــو

(بوركهرت) فجاب ارجاء لبنان وقال : « عندما يصل المسافر الغريب الى قرية ما (في لبنان) يقول لِضيفه : « نحن ضيوفك الليلةَ بلا بدل ٠٠٠ » فيلاقي كل ترحيب ، وافخر ما في البيت من غذاء ، وحين يغادر الدار يقول : بخاطركم ٠٠ عامر » وكفى (١٠) متى كان اللبنانيُّ لا يلاقي ضيفه بمثل هذا الترحيب ، ومتى بخُل عليه ؟؟ انها عادة متأصلة في العرب منذ القِدم ، والامير بشير ما استقدمَها مع الإرساليات الغربيّة ، لِيفخرَ بها المؤرخ ٠

اما إدخالُ المدنية على لبنان ، فليتَها لم تدخل بهذا الشكل ، لانها صورت لنا الحضارةَ الغربية ، مشوهةً ، دافقة بالتعصب ، على عكس ما تكون عليه المدنيةُ المعاصرة ، وعكس ما قامت عليه الثورةُ الفرنسية ، من مبادىءَ نبيلة ٠ اما الازدهار الذي ادعاه المؤرخ والنهضة العلمية في البلاد،فكانا في جماعة دون اخرى ، كان لبنانَ يومذاكَ على سَعَتِهِ ، لا يصلحُ ان يَسعدَ فيه غيرُ المحظوظين والغرباءِ اصلاً عنه ، وبقايا فلولِ مُجتاحي الفرنجة سابقا ٠

وكيف ثبتَّ الامير استقلالَ لبنان ؟ وكيف وسَّع اراضيه وتحدى الباب العالي ؟؟

اتى بهذه الخوارق بالرشوة والدسّ ، وبارهاق شعبه بالضرائب ٠ **لم نسمعِ المؤرخ حتى في صفحةٍ من سجل تلك الامجاد يشيرُ الى معركة من الجند اللبناني ، التمعت فيها الصوارم ، واعتكر افق لبنان الصافي ، ووقع فيها صدام مع المستعمِر التركيّ قط ، غضبًا من قرارٍ في تجنيد** اللبنانيين جبرًا لمصلحته هو ، او استنكارًا **لِضرائبَ باهظة واحتكارا للحرير وغير الحرير من مقوّمات الاقتصاد اللنباني** الذي كانت تتراكمُ عليه الضرائب ٠ متى قرأنا للمؤلف ان اميرَهُ جاء ببعثاتٍ علمية لِتنمية الزراعة وتطويرها ؟ وتطوير الصناعة ؟ وتعمير الموانىء لاستقبال عشرات السفن التجارية ؟؟ هلّا لقنه سلفُه المعنيّ احدى بوادره العمرانية لِنستسيغَ مدائحَ مؤرخِنا حتي في اميره ، والتبجيل به ؟؟ وهل من كلمةٍ لِمحققٍ نزيه ؟؟

لقد انتفض البطلُ طانيوس شاهين في انطلياس ، على الاقطاع الماروني ٠ اجل انتفض عليه وهشّمه ، ولكن لو كان في البلاد حاكمٌ صادق يقاوم الاقطاع ويُحجّمه ويقلمُ اظافرَه ، لما تنادى شعب الشمال بفلاحيه وعماله الى المعركة وزجّ الشعب في اتون لاهب ٠ اي **تدبير اتخذهُ الامير انئذٍ** ؟ كحاكمٍ عادل ، عدو للاقطاع ساهرٍ على سلامة الشعب ويُسره ؟؟ **الهروب من المعركة** ٠٠ الى حوران سنة ٨٢٠ ريثما تهدأ العاصفة ٠ ومَنْ اثارَ العاصفة ؟ حكمةُ الاميرِ تلك ام

تذبذبُه وتلونُه ؟؟ أما قسا على اهل زحلةَ وارغمهم ان يدفعوا الضريبةَ مضاعفةً احبًا بتعمير البلد ، وتنشيط مرافقِه ، ام ارضاءً « لِلرجل المريض » ؟؟

مع المؤرخ فيليب حتي

يقول المؤرخ حتي : « ذهب الاميرُ الى حوران لكنه لم يفقد شيئًا من نفوذه وسلطتِه ، بل رجعَ الى بلاده يدسُّ الدسائسَ وو ٠ » (١١)

كيف يُقدَّرُ لِذوي الدسّ واثارة الفِتن ان يسهروا على إنماء القيم الانسانية واستتباب الامن حبًا بالامن ، والحكم بالعدل ، اذعانًا لِسلطان العدل ؟ **وهل يستتبُ امنٌ طويلاً ويدومُ عدل قائمٌ على السياطِ وَفَقْءِ العيون ، والعنجهية الجوفاء ؟؟**

اين هي سلطةُ الامير ، ونفوذُه الذي يتبجح بهما المؤرخ ؟؟ وقد ذكر هو بنفسه في الصفحة (٥٠٥) من لبنان في التاريخ ما يلي : « **كانت حروبُ الامير ومشاريعه تقتضي دفعَ الضرائب ٠٠ حتى آخرِ فِلس ٠٠٠ ان النقمةَ عليه وعلى جُباتِهِ اخذت تزدادُ حِدةً الى ان انفجرتْ اخيرًا سنة** (١٨٢٠) »٠ليحيَ الامنُ والعدالة ، والنفوذ !! واضاف المؤرخ نفسه في المرجع ذاته : « **ان وفرة الضرائب في لبنان كانت سببًا لِهجرة ابنائِهِ** » ٠ علامَ الهجرةُ ، طالما الامنُ مُستتبُ ، والرخاءُ شاملٌ جميعَ طبقات الشعب ؟؟ أما يُناقضُ المؤرخُ نفسَه ؟؟

وذكر المرجع نفسه ان الامير بشيرًا كان على كثير من التسامح وسَعة الصدر ، فكان « **مسيحيًا بالمعمودية ، ومسلمًا بالزواج ، ودرزيًا بالمصلحة** » ٠

والدليلُ الواضحُ على ذلك:بُنيانه للجوامع ، كما بنى الكنائس ، **وارسالُه طلابًا مسلمين ايضا للتعليم خارجَ لبنانَ ، ووفاؤه للجزار وبشير جنبلاط وَلِيَّيْ نِعمته ٠ فلايدسُّ على هذا ويطعن ذاك بالقفا** ، حين عصفت بنابليون الاول شهوة الفتح ، وقابلها الامير بالرواغ ، وموازرة الفاتح سرًا ٠ **وهل من بواعث العظمة والشَمم هذا التلوّن الوضيعُ بالسياسة ؟؟ ثم الأحط : بالزواجِ ، وبالمصلحةِ الشخصية ؟؟** الا عمهًا لِلمضلِلين !!

طالما ان هذا الاميرَ عملاقٌ في نظر تابعيه ، فلِمَ ارتضى لِهيبةِ الحكم ان يُنزلَ ابراهيم باشا المصري ، الضرائبَ الفادحة ويحتكر ، ويجند جبرًا ، ويسوق الاف

اللبنانيين لِموازرة الدولة المستعمِرة تركيا،ويطعنُ الدروزَ اللبنانيين المناضلين ضدّ هذا المستعمِر العجوز ؟؟ محاولاً بغير طائل ، وقفَ المدّ الثوريّ في الجماهير المقاتلة ؟؟ لماذا فرّ اربعَ مرات من البلاد من غير ان يدعَ عليها حارسا امينا ، كما فعل فخر الدين مرة ؟؟ **لماذا حدثت بُعَيد موتهِ الفِتنُ الدامية الاليمة** بين الشعب اللبناني ، الذي ارتضاهُ طائعا مُرغما زهاءَ نصف قرن ديكتاتوراً؟؟ **ثم لماذا اتحدت الطوائفُ اللبنانية جمعاءَ لِتصرخَ في وجهه ووجهِ الغازي المصري : « إنكفئوا عنا او الثورة.. اما ان نردّ استقلالنا او نموت (١٢) »** ، بهذا نادتِ الجموعُ اللبنانية الصاخبة من الطائفتين . فأين كانت اذنُ الامير بشير ؟؟ وهل كان مؤمّنًا لهم معاشًا رغيدا ، لِيصرخ بهم : انتم مُشاغبون ؟؟ ام هل كانَ وراءَ طلائعهم الابية ، حين هاجموا بالرغم عنه مستودعاتِ الجيش المصري واستولوا على كل ما فيها ؟؟ اين الامنُ الموطّد واين كرامةُ الحاكمين ؟؟ اما استطاعت حرمةُ الامارة العريقة ، وطلعةُ الزوجة الجارية الجَركسيّة ، ان تصدا هذا السَيلَ من المناضلين المخلصين من جميع طوائف لبنان ؟؟

الى هنا فقط نختصرُ وقفتَنا مع المؤرخ اللبناني فيليب حتي،متمنين عليه زيادةَ التعمق في دراسةِ العهد الشهابي وبَطلِه بشير .

وقفة مع الامير بشير الثاني

اما الامير بشير ، وقد تجاوزَ المَطْهرَ الأقدس ، وخلَعَ عنه رداءَ الجبروت الارضي،فليسمحْ لنا ان نخاطبَ بتواضعٍ جسدَه السماوي :

يا اميرنا المحنَّك : أما كان اصلحَ لك وللبنانَ لو تنبّهتَ الى الثقل العسكري والمادي والمعنوي الذي خَصّ به الدروزَ ، طبعُهم الاصيل ، وتاريخُهم العامرُ بالمواقف الوطنية المشرفة ، وتمردُهم على كل سليط ؟؟

أليست هذه الفئةُ مِنْ لبنان ؟ وهل ارتفع صوتُ للتحرر ، وشمّر ساعد لعمل بنّاء والتمعَ سيفُ في معركة ، وارتكزتْ مكرمةُ ومرحمةُ في صدرِ لبنان، منذُ عُرفَ ، لولا هؤلاء ؟؟

أما وجدتَ معرةً في انقيادك لابراهيم باشا ، المحتلّ لأرضك ، والدافع لابنَيك خليلٍ ومَجيد ولجيشهما كي يقاتل اللبنانيُّ اخاه اللبناني ، اتناسيتَ ام غُلبَ على امركَ ، حتى اسأتَ الى الجماعةِ : اخوانِك في الجِوارِ ، وتحمّلِ

التبعات ؟؟ ومؤمريك على لبنان ؟؟

اما روى لك حفيدك مَجيد ، **ماذا كان مصيرُ جنودِه في اقليم البلان (١٣) مع اولئك الابطال ؟؟**

الَم تكظم الغيضَ والحقدَ حين اطلعك ابنُكَ خليل وهو زاحفٌ على رأس ستة الاف جندي لبناني ، عن كارثة « حاصبيا معقِلِ الدروز » ، وعن الآلاف من العسكر النابلسي وعن القائد العام المصري وجيشه الجرار ، **اين ولّى خليل مع جنوده ومع النابلسيين ، امامَ سيوف الدروز وخناجرهم ، واي اندحارٍ وخزيٍ لحق بهم ؟؟ (١٤)** . اقرأ ما كتبه عيسى اسكندر المعلوف .

لا نروي ذلك عن تبجُّح بل عن ألم مرير ، من خليفة فخر الدين ، كيف **يجيِّشُ شبان بلده ، ليسفكوا غالي دمِهم ، على صخورِ النعرةِ الطائفيةِ والانانيةِ الهوجاءِ في سفح جبل الشيخ** ، بسيفِ حاكمٍ درى ، وتأكّد ، ان معظمَ المقاتلين هناك ، هم ابناءُ الشوف ، وليسوا غزاةً ولا محتلين . **ان اجدادَ هؤلاء المتقاتلين اللبنانيين جميعًا ، الذين اخترتَ انتَ لهم هذا التقاتل ، كانوا صفا واحدًا في وجه اعداء الوطن ، العثمانيين : في عَنجر ، وعكار ، وصفَد ، وتَدمر ، وتحت رايةٍ واحدة : رايةِ الاخاءِ الوطني** في الزمنِ السابقِ القريبِ **لزمانِك** .

أما يلحقك العارُ حينَ يُحدّثُ التاريخ بفخرٍ عن هذه الموقعة ؟ : **« نَشبتْ المعركةُ بالسيوفِ والفؤوسِ والمناجلِ حتى بالحجارةِ حين فرغتْ ذخائرُ الدروز » . (١٥)** الذين اخترتَهم اعداءً لك ؟؟

ايها الامير : ان المؤرخ فيليب حتي وغيره من المؤرخين يصرحون عند ذكر منطقتَي الشوف والمتن بانهما : « دولة الدروز ، وجبل الدروز » ، **فهل ذلك حقًا ؟؟** ولِمَ ارتضى هؤلاء بغير درزيّ حاكمًا عليهم ؟ أعن عجزٍ مادي او حربي منهم ؟ ام هو روحُ التسامح الديني ، والغَيرةُ على وحدةِ الصف في الوطن ، اللذان دفعا بهم الى هذا التنازلِ الجليل ؟؟ وانت سيدُ العارفين .

أتسمعُ معي المؤرخَ جواد بولس في كتابه تاريخ لبنان عام ٩٧٢ ص ٢١٨: «لقد ألفتْ هاتان المنطقتانِ الشمالية والمتوسطة (لبنان) نوعا من الاتحاد خلال القرن السادس عشر ، حيث **اجتمع شمل الطائفتين : المارونية والدرزية للحرب الدفاعية** .. وقد اجتمعتْ مِرارًا متكررة لهذه الغاية وهي التعاون معًا على **الدفاع عن حرياتهما بوجهِ المطامع الخارجية »** . فهل كانتْ لكَ معاركُ دفاعٍ عن

دمارٍ وديار ؟؟

اما كانت معاركُ وادي الحرير وبَكا والشعلة قبلها ، كلهـا معاركَ دفاعيـة وبوجه مطامع الدولة التي كنتَ تسادُها بأبنائِكَ وبالآفِ المحاربين العنصريّين المَسوقين سوقًا للقتال ؟؟ وهل تسمعُ الجنرال (اندريا) الفرنسي : « في سنة ١٨٣٠ كان محمد علي في حاجة الى جيش لإخضاع الدروز والموارنة فـي لبنان ، **الذين عاشوا طوال اجيالٍ في وئامٍ تامٍ ، ثم اشتبكوا في قتال ...** » (١٦)

من كان متوليًا على مقدرات لبنان ، وساهرًا على رفاهية شعبه وتضامنـه ، وتعزيز جيشه في تلك الاجيال الطوال السابقة لعام ١٨٣٠ ؟؟ ومَن الذي شـد ازرَ محمد علي عام ١٨٣٠ وما بعده ؟؟ ومَن الهمَ الجنرال الفرنسي ليكتـب ، في المرجع نفسه : « **فَشتّتَ المحاربونَ الدروزُ صفوفَ تلك الحملة ، التي انهارتْ معنوياتُ جنودِها فأنسحبوا مَخذولين ؟** » **ومَن آزرَ هذه الحملةَ المشتتة ؟؟**

ومَن عمّمَ إثارة الحزبية اليَمنية والقيسيّة في لبنان ، وسببَ مذابحَهـا وتشتيتَ مئات العائلات اللبنانية عن وطنهم الام ؟؟ ومن أطلع الرحالة الغربيين ليكتبوا عن مدى اعجابهم بالمودة والصفاء ، اللذَين كانت تتميز بهما العلاقـات الدرزية النصرانية ؟؟ لِنرجع الى فيليب حتي ص ٥٢٦ فهو الذي دوّن هذا الكلام وهو القائل بعده : « كان الدروز والموارنة يُوقعون معًا بياناتٍ ضدَّ ابراهيـم باشا .» أليس ابراهيم هذا هو المجتاح الذي كنتَ تنساقُ لإرضائِه وموآزرتِـه في احرج مواقفِه ، وبأغلى دماءِ بنيك وشبانِ وطنك ؟؟

انتَ في سمائك ، لا تملك آلةَ النُطق لِتجيب ، ولكنها الاحداث التي تراكمت، وازدحمت ، وغصّت بها معابر التاريخ ، اثر انقضاء عهدك ، تلقي النـورَ الساطعَ على ما خلّفتهُ يداك ، وفجّرته عبقريتُك وعراقةُ إنسانيتك . ان الغراس التي تعهدتَها في ربوع بلادك ، واتحفتَ بها الجبلَ الاشم ، هي ذي تُعطـي ثمارَها ، من نوعِ ما غرست ، فاطمئنَّ في سمائِك ، فَجناها لا نبرحُ نتذوقُ مَريرَ نكهتِه حتى اليوم .. هذا اليوم .

التاريخ يتساءَل

ما اكثر التساؤلات : مَن أحدث الفتنَ في لبنان ؟ نجيبُ بحق : انهُ أولًا انت، ثم الدولُ التي حالفتَ حينا ، وابغضت ، ثم الاقطاعُ الذي انشاَكَ كما نشأتَ ،

والاكليروسُ الذي طمسَ مواعظَ الاناجيل واعتنقَ (التلمودَ) انجيله . هلُمَّ نوضحُ اكثر ، ولن نكون مُغرضين .

يقول فيليب حتي : « لقد امر ابراهيم باشا بتجريد الناسِ من اسلحتهم وفرضِ الخدمة العسكرية الاجبارية ، وكان الاميرُ بشير قد وضع تحت تصرفه تسعة آلاف محارب » . (١٧) « ورغبة منه في اخماد ثورة الدروز جند ابراهيم باشا سبعةَ الافِ مقاتلٍ ماروني بقيادةِ خَليل بشير شهاب » . وقال حتي : « **فكانت حادثةُ (حوران) حيثُ حاربَ الموارنةُ ضدَّ الدروز ، بدايةَ عهدِ عداءٍ بين الدروز والموارنة** . (١٨) **واستغل عُملاءُ الانكليز والاتراك ، الحالةَ النفسيةَ الثائرة في لبنان وحاولوا اشعالَ نار الفتنة بشتى الوسائل** » . (١٩) مَن المسؤولُ الاول اذن ايتها الروح السماوية ؟؟ عن دماءِ اولئك الابرياء ؟ اهو مَقتلُ الحَجلِ .. وصَفعةُ الكفِّ .. ام هو تدبيرٌ سابق أرعنُ اوحت به انانيةٌ خرقاء ؟؟

هل توانى المؤلفُ حتي عن ان يُوضح بصراحة : « **كان توسُّع الموارنةِ اثناءَ القرن التاسع عشر ، سببًا من اسباب الحروب الاهلية المفجعة** » (٢٠) .

مَن الحاكم في تلك الفترة ؟؟ وعلى حسابِ مَن توسعَ هؤلاء ؟؟ وعن شجاعةٍ ونبل،ام عن تواطؤ حدَث هذا التوسع ؟؟

قال اللورد دوفرين : « في رأي جميع الذين خبروا البلاد (لبنان) انه اذا وجدت حكومة موافقة ، فالدروز والمسيحيون يميلون فطرةً الى المعيشة على اتمّ وفاق » (٢١) . **هل كانت سياستُك وتدابيرُك عاملةً على استمرار هذا الوفاق ؟؟ وهل تلقَّنتِ الاجيالُ المقبلة هذا الدرس الذي به وحدهُ سعادةُ البلاد واستقرارُها ؟؟**

ايها الامير : اذا كانت الوثائقُ الدولية واقوالُ المؤرخين المجردين صحيحةً فَمَنِ الذي يتحملُ تبعة احداثِ السنوات : ٨٤١ و ٨٤٥ و ٨٦٠ ؟؟

مَن المُسببُ الاولُ الذي ساق البلادَ الى خرابٍ وتنكيلٍ وتشريدٍ قلَّ له مثيل ؟ مَن دفع الاخوة يتقاتلون بعد الوئام الطويل ؟ مَن انتزع املاكَ الناس ليفرقها على تابعيه ؟؟ مَن كان الجابي الغِطريسَ في جمع الضرائب ومضاعفتِها ، وفي التجنيدِ الاجباري ، وفي اشعالِ الفتن بين الوُلاة المجاورين ؟ وعلامَ ثار

طانيوس شاهين ؟؟ مَن حسِبَ الخديعةَ حنكةً ، والدسَّ **فضيلةً** ، والبطشَ **قوةً** ، والارهابَ **عدلاً ؟؟**

اين هو الانصاف

يقول لوتسكي : « فانهم (الموارنة) كانوا قد حلوا في اراضي الدروز خلال حكم الامير بشير الثاني »ويتابع :«قادت الحركة لجنة سرية في (د٠ق) ذات فروع في القرى الكبيرة من جنوبي لبنان ٠٠٠ ادَّتْ الى حدوثِ موجةٍ من المذابح » ٠

وقال جواد بولس : « بعد جلاء المصريين عن لبنان حدثت تعقيدات داخلية جديدة ٠٠٠ **واما زعماء الدروز فقد عزموا ألا يُسلموا من جديد بسلطةِ آل شهاب،لما حاقهم بِعَهدِ بَشير الثاني من سُوء** » ٠ واكمل « **طالبوا (الدروز) باستعادةِ سلطتهم واراضيهم التي صادرَها بَشير الثاني** » ٠ ثم تابع في المرجع نفسه : « كان الانكليز،حِفاظا على سلامة طريق الهند ، يعتمدون على المسيحيين اللبنانيين ، لإقصاء المصريين ٠ ٠ وعندما فشلتْ مساعيهم ٠٠٠ باتجاه انظار المسيحيين الى فرنسا ، حاولوا ان يستميلوا الدروز لكي يوازنوا النفوذ الفرنسي » ٠ واردف متابعا : « كان سليم باشا ، حاكم بيروت التركي يُرسل للفريقين (الدرزي والمسيحي) صناديقَ البارود والرصاص لكي يشعل نار الفتنة ١٨٤١ ٠٠ » (٢٢)

علينا نحن اللبنانيين ، ان نعذرَ المستعمرَ في احابيله وأراجيفه ، لان الخديعة خُلقُه الاصيل منذ كان ، كما علينا ان نُندّد بعنفٍ ، بالسياسة الوطنية التي كان يتّبعها الحكام المواطنون ، والتي شوّهتْ سابقًا ولاحقا وجهَ هذا البلد العزيز ٠ فلْنصغ الى **فيلسوف الفريكة** ، يقول موجزًا : « **ان مساندةَ تلك الفئة لابراهيم باشا بمَحاربة الدروز ، مِما اوجدَ مذابحَ عام ١٨٤٥ ، وهذه المذابح سبّبت سنة الستين** » (٢٣) ما كان اغنانا عن موازرةِ ابراهيمَ ويعقوب ، موازرةٍ تدفعُ بالوطن دفعًا الى جحيم تقاتلٍ وتنابذٍ وانفصام ، بعد توثق عرى المودة والتضامن طيلة اجيال ، موازرة وتضحيات للاجنبي،لا تُغني الوطن بقلامة ظفر ٠ فيا ليت ارتفعَ مِخرزٌ في يد لبنانيٍّ بطلٍ ، يفقأُ به عينَيّ الانانية الرعناء ، التي بذرت زُؤانَ الشِقاق في اجمل الخمائل ٠

هل تتّعظُ الشبيبةُ الطالعةُ بما فجّرتهُ تلك الانانيةُ والعصبيةُ ومواكبة

المستعمرين ، من فِتَنٍ ومَذابحَ في الشعب الطيّب ، الذي اتخذ لبنانَ له مهاداً آمنة عزيزة ، فليعدْ الى الوثائق اللاحقةِ ويعتبر ؟؟

قال (Sir Hunter. W. P. expedition to Syria V. 1 P. 12) «وُزّع بعض الآف من البندقيات على سكان الجبل الذين هبطوا بأعداد كبيرة الى جونيه للتعبير عن ولائهم للسلطان ٠٠ كما وزعوا على الفلاحين على الساحل بين بيروت وصيدا» نقلا عن اندرسون(٢٤) ويثبت صحةهذا القول ،ما ورد في رسالة طانيوس شاهين تاريخ اول حزيران ٨٦٠ في مجلة العمل الشهري رقم (٨) (موقع الوثائق) (٢٥) ٠

ويزيد التثبيتَ خطابُ نابليون الثالث في ٧ اب ١٨٦٠ : التاكيد على الدور الصليبي وجهود فرنسا لتحقيق الاهداف التي فشل في الوصول اليها نابليون الاول (وثائق(٢٦)) ٠

« انها وثائق آثرنا تسجيلَها في موضعه لِنفي اي شك » ٠

ولم يكن ليمرّ في خلَد هؤلاء انه سياتي يومٌ يقفُ فيه نائبُ الامة الفرنسية السيد Deschanel في ٢٩ شباط ١٨٨٨ ليقول : « عندما كان رجالات الثورة الفرنسية ١٧٩٣ يقطعون رؤوس الاساقفةعلى المقصلة و ٠٠ و ٠٠ ، في هذه الاثناء كانوا يبعثون الى مُمثليهم في استانبول بأوامرَ رسمية ، ان يسايروا دومًا الاساقفةَ في الشرق وان يحضروا القِدّاسَ وان يحافظوا على التقاليد المرعيّة سابقًا » (٢٧) ٠

لِنمعنْ ، في رِياء المستعمرين ، ولْنتخذهُ عِبرةً لنا لا درسًا نقتدي به ٠ فهل مِن عملٍ حازم ابدته الدول الغربية في مذابح الارمن ؟ اما كان التواطؤ يطغي على روح الدين والانسانية معا ؟ فما بالُهم لا يعنون الا بلبنان وطوائفه ؟؟ اي أمٍ حنونٍ هم : اولئكَ ٠٠ واولئك ٠٠

فلنتأملّ بِرويةٍ وتجرد ٠٠٠ وليتعظّ الناشئةُ من ابناء لبنان ويُدركوا ان يدَ المستعمِر ، لا تطمعُ بغير الاستثمار ، والابتزاز ، دونما مراعاة للارتباطات والمبادىء والمواثيق ٠ اما الدِينُ فان القيّمين عليه هم الذين يُعززونه ويشوهونه٠

وانه لَيمضّني =لولا الاضطرارُ الى التوضيح والتاكيد= ان انقل ما صرح

به المؤرخ فيليب حتي ، في كتابه : لبنان في التاريخ تصريحا شجاعًا مجردا . قال : « يشدد العقال (الدروز) في تعليمهم ووعظهم ، على التمسكِ بالفضائل وطرحِ الرذائل ، (كالسرقة والكذب والزنا والسكر) . والدرزي العاقلُ ... يترفعُ عن الاغتيابِ والنميمة . ومن اتى بواحدةٍ منها ، يُطرَدُ من الجماعة » . (٢٨) .

ويتابع المؤرخ : « اما رجالُ الدين من الموارنةْ فكانوا يهاجمون العدوّ ، بِسَيلٍ من الاحتجاجات والشتائم ، ويُشجعونَ اتباعَهم على متابعة القتال ، بشتى الوسائل والوعود . وقد كان دورُ الاكليروس في هذهِ الفِتنةِ (عام ٨٦٠) أقربَ الى الضَررِ منهُ الى النَفع » . (٢٩)

اما خلاصةُ ما تمخّض به العهد الشهابي طوالَ قرنٍ ونصف ، فهذه ثماره اليانعة :

١ ـ **بعثُ القيسية واليمنية وتفجيرُها** بعد غفوةٍ طويلة الامد ، واغراق البلاد في لجة من الدماء .

٢ ـ **محاولةُ فرضِ ضريبة على الشاشيّات التي يعتمُّ بها الشيوخ وتأتزرُ السيدات ، مما سبب تَسكعَ الامير يوسف شهاب وخذلانه** ونشر بذور الحقد والسخط في صدور الموتورين .

٣ ـ **تنكّرُ بشير الثاني لكلِ فضيلة** ، وتبنّيه سياسةَ الغاية تبررُ الواسطة مهما وَخمتْ ، واسترْلامه طورًا للباب العالي ، وطورًا **مَسكنتهُ وتسميته بعبدٍ رِقّ لدى** ابراهيم باشا (٣٠) وعنجهيّته الجوفاء =حسب نص الوثيقة = مما فجر الضغائن واسال نهرًا من الدم البريء . وما كان ما لاكتهُ الوثائق ليحصل في البلاد ، لو كانت الصدور مشحونة بإلفتِها السابقة وحبها الاخوي القديم .

هذه الشوائبُ في حكام لبنان ، دفعتْ به دفعا مُعجلًا الى فِتنٍ وتقاتل وتشريد ، وزرعت في صدر شعبه جراحا ، زادتها انحرافاتُ وعَصبياتُ القيّمين على الحكم ، في لبنانَ تعميقا . فليت هؤلاء تلقنوا من العهود السابقة للشهابية، دروسَ الالفةِ والتضامنِ والفِداءِ ، في سبيل لبنان : ارضًا وشعبًا .

مُتمنين اخرَ المطاف ، ألا يؤخَذ ايُّ مسؤول بالعصبية العمياء والغرور الارعن ، بل يرتدون الى نبذِ الضغينة ، والتعايش باخلاصٍ ومساواة ، والعمل الجماعيّ على دعمِ وحدةِ هذا البلد ، وتوطيد استقلاله : مادةً وروحًا .

الهوامش

١ ـ فيليب حتي ـ لبنان في التاريخ ص : ٥٠٢ مع وثيقة لاحقة ٠

٢ ـ تاريخ الاقطار العربية الحديثة ص : ٣٢٠

٣ ـ حتي المرجع السابق ص : ٤٧٢ ٠

٤ ـ المرجع نفسه ص : ٤٧٤ ـ ٤٧٥ ٠

٥ ـ المرجع نفسه ص : ٤٧٥ ٠

٦ ـ عارف ابو شقرا ص : ٦٦ ـ توفيق سلمان اضواء على مسلك التوحيد ص : ١٩٩ ـ القاضي امين طليع ، مشيخة العقل ص : ٩٤ ٠

٧ ـ حتي ص : ٤٨٦ ٠

٨ ـ حتي ص : ٥٠٤ ـ حيدر شهاب ص : ٥٥٦ ٠

٩ ـ حتي ص : ٥٠٥ ٠

١٠ ـ حتي ص : ٥٠٥ ٠

١١ ـ المرجع نفسه ص : ٥٠٥٠

١٢ ـ المرجع نفسه ص : ٥١٥ ٠

١٣ ـ جريدة زحلة الفتاة تاريخ ٢٤ ت١ ٩٢٥ لعيسى اسكندر معلوف ٠

١٤ ـ المرجع والعدد نفسهما ٠

١٥ ـ المرجع نفسه وابراهيم باشا في سوريا ، لسليمان ابو عزالدين (معارك حاصبيا) ٠

١٦ ـ ثورة الدروز ، المكتبة الحديثة ص : ٥٢ ٠

١٧ ـ لبنان في التاريخ ص : ٥١٤ ٠

١٨ـ حتي المرجع نفسه وقسطنطين باشا (مذكرات تاريخية حريصا عام ١٩٢٠ ص : ١٥٠ ٠

١٩ ـ حتي المرجع نفسه والجنرال دي كرو (الحياة العسكرية ج ١ عام ١٨٩٥ ص : ٢٨٩ ٠

٢٠ ـ لبنان في التاريخ ص: ٣٢٠ ٠

٢١ ـ الصغير ص : ٨٣ ٠

٢٢ ـ تاريخ الاقطار العربية ص : ١٥٦ وتاريخ لبنان ص : ٢٥٢ وعادل اسماعيل ص : ١٤٤ و ١٤٥ ٠

٢٣ ـ النكبات ص : ١٤٧ ٠

٢٤ ـ ثورة وفتنة في لبنان ليوسف يزبك وابراهيم عقيقي سنة ١٩٣٨ (صورة عنها بين الوثائق) ٠

٢٥ ـ وثيقة من طانيوس شاهين اثبتتها مجلة العمل الكتائبية ص : ١٠٦ (مع الوثائق هنا) ٠

٢٦ ـ وثيقة نابليون (مع الوثائق) ٠

٢٧ ـ ابو صوان ، المسالة السياسية السورية ص : ٥٠ وزين نورالدين زين (الوثائق اللبنانية ص ١٩٤ مثبتة مع الوثائق هنا ٠

٢٨ ـ ص : ٤٩٦ ٠

٢٩ ـ ص : ٥٢١ ٠

٣٠ ـ راجع الوثائق اللاحقة ٠

الوثائق

الهوامش

١ ـ فيليب حتي ـ لبنان في التاريخ ص : ٢٠٢ مع وثيقة لاحقة ·

٢ ـ تاريخ الاقطار العربية الحديثة ص : ٣٢·

٣ ـ حتي المرجع السابق ص : ٤٧٦ ·

٤ ـ المرجع نفسه ص : ٤٧٤ ـ ٤٧٥·
٥ ـ المرجع نفسه ص : ٤٧٥ ·

٦ ـ عارف ابو شقـــرا ص : ٦٦ ـ توفيق سلمان شبوام على مسلك التوحيد ص : ١٩٦ ـ القاضي امين طليـــع : اشبيبة العقل ص : ٩٤ ·

٧ ـ حتي ص : ٤٨٦ ·

٨ ـ حتي ص : ٤٠١ ـ حيدر شهـاب ص : ٥٥٦ ·

٩ ـ حتي ص : ٥٠٥ ·

١٠ ـ حتي ص : ٥٠٥ ·

١١ ـ المرجع نفسه ص : ٥٠٥·

١٢ ـ المرجع نفسه ص : ٥١٥

١٣ ـ جريدة رحلة الفتاة تاريـــخ ٢٤ ت ١٩٢٥ لعيسى اسكندر معلوف ·

١٤ ـ المرجع والعدد نفسهما ·

١٥ ـ المرجع نفسه وابراهيم باشا في سوريا · لسليمان ابو عزالدين (محـاركه ماضيها)

١٦ ـ ثورة الدروز · الكتبة الحديثـة ص : ٥٦ ·

١٧ ـ لبنان في التاريخ ص : ٥١٨ ·

١٨ ـ حتي المرجع نفسه وقسطنطيــن باشا (مذكرات تاريخية حررها سنــة ١٩٣٦ ص : ١٥) ·

١٩ ـ حتي المرجع نفسه والمهنـــدس دي كري (الحياة العسكرية في ١ عــام ١٨٩٥ ص : ٢٨٩ ·

٢٠ ـ لبنان في التاريخ ص : ٣٢٠

٢١ ـ الجمهور ص : ٨٢ ·

٢٢ ـ تاريخ الاقطار العربيــة ص : ١٥٦ وتاريخ لبنان ص : ٢٥٦ ومحمد اسماعيل ص : ١٤٤ و ١٤٥ ·

٢٣ ـ النكبات ص : ٦٤٧ ·

٢٤ ـ ثورة وفتنة في لبنان ليوســف مزيك وابراهيم عطيفي سنة ١٩٣٨ (مصورة مع الوثائق) ·

٢٥ ـ وثيقة من طالبوس شاهيـــن اثبتتها مجلة العمل الكتائبية ص : ١٠٦ (مع الوثائق هنا) ·

٢٦ ـ وثيقة نابليون (مع الوثائق)

٢٧ ـ ابو شقرا · الحركة السياسية الثورية ص : ٢٠٣ ومتن فوزالدين ريـــن (الوثائق اللبنانية ص ١٩٤ مثبتة مـــع الوثائق هنا ·

٢٨ ـ ص : ٤٩٦ ·

٢٩ ـ ص : ٥٢٦ ·

٣٠ ـ راجع الوثائق اللاحقة ·

نقلا عن : تاريخ الثورة الدرزية سنة (٨٣٤ ـ ٨٣٨) المؤرخ : اسد رُستم (مكتبة الجامعة الاميركية) .

رسالة الامير بشير الثاني الى ابراهيم باشا المصري

محفظه (٢٠١) عابدين رقم (١٧) ٥ محرم ١٢٥١ هـ

غب لثم الاذيال يعرض عَبدُ بابكُم انه قبل هذا اعرضنا لدولتكم بطلب انفار للعسكرية .. والذي نتج انهم (الدروز) بالرضى لا يعطونَ الانفار المطلوبة ... ما علمنا كيفية امر دولتكم فاذا ماطلوا هل نظهر لهم الشدة ام لا .. **وحيث اني عَبدٌ رِقّ** لهذهِ الدولةِ السعيدة ولا قصدَ لي الا **دوامي تحت ذيل الرضـــى** .. فامروني بما يُستحسن لدى دولتكم ...

بيده

(بشير شهاب)

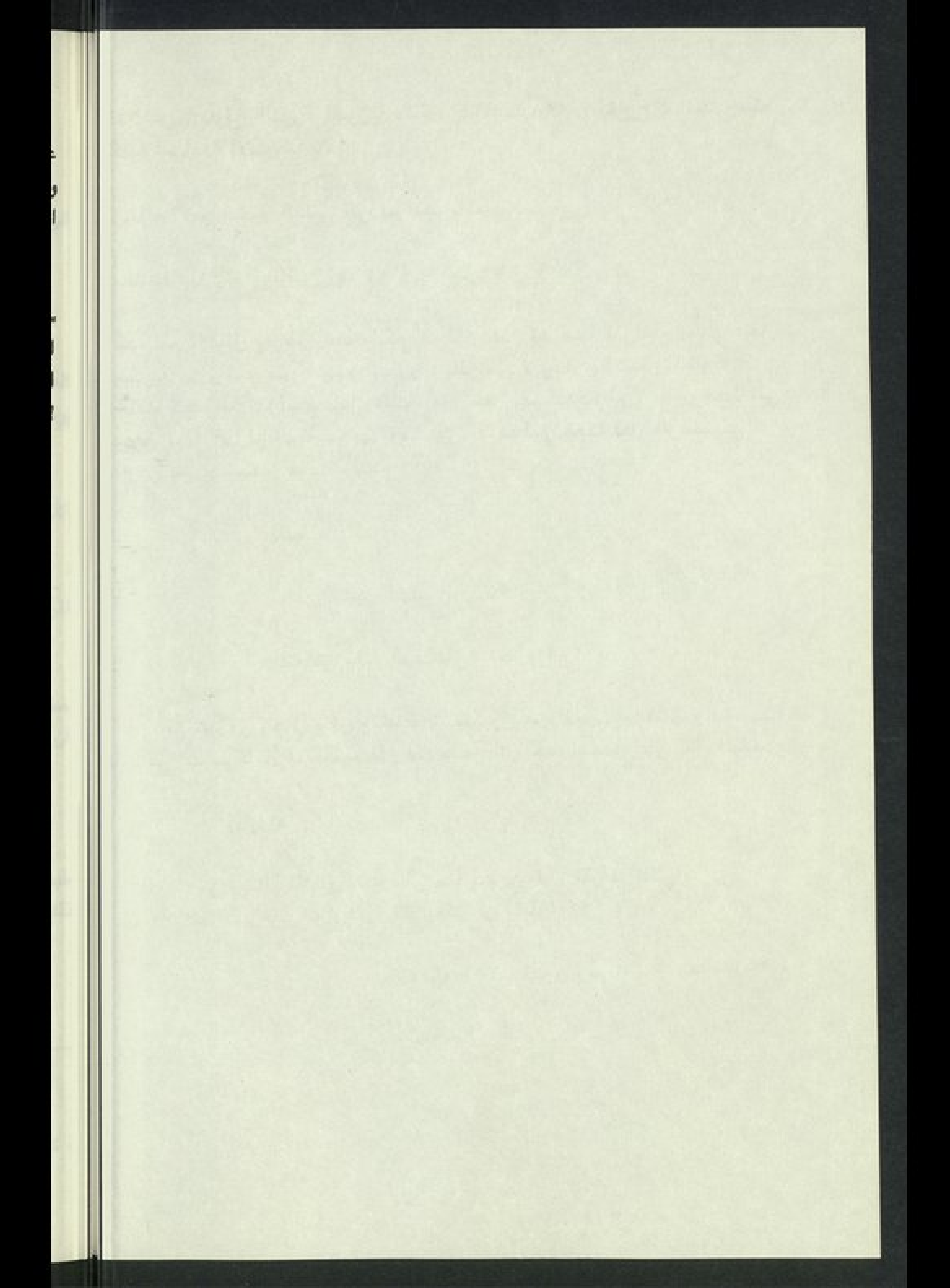
التعليق على الرسالة ٨ محرم ٢٥١ هـ

...**ان الدروز رجالُ بأسٍ ونشاط** لا يتهربون من الحرب والقتال واذا مـــا بقيت في ايديهم كاملُ اسلحتهم فان ذلك يدعو الى خطرٍ مُحدقٍ على امن البلاد .

(ابراهيم)

من رسالة للامير بشير الى حنّا بحري بك (الموفد الملكي)
« .. اما اذا اخيفوا وأرهبوا فقد يمكن ان يقبلوا ... »

محفظه ٢٥١ عابدين رقم (٨) ٥ محرم ٢٥١ هـ



والامير بشير الثاني الذي حاول تنصيرَ الدروز ايام امجاد نابليون وكـان عميلا للجزار ثم لِنابليون ثم للبريطانيين ثم لابراهيم باشا ، يُتهم الدروز بانكار وجود الله ٠ فقبل هربه الخامس والاخير من لبنان وجه الى الموارنةِ التعميـمَ التالي نصه ، بغية اثارة الفتنة بين ابناء الشعب الواحد :

« انني اخاطبْ كل مسيحيٍ يعيش في لبنان وخاضع لسلطاني عندما اقول ان سعادة ولي عهد مصر ـ اعنيَ ابراهيم باشا ـ يتعهد ان يقدمَ لكم ستةَ عشـر الفِ بندقية ، لِحماية انفسكم ومحاربة اعدائِكم الدروز ، الذين ينكرون وجـود الله ، ويتحيَّنون الفرصة للانقضاض عليكم ٠ وتستطيعون ان تورثوا هذا السلاح لاولادكم واحفادِكم مِن بعدكم » ٠ (٢)

وكان الامير بشير قد امر بهدم الجوامع في القرى الدرزية ٠ واخر ٠ ٠

من كتاب غالب ابو مصلح (الدروز في فلسطين المحتلة)

---

(١) صبري جريس ، المصدر السابق ، ص ـ ٢٣٦ ٠

(2) Fred Massy , op. cit. p. 62

محاولة ناپليون بوناپرت :

عندما توجه ناپوليون بوناپرت الى برّ الشام ، وحاصر عكا ، كتب رسالة الى الامير بشير ، (المعروف بعمالته ، يَعِدُ فيها باقامة دولة درزية) :

« مخيم عكا ٢٠ اذار ١٧٩٨ الى **الامير بشير**

بعد السيطرة على مصر دخلتُ صحراءَ سيناء في سوريا ، فاتيت الى قلعة العريش ثم الى غزة ، ثم الى يافا بعد ان التقيت جيوشَ الجزار وسحقتها ومنذ يومين وصلتُ عكا ، وانا احاصرهُ الان ·

وأُسرعُ الى اعلامك بكل ذلك ، لانني لا اشك انك تفرحُ لهزائم هذا الطاغية الذي سببَ الكثيرَ من الذعر الى الانسانية عامةً **والدروزِ الاباةِ بشكلٍ خاص** ·

ورغبتي المخلصة هي ان اقيمَ للدروزِ استقلالَهم واعطيَهم مدينةَ بيروت ذات المرفأ كَمركزٍ تجاريٍ لهم ·

لذلك فانني ارغب في ان **تاتي شخصيًا لمقابلتي** ، او ان ترسل من يمثلك لرسم خطةٍ للتغلبِ على عدونا المشترك · ويمكنك ان تذيعَ في جميع القرى الدرزية ، ان كل مَن ياتي لنا بالمؤن ، وخاصة الخمر ، سيكافأ بسخاء » ·

(الامضاء) نابليون (١)

فكانت **محاولةُ نابليونَ اقامةَ دولة درزية** ، هي النسخة الاولى التي اعاد طبعها الاستعمار الغربي ، وما زال يحاول ان يحقق هذا المخطط النابوليوني · ذلك بجانب محاولة اقامة الدولة اليهودية ·

---

(1) F. Massy , op. cit. p. 51-52

• كتاب غالب ابو مصلح ، دروز فلسطين ·

الوثائق اللبنانية ص : ١٢٨ « لزين نور الدين زين » ومجلة الكتائب العمل ت١ ١٩٧٧ التي تحوي تَجَنّياً رخيصًا على الدروز ٠

خطاب الامبراطور نابليون الثالث

الى جنود الحملة (الفرنسية) المرسلة الى الشام

٧ اب ـ اغسطس ١٨٦٠

(نقلا عن سمعان الخازن : يوسف بك كرم قائمقام نصارى لبنان ٠ مطبعة المرسلين اللبنانيين ، جونيه ، ١٩٥٤ ، ص ١٠٧ ، وانظر كذلك مجموعة المحررات السياسية ، ج٢ ، ص ٢٥١ ـ ٢٥٢) ٠

نص الوثيقة

ايها الجنود

انكم مسافرون الى سوريه ٠ ففرنسا تُحيي بسرور حملةً غايتها الوحيدة نصرُ حقوق العدالة والانسانية ٠

لستم بذاهبين لمحاربة احدى الدول بل لِمساعدةِ السلطانِ على اخضاع رعايا اعماها تعصبُ الاجيالِ الغابرة ٠

ستقومون بواجبكم في هذه الارض السحيقة الغنية بتذكارات مجيدة فتبرهنون على انكم اولادُ اولئك الابطالِ الذين حملوا علمَ (١) المسيح في تلك البلاد بعزٍ وشرف ٠

ان عددكم قليل انما انا واثق بأن بسالتكم وسطوتكم تغنيانكم عن كثرة العدد لان الشعوبَ تعلم ان حيثما يجتاز علمُ فرنسا فهناك غاية نبيلة تتقدمه وشعبٌ عظيم يتبعه ٠

---

(١) عنى بذلك الحملات الصليبية ٠

الوثائق (زين زين) المرجع السابق ص ١١٣ ، ومجلة العمل الكتائبية في ت ١ ٩٧٧

رسالة من طانيوس شاهين الى قرى الفتوح والكفور
لمواجهة الحرب الاهلية الطائفية بين الموارنة والدروز
اول حزيران - يونيو ١٨٦٠

نص الوثيقة

قرايا الفتوح والكفور

جناب اخواننا المحترمين

غب الاحتشام حيث قر الراي اننا كافة نقوم بجمهورنا لاجل مساعدة اخوتنا المسيحيين والمحاماة عنهم وصيانة محلاتنا فيلزم ان تحضر من طرفكم نقالة العدة ويحضر ايضا مع جمهوركم نسا عاقلات لتقدم الماء لجمهوركم ويلزم ان تختاروا نفرَين عاقلَين لان يكونوا في الديوان في الزُوق ولا يلزم نحتّ همتكم وغيرتم اكثر ودمتم .

١ حزيران ١٨٦٠

اخوكم
طانيوس شاهين

بخصوص الزخاير موجوده لا يكون فكره له

ويلزم تحضر حضرات الآباء الكهنة حيث هذه غَيرةٌ مسيحية

من كتاب الوثائق اللبنانية ص : ١٨٩ زين نور الدين زين :

(٦) كان الاسطولُ المشترَك يتألف من ثلاث وعشرين سفينة حربية بريطانية ومن ثلاث سفن نمساوية ، وخمس تركية ٠ راجع :

Hunter , W.P. , Expedition to Syria , Vol. I , p. 12

« وُزع بضعةُ الافٍ من البندقيات على سكان الجَبل الذين هبطوا بأعداد كبيرة الى جونية لِلتعبير عن ولائهم للسلطان ٠٠٠ وفي ٢٠ ايلول توجه الضابط اوستن ، ربّان السفينة الحربية سيكلوبس (Cyclops) يرافقه السيد وود (Wood) وجماعة عن وجهاء الجبل الى الساحل السوري الواقع بين بيروت وصيدا لكي يوزعوا مزيدا من السلاح على الفلاحين اذا كان ذلك مُمكنا ٠٠٠ ، المرجع السابق ذاته ص ٧٤ و ٧٦ ٠

يا اهالي لبنان الذين تسنى لي ان اراكم من على ظهر بارجي ، ادعوكم الى الثورة والى خلع نير الظلم الذي تئنون تحت ثقله ٠ واننا نتوقع بين ساعة واخرى وصول الجنود والسلاح والذخيرة من استانبول ، سنحمي شاطئكم من هجماتِ الجيش المصري اذا ما حاول ازعاجكم ٠

يا جنود السلطان ، انتم يا من أُخرجتم من بيوتكم ودياركم بالمكر والخديعة وقذفوا بكم لتحاربوا في رمال مصر الحارقة ، ومن ثم نقلوكم الى سوريا ، انني ادعوكم باسم الدول الحليفة العظمى الى ان تعودوا الى ولائكم القديم ، الى احضان السلطان ٠ هذا واننا سنتغاضى عن الاحداث التي وقعت ، وسوف نتناساها ٠ كما انه ستُدفع لكم مرتباتكم المتأخرة التي لم تدفع ٠

راجع :
Hunter , W.P. ,
Narrative of the Late
Expedition to Syria
Vol. 1 , pp. 7-8.

التوقيع
شارلز نابير
(Charles Napier)

الوثائق اللبنانية ص : ١٩٢

يوسف يزبك وانطون عقيقي ، ثورة وفتنة في لبنان (بيروت ، ١٩٣٨) .

(٢٣) في رسالة بعث بها السير هـ. بولور (Bulwer) ، السفير البريطاني الى وزير الخارجية البريطانية ، اللورد ج. رسل (Russell) من استانبول ومؤرخة ١٧ تموز (١٨٦٠) ، يقول : « لدينا الان امران ينبغي لنا ان نأخذهما بعين الاعتبار ، واعني الاسباب التي اسفرت عنها الاحداث الاخيرة ، وما ينبغي لنا ان نفعله لمعالجة الوضع . اما في ما يتعلق بالاسباب فاني ارى ان المسؤولية تقع على عدد من الفُرقاء ، اولاً الاتراك الذين لم يهتموا الاهتمام الكافي ـ ولم يكترثوا بأن يهتموا ـ بالاحتجاجات التي كانت ترفع اليهم ، لافتةً نظرهم الى الحالة المتردية التي تجد سوريا نفسها تتخبطُ فيها . ثانيًا اولئك الاشخاص الذين ساهموا ، بصورةٍ ما ، في جرّ البلادِ السورية الى المأزق الذي وصلت اليه » .

ويعود المرجع السابق (يزبك وعقيقي) لِيكرر :

« هناك رأي حول هذه القضية ـ وهو رأي ربما كان على كثير من التطرف ـ يقول بأن الاسباب التي جرت المصائب والفواجع تعود الى الدسائس التي كان خديوي مصر يحوكها ، والى الدسائس التي كان يُدبرها الموارنة ، بالاشتراك مع الموظفين الفرنسيين ، وايضا دسائس الحكومةِ الروسية . وهو رأي لا اجد نفسي في وضع استطيع فيه اثباته ، غير ان الواجب يقتضي ان ارفعه الى سيادتكم . وهذه اسباب وجيهة (يقول اصحاب هذا الرأي) تُعلل لنا سبب شعور الدروز بالنقمة والتخوف مما دفعهم الى حالة من اليأس ، كما انها كانت سببا في شل نشاطِ السلطات العثمانية ، ووضعت المسلمين بصورة عامة في حالة نفسية دفعتْ بهم الى التحريض على القتل والنهب عوضا عن مقاومة الدهماء التي قامت بهذه الاعمال الشائنة في زحلة وحاصبيا ودمشق ، والتي لا تتناسب مع التقليد العربي » . « ... ومن جهة اخرى هناك اناسٌ لا يقلون عن هؤلاء تطرفا في اتهامهم الاتراك . يقولون ان هذه الاحداث ليست سوى مؤامرة هدفها القضاءُ على الطائفة المارونية على ايدي الدروز ، ثم القضاءُ على الدروز انفسهم قصاصًا لهم عما فعلوه بالموارنة ، وفي اخر الامر يُفلح الاتراكُ في تثبيت سيادتهم . وربما كان اقرب الى الحقيقة ان يفتش المرءُ عن الاسبابِ الحقيقية بين هذه الرواية وتلك » .

راجع : Great Britain , F.O. , Correspondence Relating the Affairs of Syria (Confidential) April , 1861 , part , 1 , pp. 33-34.

الوثائق اللبنانية ص : ١٩٣

(٣٠) في سنة ١٦٨٢ عندما زحف الصدرُ الاعظم ، قرا مصطفى ، على مدينة فيينا على رأس جيش قوامه اربعمئة الف جندي « كان بعضُ الضباط وقــواد ومهندسي ذلك الجيش من الفرنسيين الذين اعارهم لويسُ الرابعَ عشرَ للخدمة في تركيا بغية ان يرى قوةَ الامبراطورية النمساوية العسكرية تتمرغُ في التراب » .
Lane-Poole , Stanley , Turkey , p. 226

(٣١) نقلا عن : Ristelhueber , Rence , in Les Traditions Françaises au Liban, p. 288.

وذكر المرجع السابق ص : ١٩٤ :

في ٢٩ شباط من سنة ١٨٨٨ قال بول ديشانل (Deschanel) في خطابه في مجلس النواب الفرنسي : « ان رجالات الثورة الفرنسية ، وليس اعضاء حكومة المُديرين فقط ، بل اعضاءَ المؤتمر ولجنةَ الامن العام في سنة ١٧٩٣ عندما بلغ الترويع اوجَهُ ، وعندما كانوا يقطعون رؤوسَ الاساقفة على المِقصلة وعندمـــا كانوا يُحرمون اجتماعات المصلين في فرنسا ، اقول ، في هذه الاثناء كانـــوا يَبعثون الى مُمثلينا في استانبول باوامرَ رسمية ان يسايروا دوماً الاساقفـــةَ وجموعَ المُصلين في الشرق ، وان يحضروا القِداس ، وان يحافظوا على التقاليد التي كان يتبعها مُمثلونا ايام الملكية القديمة » .

وذكر في كتابه بالمرجع نفسه :
Aboussouan B. Le Preblème Politique Syrien , P. 50.

(٣٢) من الامور المعروفة جيدا ان نابوليون كان يطمحُ يوما الى ان يقتســم الامبراطورية العثمانية بينه وبين القيصر اسكندر الروسي . « ان الامبراطور اتفق مع القيصر اسكندر على تقسيم المشرق ، وعلى ان تكون حصةُ فرنســا مصرَ وسوريا ... »

مَطلع الإستقلال

عناصر البحث :

أ ـ اعتقال الحكومة الشرعية

ب ـ حكومة مؤقتة في بشامون

جـ ـ مجابهة المستعمر ودحره

د ـ دور الدروز فيه

هـ ـ خريطة ووثيقة

الوثائق اللبنانية ص : ١٩٣

(٣٠) في سنة ١٦٨٣ عندما زحف الصدر الأعظم قره مصطفى على مدينة فيينا على رأس جيش قوامه اربعمئة الف جندي ، كان بعض الضباط وقـواد ومهندسي تلك الجيش من الفرنسيين الذين اعارهم لويس الرابع عشر للخدمة في تركيا بغية أن يرى قوة الامبراطورية النمساوية العسكرية تتمرغ في التراب .
Lane-Poole , Stanley , Turkey , p. 226.

(٣١) نقلا عن : Ristelhueber , René , Les Traditions Françaises au Liban , p.158.

وذكر المرجع السابق ص : ١٩٤

في ٢٩ شباط من سنة ١٨٨٨ قال بول ديشانيل (Paul Deschanel) في خطابه في مجلس النواب الفرنسي : « ان رجال الثورة الفرنسية لم يكونوا المتعصبين الكبيرين فقط ، بل اعضاء المؤتمر ولجنة الأمن العام في سنة ١٧٩٣ عندما بلغ الشروع اوجَهُ ، وعندما كانوا ... كانوا يحترمون اجتماعات المسلمين في فرنسا ، أقول ، في هذه الاثناء كانوا يطلبون الى سفيرنا في استانبول بأن ... ويحترم المسلمين في الشرق ، وأن يحترموا الناس ، وان يحافظوا على التقاليد التي كان يتمتع سفيرنا ايام الملكية القديمة » .

وذكر في كتابه بالمرجع نفسه
Aboussouan B. Le Problème Politique Syrien , P. 50.

(٣٢) من الامور المعروفة جيدا ان نابوليون كان يطمح يوما الى ان يقتسم الامبراطورية العثمانية بينه وبين القيصر اسكندر الروسي ، ان الامبراطور اتفق مع القيصر اسكندر على تقسيم الشرق ، وعلى ان تكون حصة فرنسا مصر وسورية .

مَطلع الاستقلال

بعد أعتقال الرئيس بشارة خليل الخوري ، ورياض الصلح وجماعتهما في راشيّا ، من قِبَل المفوضيةِ الفرنسيةِ الحاكمة ،٠تساءلَ اولو الامر ، اين ستستقرّ حكومتهم المؤقتة الثائرة ؟؟ في الكُفور ؟؟ في عَينِ سِعاده ؟؟ على البَسطـــة والشياح ؟؟ اين ؟؟

لم يجدوا ، سوى المقرّ التنوخيّ مُستقرّا حصينا ، وكان ما ارادوا : **بشامون**، المجاورة لعرمون وسرحمول ، المنطقة التي انشأت **حِجى بُحترٍ وسيفَ الديـــن بحيى تنوخ** ٠

تشكَّلت الحكومة هناك ، من رئيسٍ هو **حبيب ابو شهلا** ، وقائد عام ، **الامير مجيد ارسلان** ورئيس المجلس النيابي : **صبري حماده** ٠

رحَّب اهلُ القرية بِمَقدم الحكومة الجديدة المناضلة ، واخذوا يتسابقون فـــي تقديم الذبائح قائلين : انتم في ضيافتنا ، ولن تطيرَ شعرةٌ من رؤوسكم ، حتى نُغرقَ احراجَ المنطقة بِجثثِ المستعمرين ٠ وبدت على هؤلاء المستضافين ،امارات الزهو والاعتزاز ، فسهر الشبانُ الليالي مُدججين مترقبين متربصين ، في حين كان الكهول يَشحذون فؤوسَهم وسيوفَهم استعدادًا للمعركة ٠ وقد تطوعـــت القرى المجاورةُ ففتحت أبوابها ، للضيوف المتوافدين كل يوم ، كمـــا اشترك شبابُها في الحراسة ، بانضباطٍ وحماسةٍ فائقة ٠ (١)

وفي أصيل يوم الاثنين في ١٥ ت٢ ٩٤٣ قامت الحكومة المستعمِـــرة بأول هجوم في المصفحات والكميونات الناقلة للجنود ، من سودٍ وبيض ٠ تربّصـــ الثائرون بحذرٍ ويقظةٍ ولم يعمدوا البدءَ باطلاق النار لظروفٍ سياسية ٠ امـــا

الامير مجيد ، فقد رآه المؤلفُ ، ينتفضُ ، وبيده (المُعدّل) متوثبًا للصفوف الامامية ، فتعلق باكتافه الشُبان ، بينهم الشيخُ الطاعن **فريد العماد** ، وحالوا دون تقدمه،مؤكدين له ان الحُراس يملأون غاباتِ الزيتون هناك . (وثيقة اخر البحث) .

وروى الشيخ منير تقي الدين ، المناضلُ الذي لازمَ المعركةَ : « استوقف رئيسُ المجلس شيخًا طاعنا في السن وسأله : الى اين يا عمّ ؟؟

– الى بشامون الى المعركة . قال الرئيس : واين بُندقيتُكَ ؟؟ فامتشقَ الشيخ سيفَهُ الهرمَ الصقيل ، وهزَّهُ بيمناه ، واجابِ بنزقِ الشباب : انه يُساوي الفَ بندقية » . (٢)

وروى احد قواد الحرَس الوطني قائلا : « اوفدتْ احدى الضياع المجاورة خمسين مقاتلا لِبشامون،بينَهم ولد يناهز الثانية عشرة . توزعت الشبانُ على المتاريس ، الا الولدَ ، فقد ظل مكانَه واقفًا يبكي . سأله القائدُ فيمَ بكاؤهُ ؟ فانكبَّ على يده يُقبلها صارخا : اريد ان احارب .. وما برح يبكي حتى الحقه بأبيه » . (اسم الولد : محمد سلمان عبد الخالق، من مَجدل بَعنا) (٣) .

وقد اخذ التلمُّظ والامتعاضُ يتسرّبُ الى صفوف المُدججين ، افراد الحرس الوطني ، لعدم تلقيهم الاوامر بالقتال ، في وقت ، كان المستعمر يحشد الجنودَ العبيد ، طوالَ الحدود . اطل عليهم رئيسُ المجلس مُلطفا الجو المتسعّر، فصرخوا به ، والمعدلاتُ تتراقص بين الجو وايديهم : « بَدْنا نعلّم فرنسا = كِيف بيقلوا الباذنجانْ (يعني السنغال) واخذوا يهتفون : بدنا نْحاربْ .. بدنا نقاتلْ .. بدنا نِقلي باذنجان .. » . وتابعوا :

« بدنا نهزْ سيوفْ العز = واللي بدّو يصيرْ .. يصيرْ .. » (٤) .

ويوم الجمعة في ١٦ ت٢ ٩٤٣ قَدِمَ الكولونيل الفرنسي Ol. Roger من دمشق للتفاوض باسم دولته ، مع حكومة بشامون ، يَصحبهُ الضابط (المجاهد سابقا) شكيب وهاب . قُبيلَ الانتهاء من المحادثات بين الكولونيل والامير مجيد ، قال الاميرُ مُجاملا : **يسرّنا ان يكون برفقتِكَ شكيب ، فَسنحتفظُ به ، لاننا بحاجة اليه . قال الكولونيل : إن شكيبًا لا يتركنا .** التفتَ الاميرُ لفتةَ عُنفوانٍ بشكيب وهاب وصرخ : « **شكيب .. اخوانُك ينادوك** » . **فدوى صوتُ شكيب على**

الفور: « أَبشرْ يا امير » · **وباشَر بنزعِ سِترتهِ العسكرية امام رئيسه الكولونيل** · عندئذٍ التفت المفوضُ روجه للامير ، ودمعة النُبل تملأ عينيه وقال : **لم اتوقّعْ انّ النخوةَ الدرزية ، تبلغ هذا المستوى ، في نفسِ صاحبها** · (٥)

وظهيرة الاحد في ١٩ ت٢ ٩٤٣ ، تناول الرئيسُ ابو شهلا من يَدِ شُبان بعض المنظماتِ في العاصمة ، العلمَ اللبنانيَّ الحاليَّ ، والتفتَ الى القائد العام قائلا : «اني بالنيابة عن رئيس الجمهورية ، ورئيس الحكومة ··· **اضعُ في عِهدتِكَ علمَ لبنان الجديد ، واطلبُ اليكَ ، ان تُدافعَ عنه وتَحميَهُ** ·

فرَكَعَ الامير القائدُ وقبَّلَ العلم ، وقال بخشوعٍ واتّزان : **أُقسم أن أذودَ عنه بدمي ، وابذل في سبيلهِ حياتي** · (٦) **وبعد عشرين دقيقةً : خفقَ العلمُ الاصيلُ، ولأولِ مرةٍ في سماءِ بشامون** ·

الهوامش

١ ـ ولادة استقلال ـ لمنير تقي الدين ص : ٩٨ ـ ١١٦ ·

٢ ـ المرجع نفسه ص : ١٣٤ ·

٤ ـ المرجع نفسه ص : ١٣٧ ·

٥ ـ المرجع السابق ص : ٢٠٤ وتأكيد حرفي لشاهد عيان ومرافق للقائد العام : رشيد حمد ابو شقرا ·

٦ ـ المرجع نفسه ص : ٢١٦ ·

... البحث) .

– الى يشاهون الى المعركة . قال الرئيس : واين بندقيتك ؟! فاستش...

وروى احد افراد الحرس الوطني قائلا : « اوقفت احدى الضياع المجاورة خمسين مقاتلا لبشامون بينهم ولد يناهز الثانية عشرة . توزعت البنادق على المتاريس ، الا الولد . فقد ظل مكانه ... يبكي . سأله القائد لم يبكي ؟ فانكب على يده يقبلها صارخا : اريد ان احارب . وما برح يبكي حتى ...

... الوطني ، لتقدم التقييم الاولى بالقتال . في وقت ، كان المستمعين ... الجنود العديد ... اطل عليهم رئيس المجلس ... فصرخوا به . والمعدلات تتراقص بين الجو وايديهم : « بدنا نعلم فرنسا ... كيف يقاتلوا اللبنانيان (يعني الاستقلال) واطلقوا يهتفون : بدنا نحارب ... بدنا نقاتل ... بدنا نقاتل بالشجعان ... » وتابعوا :

« بدنا نبز سيوف العز = واللي بدو يصير ... يصير ... » (١) .

ويوم الجمعة في ١٦ ت٢ ١٩٤٢ قدم الكولونيل الفرنسي Roger الى ... للتفاوض باسم دولته ، مع حكومة بشامون . بصحبة الضابط ... المجاهد ... شكيب وهاب . قبيل الانتهاء من المحادثات بين الكولونيل والامير مجيد ، قال الامير متسائلا : يسرنا ان يكون ... شكيب ، ... به ، لاننا بحاجة اليه . قال الكولونيل : إن شكيبا لا ... . التفت الامير ... بشكيب وهاب ... شكيب ... فدوى صوت شكيب ...

منطقة بشامون

الجمهورية اللبنانية

عدد ______

بلاغ رقم ١

هاجمت قوات افرنسية مسلحة مركز الحكومة الشرعية في بشامون مساء الاثنين في ١٥ تشرين الثاني ١٩٤٣ فردتها وحدات الحرس الوطني دون خسائر في النفوس وفي صباح اليوم الثاني شنت القوات المصفحة الافرنسية هجوماً عنيفاً على المركز المذكور فردت على اعقابها اربع مرات متوالية حتى الساعة الثالثة بعد الظهر وسقط بعض القتلى والجرحى من الجنود السنغاليين وفقدنا شهيداً واحداً يدعى سعيد فخر الدين من عين عنوب .

وزير الدفاع الوطني

والقائد العام لقوات الحرس الوطني

١٧/١١/٩٤٣



بلاغ الحكومة الشرعية عن المعركة بين الفرنسيين ورجال الحرس الوطني وهو البلاغ الوحيد الذي لم يصدر غيره اذ لم يكن هناك غير شهيد واحد في بشامون خلافاً لتبجح البعض .   الامضاء : مجيد ارسلان

الدّروز

«في فلسطين المحتلة»

عناصر البحث :

أ ـ دور الدروز النضالي قُبيل الاحتلال الاسرائيلي

ب ـ موقفُهم في بدءِ الاحتلال

ج ـ التحيُّل الاسرائيلي

الدروز
«في فلسطين المحتلة»

لمحة عن النشاط الصهيوني

يجدرُ بنا قبل الكلام عن الدروز وعن موقفهم من الاحتلال الصهيوني ، القاءَ نظرةٍ سريعة على تاريخ فلسطين الحديث :

يقول المؤرّخ بورون : « ان اولَ من فكَّر في قيام دولة يهودية في فلسطين هو نابليون بونابرت . وحين فشلت حملتُهُ في عكا ، تبدد حلمُه الذهبي في الاستيلاء على الهند ، وفي انشاء دولتَين على طريقه ، الاولى يهودية والثانية درزية ، تساندانِه في الفتح » . (١)

وفي السبعيناتِ من القرن السابق ، تأسستْ في بريطانيا الشركةُ الاستعمارية السورية الفلسطينية ، يُشرف عليها اليهود . وتلَتْ هذه الحركةَ مساعٍ جدية من انكلترا خاصة ، ومن الدول الاستعمارية كافةً بما فيها اميركا، واقترحتْ اماكنَ متعددةً لإسكان اليهود،لكنهم رفضوها كلها ، مصرّين على فلسطين . حتى كان التزاحمُ الامبريالي ، وتطورُ الاقتصاد في اوربا ، فأحست البورجوازيةُ بخطرِ اليهود ، وتمنّت على دُولِها إزاحتَهم عن الحقل الاقتصادي الذي غدوا هُمْ ، اقطابَهُ .

وكان في سنة ١٩١٧ ان صدر وعدُ بلفور القاضي بحق اليهود في إنشاء دولةٍ لهم بفلسطين . كان على رأس الساسة اليهود في الغرب الصحافيّ (هرتزل) الذي نشرَ (بروتوكول صهيون) في مدينة بال سنة ١٨٩٤ ، وكان بدء الانطلاق الجدّي لهذه الطغمة ، بالعمل على انشاءِ دولتهم في فلسطين .(٢)

ولكي يُغري الاستعمارَ ويضمن المساندةَ الكاملة له ، فقد صرّح يومذاكَ (هرتزلُ) بقوله : « سنكونُ نحن جزءاً من السورِ الاوربيّ المرفوعِ في وجه

آسيا ، وسنكون نحن في الصفوف الاولى من الجبهة ، حماةَ المدنية رخفراءَها ضدّ البربرية » . (٣)

ان الشعب اليهودي مُتفرقٌ في انحاء الدنيا ، وهو حيث يحل يتلبّسُ عادات الشعب الاصيل ، ويتقنُ لغته ، ويُحسن التغلغلَ في القطاع الاقتصادي ، ايّما تغلغل . وقد كان لِاميركا في الربع الاول من القرن العشرين ، الحظ الاوفرُ من النشاط الصهيوني في الاقتصاد والسياسة معًا ، بعد ان لوى عودُ انكلترا ، وبعد ان امتصت منه اللبابَ ، في ما يؤولُ الى ضمانِ تأسيس دولتِها المرتقَبة .

اما اميركا فقد كانت سياستها بين انكماشٍ وانفتاحٍ على الصهاينة ، وقد اكد روزفلت لابْنِ السعود انه : « لن يوافقَ على اي عملٍ اميركي مُعادٍ للشعب العربي » . (٤)

وجاءت الحقيقة الناصعة ، وبرز الدورُ الفاشيستي الصهيوني في اجلى مظاهره ، بواقعةِ (دَيْر ياسين) الوحشية ، على مرأى وبحماية الجيش البريطاني ، قُبيْلَ رحيله . وكان على اثره تشرّدُ المهجرين الفلسطينيين من كل مدينة وقرية ، بعد الضغوط والترويع والتنكيل ، وكان لِليد البريطانية الخبيثة ، النشاطُ الملموسُ في التسويقِ والترحيلِ ، بأساليبها الخادعةِ المعهودة .

اثرَ هذا الترويعِ والتقتيل ، تمَّ للصهاينة تهجيرُ اضخمِ عددٍ من سكان فلسطين العرب ، حيث احتوتهم الدولُ الشقيقة المجاورة .

دور الدروز النضاليُّ قبل الاحتلال الصهيوني

وهنا نطرحُ السؤال الآتي : لماذا لم يترحّلِ الدروز كغيرهم من فلسطين ؟!

الجوابُ هو ان المَوَاطن التي يسكنها معظمُ الدروز ، هي جبلية وعرة ، قليلةُ الخِصب ، وهي ليست على ممرّاتٍ ستراتيجيةٍ هامة بل مُنزوية . فهذا الموقع الطبيعي للدروز ، ازاحَ عنهم الضغطَ الاسرائيليَّ ، فانكمشوا في قُراهم ، يتعاطَونَ الزراعة كعادتهم .

كان عددُ الدروز في فلسطين قُبيل عام ١٩٤٨ لا يزيدُ على (١٧) الف نسمة ، لكنهم تضاعفوا عدًا مع الايام .

اما الدور الذي قاموا به قبل الاحتلال الصهيوني فَجَليل ، رغم ضآلة العدد ورغم ضيقِ اليد · فتَحوا منازلَهم امامَ النازحين السوريين بثورة ٩٢٥ ومدّوا الثورةَ بالاعمال وبعضِ الرجال ·

وفي عام ٩٢٩ تنظّمت عصابةٌ مكافحة هي : « الكفُّ الأَخضرُ » شباناً مناضلين قاموا بهجمات متواصلة على الاحياء اليهودية بين (صفد وعكا وسَمَخ) مما اوجبَ على الحكومة البريطانية ، ان تجهزَ فِرَقَ الشرطة القامعة ، وان تسهر على الامن هناك · وكثيرًا ما كانت هذه العصابة تَنصبُ الكمائنَ للدوريات واليهود معًا · (٥)

وقد اجتمع شملُ جمهورٍ غفيرٍ من اعيان الدروز في بلدة (يَركا) وهناك ، طُرِحَ موضوعُ القتال ضد الاسرائيليين · فأبدى الفلسطينيون الدروزُ اندفاعا كبيرا للعمل على شدّ ازر الثورة بكل ما اوتوا من قوىً مادية ومعنوية · وقد دارت على اثر هذا الاجتماع معركةٌ عنيفة ، برزَ فيها ثباتُهم وتفانيهم في النضال الوطني ، مما اضطر القواتِ الصهيونيةَ على اخلاء مواقعهم في (الهُوشي والكَسابر) وبلغ هناك عددُ الشهداءِ الدروزِ بعد المعركة مئةَ قتيلٍ ومئاتِ الجرحى · (٦)

موقفهم في بدءِ الاحتلال

كان هذا اندفاعًا درزيًا لبنانيًا مُتقدًا ، وكان هناك في فلسطين ، حيث لم يرتفع بعدُ ، مستوى التعليم لِبُعد قراهم عن المدينة وعُسر يدهم · كانت مناقبُ بارزة ، وعزة وطنية تلعجُ في صدورهم · فهذا شابٌ يحمل اقامةً جبرية ، مُثل رسميا ، والجندُ محيطٌ به ، وبابُ السجن على مقربةٍ منه :

سوال « : هل تعتبرُ نفسَك مواطنًا اسرائيليا ؟

جواب : اعتبرُ نفسي مواطنًا ينقصه الشعورُ بالمواطنية ·

س : هل تنتَمي لِحزبٍ يساري ؟

ج : انا صديقٌ لِبعضٍ افراده ·

س : هل تظن ان المُضايقاتِ هي الدافعُ لِمحبتكَ لهم وتلاحمِك معهم ؟

ج : نعم ٠

س : ما هو رأيُكَ في جريدة الهُدى الفلسطينية ؟؟

ج : رأيي انها حين تغدو بُوقًا للشعبِ نتمّنى لها النجاح » ٠ (٧)

وقد برزت (لجنةُ المبادرة الدرزية) لصيانةِ حقوق ابناء القرى والاحتجاج على فرضِ الاقامة الجبرية على كل مناضل ، او كل من يُشتَبه به عازما على النضال العربي ٠ واخذت هذه اللجنة تقوم بالنشاط المطلوب ، والشبان يغلون حقدًا على هذا الغازي الشرِس ، حتى نطق شاعرُ الثورة الفلسطينية الدرزي المعتَقدِ ، مأخوذا بالحماسة اليعرُبية : (٨)

« يا بنتَ من رفَعوا على
الآفاقِ راياتِ التحدّي ٠٠
رُدّي على الخَصمِ الألدّ ٠٠
آن الاوانُ لِأَنْ تردّي ٠٠ »

هذا الشاعرُ هو سميحْ القاسم ، من مواليد (الرامه) ونزيلُ السجون الاسرائيلية بِفتراتٍ متقطعة ، وانه يحمل اقامةً اجبارية ، في معظم الاحيان ٠

من الممتع ومن دواعي الاعتزاز ، ان نذكرَ هذا الموقفَ للشاعر سميح : عُقدتْ ندوةٌ في تلّ اقيف موضوعُها (ثمنُ العدلِ في اسرائيل) حضرها كبارُ القضاة الصهاينة وسميحٌ نفسه ٠ وكان قد رفع سميح للقضاة عريضةً فيها تبكيتٌ فظّ ، اهملتها اللجنة ، فوقفَ فيهم صارخا بأدبٍ وجرأة :

انا من الاقليةِ العربية ، الذين يتعرّضون لِضغوطٍ وتصرفات ، تتنافى مع ابسطِ قواعد العدل ٠٠ آلافٌ من العرب يعانون من أحكامكم ٠

سأله احدُ القضاة : لماذا تطاردُكَ الحكومة أنتَ ؟ ـ **انها تطاردُ آلافَ العرب ٠**

ـ ماذا تقول عن قتلِ الاطفال اليهود في غزة ؟ ـ **المسؤولُ هوَ الاحتلال ٠**

ـ هل تُؤيّدُ المُخرّبين ؟ ـ **المقاومةُ حقٌّ لكل شعبٍ اُحتلّت بلادُه ٠**

ـ نحن منَعنا (الزعران) من الاعتداءِ على العرب ؟ ـ **الذي يعتدي على العرب هو : الحكومة ٠** (٩)

وموقفٌ جريءٌ اخر حدث على اثر مَسيرةٍ صاخبة في ١٣ـ١٠ـ١٩٧٠ ٠ فقد القت السلطةُ الصهيونية القبضَ على بعض الدروز ، استجوبوا عن سبب اشتراكِهم في المسيرةِ ثم وجَّهت السلطة لهم قولَها : لستم عربًا لِتقوموا في المَسيرات بل دروزًا ٠ لفظوها بِلهجةٍ وَقحةٍ عنيفة ، فاتنفض الموقوفون واجابوا بصوتٍ واحد : « ان مذهبَنا درزيّ ، وقوميتَنا عربيةٌ » (١٠) فوَجَم القاضي ، وذهل الحضور لذلك الحزمِ والجراةِ ، في هذا الموقف الحرج ٠

وتقول الجريدة نفسها في عددها ١٩ـ٦ـ٩٧٣ : « لقد تمَّ اعتقالُ ٥٩ شابًا درزيا من هضبة الجولان ، لانهم كانوا يحرضون الاهلين على الامتناع عن دفع ضريبة الدخل للسلطة الاسرائيلية ، وان محاكمةً جرت هنالك ، وصدرت احكامٌ رهيبة ، دفعتْ النسوةَ خارج القاعة لان يَصرخنَ بعنفٍ : « **لماذا تجردتم من الضمير ؟؟ لا نريد منكم مَرحمةً ٠٠ خذوا اطفالَنا معكم ٠٠ محكمتكم مَسرحيّة** » ٠

ان الدروز قِلةٌ بفلسطين **لذلك** فان كل تمرداتهم تؤولُ لِفشلٍ وخراب مُحتم ٠ (١١)

رابينُ ٠٠٠ عُدْ ٠٠

ودلالةً على عُمق ايمان الدروز واخلاصهم للقضيةِ العربية الفلسطينية ، فانه لم يظهر من اي رائدٍ او مُوَجهٍ فيهم ، غيرُ التحريض ، والحثِ على الصمود والصبر ٠ وقد اجتمعت العشيرة في النبي شعيب في ٢٥ نيسان سنة ٩٧٤ غب هجوم بعض المتحمسين على قائدِ شرطة المنطقة ، واثخانه ضربًا لمحاولةِ النَيل من كرامتهم ٠ اجتمعوا ٠٠ وقدِمَ في الوقت المناسب (رابين) بموكبٍ فخم ، على امل انه يُستقبل بما يليق بحاكم ، فكان العكس ٠ كان هُتافٌ طبق الجو : رابين: عُدْ مِن حيثُ اتيتَ ٠٠٠ كلنا عرب ٠ (١٢)

ولم يكن السجن ولا الارهابُ والتعذيب لِيفتَّ في عضدِ المناضلين الدروز ،

لكن الذي كان يحزّ في نفوسهم ، فيكظمون الغيظَ والحقدَ على الصهاينة ، انما هو الحاجة لِسَدٍ منيعٍ من صدورهم يستطيع ان يقفَ بوجهِ العدو ويُعلمه الدرسَ البليغ الذي تعلمه ابراهيم باشا المحتل ، والجيشُ الفرنسي المستعمر ، من اخوانهم ابناء العشيرة · لكنهم على قِلتهم ، محتقنون اخلاصًا للقضية وتضحيةً من اجلها ، وقد حولوا مآتم شهدائِهم اعراسًا وحِداءً :

يا حاضرا سوقَ المنايا عارٌ على اللي ما يبيع

منْغمر أراضينا ضحايا ومن ردّ صهيونا جديع

ومن دوافع الحماسة ما يرددونه بكل مَسيرة ، كانما مطامحُهم اوسعُ من ان تسعها صدورُهم وتحققها سواعدُهم ، فيعبرون عنها هازجين :

انتو شعبٌ جبار ، شعبُ المعجزاتْ

شعبِ الشهامة والكرمْ والتضحياتْ

بأرضِ العروبةْ دمكمْ لو ما انجَبَلْ

ما سجَّلَ التاريخ :رِجْعوا المكرُماتْ (١٣)

وكثيرة هي اهازيجُهم على هذا المنوال ، تسكينًا لِلواعجهم وتعبيرًا عن حُنقهم وكبتهم العسير ·

اما شاعرُهم سميح القاسم فلا يفتأُ يغنّيهم ملاحمَ البطولات ، ويغذي فيهم روحَ الصمود والجلدِ على المكاره والغضب لدى جرحِ الكرامة · لِنسمَعْه :

• غَضبتي ··· غضبةُ جُرحٍ أُنشبتْ

فيهِ ذؤبانُ الخنَى ظِفرًا ونابا

··وانا اؤمنُ بالحقِ الذي

مجدهُ يؤخَذُ قَسراً واغتِصابا

·· فاصبِري يا لطخَةَ العارِ التي

خطها الامسُ على وجَهي كتابا

وانظري النارَ التي في اضلعي

تهزِمُ الليلَ وتجتاحُ الضَبابا

شَعشَعتْ في آسيـا فأستيقظَـــتْ
وحمتْ افريقيـا ٠٠ غابـاً فغابـا

ويُكمل :

يـا قُرانا ٠٠ نحن لم نسـلُ ٠٠ ولـم
نغدرِ الارضَ التـي صارتْ يَبابـا

فالذُرى تشمَـخُ فـي أنفُسِنـا
عزةً تحتطِـبُ البَغيَ أحتِطابـا ، (١٤)

وقال :

حُمَّتْ سراياكَ فاشربْ مـن سرايانـا
كأساً جرعتَ بهـا للـذلِ الوانـا

٠٠٠ اركانُ عرشِك ألينـا نقوّضُها
فاحشدْ فلولَكَ ٠٠ حيـاتٍ وعقبانـا

يا غازيـاً غُسلتْ بالنـار حملتُـه
لقد فتحـتَ لِدفنِ التاج كِثبانـا

وقال ماخوذاً بعصبيته الدرزية الثوريّة :

دمُ اسلافي القُدامي ، لم يزل يقطرُ منه ٠٠

وصهيلُ الخيلِ ما زالَ ٠٠ وتقريعُ السيوفْ

وانا أحملُ شمساً في يميني ٠٠٠ وأطوفْ

في مَغاليقِ الدُجى ٠٠ جُرحاً ٠٠ يُغنّي ، (١٥) ٠

ولا يألو سميحُ ينظمُ ويناضل ، داخلَ الارض المحتلة وخارجَها ، وانه بحـقٍ شاعرُ القضية الفلسطينية العادلة ٠

ان مَكمنَ الرجولة والعنفوان ، في جوارح كل درزي ، يستحيلُ عليه التخلي عنها ، مهما عَصَبت اهوالٌ واستحكمَ وَضع ٠ **انها فيه كالحرارة في اللهب وكالعِطر في الوَرد** ٠ ما اتخذ مناقبهُ وسيلةً لمغنمٍ مادي ٠ **انها جزءٌ منه ، تجري بعروقه** ، ومتى **اعوزتها** الظروفُ تنطلقُ دفعًا ٠

التحيُّل الاسرائيلي

من الادلة المحسوسة على نشاط الشبيبة الدرزية في فلسطين المحتلة ، تلك التحيُّلات التي تتخذها سلطةُ الاحتلال ، لِامتصاصِ سعيرِ الثورة ضدهم ، ونشرِ البلبلة في صفِ الجيل الواعي ، ولِتخفيفِ النقمة على اسرائيل ، تحيلتِ السلطةُ فنشرت جريدةً باسمِ جريدتهم ، ووزعتْ منشوراتٍ كانت قد اشترت للتوقيع عليها ، اناسًا هُم بشرٌ ، في الجسوم ، واقامت نواديَ وجمعيات ، يترأسُها جماعةٌ فارغون مُزيفون ٠ كل ذلك لِتشوهَ عروبةَ هذه العشيرة ، ولتظهره شعبًا وافر العداءِ لِلفدائيين ، ، لكنها عادتْ فاشلةً اطلاقا ٠ (١٦)

وكثيرة هي الحوادث المصطنعة ، وكلها محاولات لِشحنِ صدورِ الدروز والفدائيين بالعداء ٠

ان الواجبَ الذي تُحسه هذه العشيرة ، هناكَ ، هو صمودُها وعدمُ الاخذ بالاغراءات ٠ اما تنازلاتُها احيانًا ، فكانت مجبرةً عليها جبرًا ، طالما السلطة للاقوى ، وطالما ان الغابَ هناك ، مفتقرٌ الى غضنفر ، يزأرُ في وجهِ الذئب الكَلوبِ قائلا : « انتَ الذي عكرَّ علينا الماء ٠٠ » ٠

فلتحبسِ الجماعةُ مروآتها ، الى ذلك اليوم ، ولْتستمرَّ في تردادِ اغاني شعرائِها الموهوبين ، امثالِ سميح القاسِم وتوفيقْ زَيّاد وسواهما ٠٠

مَن توفيق زَياد ؟

انهُ = مع سميح القاسم ، رفيقِهِ في حَلبةِ الشعر ، والنضالِ الوطني ، والمُعتقدِ الروحي = زاويتانِ قائمتانِ في مُثلثِ طلائعِ شعراءِ القضية الفلسطينية٠

استطاع هذا المناضلُ الكهل ، ان ينتزعَ مركزَ رئاسة بلدية (الجَليل) ، رغم تَصلّبِ الصهاينة في محاولة إخفاقه ٠ نظرا لمواقفه المشرفة ، في مساعيه ويَراعهِ ، ضد هذا العدو الشرس « اسرائيل » ، وفي موآزرةِ اخوانه المواطنين ،

تشبثًا بصلابتهم ، ورفضًا لكل مَهانة ٠

الى هذا الموقف المشرّف ، دعا صوتُ الضمير ، وصدى مناقبية العقيـدة ، والكبرياء العربي ، هؤلاءِ الجماهيرَ لِتتخذ موقفَها الحاسم ، من توفيق زيـاد ، ازاءَ الصهاينة ٠

وان قصائدَ هذا الشاعر ، ما برحت تُجلجلُ في آذان الشباب العربـــي ، موقدةً في صدورهم ، براكينَ من حماسةٍ متفجرة ، وصمودًا وفـداء ، وإصرارا على العودة المتوّجةِ بالنصر المبين ٠

توفيق زيّاد في (الجليل) وفي الجوار ، خَليّةٌ مُستمرة الدويّ ، والجَنى لِصالحِ معركة التحرير ٠ وما العِصيانِ والتمردُ ، الذي يتحدثون عن حصوله هنا كوهنالك ، الا رجعًا صادقًا لِصريرِ هذه الاقلام ، وتفجيرًا لِتلك الاحاسيس النبيلة ٠

حتى نتأكدَ من صحة مواقفِ هذا الشاعر المناضل ، علينا بنزرٍ من شعـره ، ففيهِ الخبرُ اليقين : عن صدق مشاعره ، وصدقِ عروبته ، وصدقِ معتقــده ، وصدقِ اسهامـــه في العملِ على تحقيقِ قضيتهِ الفلسطينيةِ العادلةَ ٠ قال :

« بِأسناني ، سأَحمي كلَّ شبرٍ من ثرى وطني ٠٠ بأَسناني ٠٠

ولنَ ارضى بديلاً عنه ، لو عُلِقتُ من شِريانِ ٠٠ شِرياني ٠٠

انا باقٍ ٠٠ ولن تقوى علي جميعُ صُلباني ٠٠

انا باقٍ ٠٠ سأَحمي كلَّ شبرٍ ٠٠ من ثرى وطني ٠٠

بأَسناني ٠٠ » (١٧)

ولْنسمعهُ كيفَ يصرخُ داخلَ السجن ، خلفَ قضبان الحديد ، غير آبـهٍ ولا متردد :

« إن يحبسونـــــا ٠٠ انهـــم

لن يحبســـوا نـــارَ الكفـــاحِ

لـــــن يحبســــوا عــزم الشبـــا

بِ الحـــرِ ، يعصـــفُ كالريـــاحِ

لـــــن يحبســــوا اغنيـــــةً ،

تعلـــو علـــى هـــذي البِطـــاحِ

شرقيـــةٌ ·· عربيـــةَ الأَلحـــان ··

حمـــــراءَ الجنـــاحِ

طلعتْ علـــى الارض الخصيبـــة ··

مثلَ الهـــةِ الصَبـــاحِ ·· ، (١٨)

ولنقرأ زياداً، وهو يتحدى المستحيل ، ويتشبثْ بأرضه ، ويمسك بيديـــه ، بجوارحهِ ، وبأوتارِ قلبه ، جذوعَ التينِ والزيتونِ في وطنهِ ، فلنصغِ اليه :

« كأنّنـــا عشـــرون مُستحيـــلْ

في اللدّ ·· والرَملـــة ·· والجليل

هُنا ·· على صدورِكم ،با قونَ كالجدارْ

وفيحلوقكم··كقَطعةِ الزُجاجِ··كالصبَّارْ

···وفي عيونكم···زوبعةٌ من نارْ···

إنّا هنا باقون ·· فلتَشربوا البحـــرا

نحرسَ ظـــلَّ التِيـــنِ والزيتـــونْ

ونزرعُ الافكارَ ··· كالخميرِ في العجينْ ···

··· برُودةُ الجليدِ في اعصابِنــــــا ····

وفي قلوبِنا ··· جهنَّـــمُ حمرا ···

اذا عطِشنا نعصرُ الصَخرا ·· ، (١٩)

وبعد هذه النظرة العجلى لواقع العشيرة ، في الوطن المحتل ، ننتقل الـــى وقفةٍ على شُرفة تاريخِ مشيخة العقل ، وعلى ما اسدى رؤساؤها من فضائـــلَ في القول والعمل : فرديًا ، وطائفيًا ، وانسانيًا ، ثم سابقًا ولاحقًا معًا .

هوامش

١ ـ كتاب « الدروز » طبعة عام ١٩٥٢ ص : ٥٠ ـ ٥٢ ·

٢ ـ يوري ايفانوف والفريد ليليانتال عن غالب ابي مصلح في كتابه « الدروز في ظل الاحتلال الاسرائيلي » طبعة : ١٩٧٥ ـ ص : ١٦ ـ ٢٢ ·

٣ ـ غالب ابو مصلح عن :
Jacque Doumal et M. le Roie
المرجع نفسه ·

٤ ـ ليليانتال ص : ٨٣ ·

٥ ـ كامل خلة : فلسطين والانتداب البريطاني ـ منظمة التحرير ـ بيروت ـ ايار ١٩٧٤ ص : ٣٠٧ ـ وعدد النهار الممتاز لمطلع عام : ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ ·

٦ ـ غالب ابو مصلح ـ المرجع نفسه ، ص : ٥٤ ـ ٥٥ ·

٧ ـ المرجع السابق ص : ٧٣ و ٧٤ ·

٨ ـ المرجع نفسه ص : ٧٤

٩ ـ جريدة الاتحاد الفلسينية تاريخ ١٢ ك٢ ١٩٧١ ·

١٠ ـ المرجع نفسه تاريخ ١٣ نيسان ١٩٧١ ·

١١ ـ ابو مصلح ـ المرجع نفسه ص : ١٠١ ·

١٢ ـ مؤسسة الدراسات الفلسطينية ـ السنة الرابعة تاريخ ١٦ ايار ١٩٧٤ ·

١٣ ـ ابو مصلح ـ المرجع نفسه ص : ١١٩ و ١٢٠ ·

١٤ ـ ديوان اغاني الدروب ص : ٤٢ ـ ٤٤ ·

١٥ ـ المرجع نفسه ص : ١٠ ـ ٧٢ ·

١٦ ـ ابو مصلح ـ المرجع نفسه ص : ١٩٨ ـ ٢٣٠ ـ ٢٣١ وجريدة الاتحاد تاريخ ٥ شباط ١٩٧١ ·

١٧ ـ ديوان الشاعر ص : ١٢٩ ·

١٨ ـ المرجع نفسه ص : ١٠٨ ·

١٩ ـ المرجع نفسه ص : ١٩٧

هنا .. على صدوركم .. باقون كالجدار

وفي حلوقكم .. كقطعة الزجاج .. كالصبار

وفي عيونكم .. زوبعة من نار

إنا هنا باقون .. فلتشربوا البحرا

نحرس ظــل التيـن والزيتـون

ونزرع الافكار .. كالخمير في العجين

.. برودة الجليد في أعصابنـا ...

وفي قلوبنا .. جهنـم حمرا ..

اذا عطشنا نعصر الصخرا .. ؛ (١٦)

وبعد هذه النظرة العجلى لروائع الشعيرة، في الوطن المحتل، ننتقل الى وقفة على شرفة تاريخ مشرقة الفعل، وعلى ما اسدى ... من فعاليات في القول والعمل : فرديا، وجماعيا، وانسانيا، ... معا.

مَشيخَة العَقل

عناصر البحث :

١ ــ الرئاسةُ الدينيةُ الاولى

أ ــ الاميرُ السيد

بـ ــ الاميرُ سيفُ الدين التنوخيّ

جـ ــ الشيخُ زين الدين عبد الغفار تقيّ الدين

د ــ الشيخُ الفاضل

هـ ــ الشيخُ علي جنبلاط

و ــ الشيخُ يوسف عربيد ابو شقرا

ز ــ الشيخُ محمد قاسم عبد الصمد

ح ــ الشيخُ محمد داود ابو شقرا

ط ــ المنهجُ الزمني

كا
احمد
مناقش
اتخذ
والفل

ول
عن م
حدثت
الحاك
انطاك
والاط
التوح
الجما
المتعال
رحابة

اس
متواه
متواه
المقتن

وي
اخوا
على

مشيخة العقل

الرئاسات الدينية الاولى

كان في العهد الفاطمي ، الداعي الاولُ لمذهب التوحيد ، حمزةَ بن علي بن احمد الزَوزنيّ الفارسي · ركزَ دعائمَ المذهب على اسسه الفلسفية ، ونهض مناقشا ومُفحما بسديدِ ارائه وبيّناته ، كلّ فقيهٍ ومتضلع من العلم والفلسفة · اتخذ مقرّه جامعَ (رَيدان) بالقاهرة ، فغدا الجامعُ محجةَ اقطاب الفقه والفلسفة ، وموردا عذبا لذوي الايمان ، يتذوقون كوثره الزُلال ·

ولدى مغادرته الجامع ، قلّد الامامُ حمزة الشيخَ المقتنى هذه المهمة ، وغاب عن مسرح الانظار · كان هذا في مطلع عام ٤١٢ هـ · بعد هذا التاريخ بقليل ، حدثت مِحنةُ انطاكيا الرهيبة ، اوقدَ سعيرَها (عليٌّ الظاهر ـ انتقاما من خلفه الحاكم بامر الله) ، واضطهاداً لجماعته الموحدين · امتدّ لظى المِحنة من انطاكيا حتى الاسكندرية ، ذهبت فيها آلافُ الضحايا حتى من النِسوة والاطفال ، ودامت ستٌ سنواتٍ ونيفًا · بعدها نشط الشيخ المقتنى في بث دعوة التوحيد ثانيةً ، حاثا على الصبر والتسليم الى الحق الاعلى ، وباعثا في الجماعة من عُصارة روحه ، اصفى مناهل الخُلق الرفيع ، والانسانية المتعالية · كان المثلَ الاسمى لهذا المذهب ،بما اظهر في رسائله المتعددة من رحابة الصدر ، ورجاحة العقل ، وشدة العزم والحزم والدِراية ·

استمر نضالُ الشيخ المقتنى الملقب بـ (بَهاءِ الدين) سبعةَ عشرَ عامًا متواصلا ، ما ثناه اضطهادٌ ، ولا اعاق رسله وهَنٌ وهلَع ، بل ظلت الرسائل متواصلةً طوالَ هذا العهد المديد ، انطلاقا من مصر · وقد المعنا الى موقف المقتنى في حديثٍ سابق ·

وبعد اعتزاله ، وغيبتهِ بعثَ المقتنى برسالة خاصة : (الجمهورية) الى اخوانه في العقيدة ، يُبدي فيها رغبته في ان يتوكل بمهام دعوة التوحيد والسهر على رعاية الموحدين وحُسنِ توجيههم ، الاميرُ معضادٌ المكنّى بأبي الفوارس ·

تسلم الاميرُ هذه المهمة ، وكان الداعيَ الصالح لجماعة الموحدين الدروز ، رعى المصالحَ دنيا ودينا ٠ ثم اسند هذه المهمة بعده الى اسرته التنوخيـــة ، يتناوبُها واحدٌ بعد آخر ٠

وكان يُطلَقُ على كل من يتقلد هذه المهمة ، لقبَ كفَيلِ الموحدين ، والناهضــ بالدين وما الى ذلك ٠٠٠ وكان للموحدين رئيسٌ ديني واحد ، فــي سوريــا وفلسطين ولبنــان معًا ٠ وظل واحدًا حتى العهد الشهابي ، حيث جرت سُنّة : فرّق تَسُدْ ٠

فاصبحَ للطائفة شيخانِ ينتخبهُما مشايخُ الطائفة واعيانُها ٠

هذه المهمة الروحية ، على جانب كبير من الاعتبار والتوقير ، وتزداد تعزيــزا حين يتولى رئاسةَ المشايخ ، جهبذٌ ورعٌ جريءٌ وحكيم ٠ تتمثل به الطائفة اكمـلَ واجل تمثيل ، وبرعايته وحنكته تظفر بمكاسبَ معنوية وافرة ٠

لقد برز مع الزمن رؤساء روحانيون ، كانوا قدوةً مثلى في التقى والنزاهـة والفصاحة ٠ كان منهم المتشرّعون ، والحكماء ، والوعاظ والشعراء ، والساسةُ الحازمون ٠

ولا يسعنا اغفالُ هذا الموضوع ، كما لا يسمح الموقف ان نُسهب فيه ، فنقتطف من كل خميلة إضمامه ٠

لم يصلنا عن مآثر سماحة المشايخ امراء آل تنوخ ما نصدر به هذا البحث ، وقد اكتفى مؤرخهم المشهور يحيى بن صالح في القــول : « لقــد قبــل التنوخيون دعوةَ التوحيد ، وكانوا عِمادَها ، ووُجهت اليهم رسائلُ بهاء الدين »٠

هذا كل ما اتحفنا به عنهم اميرُهم المؤرخُ يحيى ٠ ولعل تتابعُ الاحداث ، ووفرةَ المعارك والغارات على التنوخيين من الحملات الاوربية يومذاك ، لـم تسمح بتسجيل المآثر الروحانية ، واكتفت بضروب القتال وصد الغارات ٠

لكن الامرَ المثبوت هو ان التعاليم التي بثّها بهاء الدين ، واوصى بتعميمهـا والتزامها ولدًا عن والدٍ ، من الناحيتين الخلقية والدينية ، ما زالت قُطبًا في ابناء الطائفة الرائدين ٠

وابرز ما تقدم من ادلة محسوسة ، مآثر السادة مشايخ العقلاء ، فانهـــا صورة صادقة ، وصدى لِصوتِ الائمة الغابرين ، يتحلى بها جيدُ الزمان ٠

ان العاقلَ في مذهب التوحيد ، هو الانسانُ رجلاً كان ام امرأة ، الذي يتجلى فيه صفاء النفس ، فيُبعده عن مجالسة الاشرار ، والخنوع لِاهوائه الدنيئـــة ، والانجرافِ في مباهج الحياة ومغرياتها ٠ والعاقل هو من عقل قلبَـــهُ ويـــدَه ولسانَه عن فاحشِ الكلام ، ونابي التعابير ، من عَقَلَ يده عن مال لغيره ، وكفها عن اي اعتداء ، ومن عقل قلبَه فلا يسوق جسدَهُ للمطامع ويُلهيه عن تقوى ربـه بالمكاسب ، ويشغله عن عمل البرِ والاحسان هاجسٌ في النفس ٠

العاقلُ ، من اقتدى بالسلف الصالح ، وانتهج مبدأَ الامام بهاء الدين ، فكان الانسانَ الاكمل باطنًا وظاهرًا ، وكان بلسمًا لكل جراح ، وعونًا لكل انســان ، لا يفرقه عن انسانيته فارق ، ولا يُلهيه عن صالح الاعمال مُلهٍ ، هو لِربـــه اولا وللانسانية ثانيًا ٠ ومن لم يَصدقْ به هذا الكلام ، فهو بالاسم والزيِّ من العُقال ٠

وشيخُ العقلاء هو السيدُ الاعلى لكل عاقل، والرائدُ الأَصلحُ والاَتقى ، وهـو نبراسُ رشادٍ للطائفةِ جمعاء ٠

[illegible]

بتاريخها واحداً بعد الآخر .

[illegible]

فاصبح للطائفة شيخان يتقاسمان مشيخة الطائفة واعمالها .

[illegible]

[illegible] الصارمون .

ولا يسعنا اغفال هذا الموضوع ، كما لا يسمح المؤلف ان نُسهب فيه ، فنكتفي من كل خميلة بإضمامة .

لم يصلنا من مآثر سماحة الشيخ اسرائيل تنوخ ما نستنير به هذا البحث ، وقد اكتفى مؤرخهم المشهور يحيى بن صالح في القـــول : « ان اشتد عـــلى التنوخيين دعوة التوحيد ، وكانوا جماعتها ، ووُجهت اليهم رسائل بهاء الدين .

هذا كل ما اتحفنا به عنهم المؤرخ يحيى . ولعل تتابع الاحداث ، ووفرة الغارات والثارات على التنوخيين من الممالك الاوربية يومذاك ، لـــم تسمح بتسجيل الآثار الروحانية ، واكتفت بضروب القتال وصد الغارات .

لكن الامر الثابت هو ان التعاليم التي بثها بهاء الدين ، وأوصى بتعميمهــا والتزامها ولداً عن والد ، من التعاليم الخلقية والدينية ، ما زالت قطباً في ابناء الطائفة الراقين .

الأمير السَيد

« الآفاقُ عند الامير السيّد هي آفاقُ الخير الانساني الشامل ··
كتبَ الى النفسِ الانسانية » ·

« عجاج نويهض »

في « الرسالة التهذيبيّة » للامير السيد ، عملٌ انسانيٌ رائع ·· وانه لَتعجـزُ عن مثله حكوماتٌ وجمعياتٌ واحزاب » ·

المؤرخ « ابن سباط »

« يَهلكُ الناس في شيئين : فضولُ المالِ وفضولُ الكلام » ·

« الامير السيد »

الأمير السيّد

صاحبُ السماحة الاميرُ جمالُ الدين عبدُالله التنوخي
« الامير السيد »

انه اولُ من عَرفْنا وعرَّفنا بنفسهِ شيخًا للعقلاء الموحدين ٠

ولد في قرية (اعبيه) عام ١٤١٧ م وتوفي عام ١٤٧٩ م كان جامع اشتات العلوم ، وحجة علماءِ عصره ٠ سكن الشام اثنتي عشرَ عاما وعاد الى مسقط رأسه ، حيث غدا منزلُه مقصدًا لطلاب الفِقه والدين والحكمة ، وغدا محكمةً* شرعية لكل مواطن على اختلاف المذاهب ، يَقضي فيُصغى اليه ، ويُعمل بحكم قضائه ، عن رضى وقناعة ٠

وقد نقل الينا نسيبُه الامير المؤرخ المعروف (ابن سباط) قوله : لم يكن الامير السيد ، ليقربَ انسباءه ظنا منه ، ان اموالَهممخالطة لاموال الدول ، حتى انه كان يتحاشى اضاءةَ مصباحٍ فيه شيء من زيتهم ، وكان يطوف البلاد ويزور الاجاويد ، وكان يتلو القرآن كلّه عن ظهر قلب ، وقد اكثر من النهي والتحريم ، وانصاعت الناسُ لاوامره ، لِما فيها من حكمة وحق ٠ وكان له يوم في الجمعة ، يؤمه الناس ليتعلموا من علمه ٠ وقيل انه اوصى تلاميذه ان يتخذوا لهم يومًا في الاسبوع مثله يلقّنون به طلابَهم الفقهَ والعلوم ، فنزلوا عند رغبته ٠ (١)

كانت للامير السيد منزلةٌ فريدة عند الدروز ، لم يصل احدٌ اليها بعد الائمة الخمسة الاول ، في العلم والزهد ، والنشاط في التعلم والتعليم ، وفي شرح التوحيد خاصة*٠

ومما يُروى عنه :

يومَ عرس ابنه عبدِ الخالق ، بينما الافراحُ قائمةٌ في دارهم نزل العريسُ

يتفقدُ جواده فرَمَحته فرسُه رمحةً كانت القاضية عليه فورًا · علم ابوه الامير السيد بالفاجعة ، فكتم الخبرَ عن الناس ، المتألبين في منزله ، وسلم امره لربه ، راضيا بقضائه · ثم جاء ودعا الناسَ الى الولائم المهيأة · حتى اذا فرغوا من طعامهم ، وهم لا يعلمون شيئا بما حدث ، التفتَ اليهم الابُ الصبور قائلا : هاتوا الان فقيدَكم !! فارتاعَ الحضورُ واستولى عليهم الذهول ، لهذا الايمان الراسخ في نفس الامير السيد · (٢)

يقول ابن سباط : « ان في (**الرسالة التهذيبية**) للامير السيد ؛ عملًا انسانيًا رائعا قام به وحدَه ، وانه لَتعجزُ عن مثله حكومات وجمعيات واحزاب» · لقد كان الاميرُ لِجميع الناس ، وبلدتهُ منارةُ ارشادٍ في افق الشام ولبنان ، والفضيلة عنده لا تتجزأ ، والعنصرُ الانساني واحد في البشرية متى صلُح ، وواحد متى فسَد ·

كان يتوافد على منزله المتخاصمون من حلب حتى فلسطين ، مرورًا بدمشق وبعلبك ، ويرجعون من عنده راضين بحكمه ، وكلهم ألسنَةُ شكر ·

لقد امر بعمارةِ المساجدِ في القرى وتجديد الجوامع ، وانشأ الأوقاف وجلب الفقهاء · وكان يُعلم الطلاب ويعطي من ماله اجورًا للفقراء منهم ·

في الخُطبة التي ارتجلها الامير السيد ، يومَ وفاة ابنه ، عبرةٌ كبيرة لمن يتعظ ، ومَثل اعلى في التجلد والرضى والتسليم · قال فيها :

ايها الناس ان للهِ وانا اليه راجعون · يطوي العمرَ الجديدان ، ولا فوتَ من الموت ·

·· ايها الناظرون الي ، اتظنونَ ان صبري على فقدِ ولدي الصالح جَهالة ، او تركَ اعتراضي ضلاله ؟ ؟كلا ! بل الصبرُ مطية من ارتقى ، والرضى منارة من اتقى ··

ايها الناس : انتم كطير مسجونٍ في قفص الارادة ··· قد بلغ العصرُ اخرَه ، وعما قليلٍ يظهر الجَزاء، ويعرف العاملُ عملَه ·· ولا يضيعُ مثقال ذرة ·· » (٣)

وحين كان الامير السيد مُسجىً على لوح المنية ، انحنت على يده زوجتُه

(ست العيش) قائلة : يا مُعلمَ الخير !! لِمن أُوصيتَ بي ؟؟

وقال ابن سباط:ان مراثي الشعراء والخطباء جُمعت في اثني عشر كراسا لكن الاحداثَ بددتها كلها ٠

للامير السيد كتبٌ متعددة في الروحانيات والشرع وأهمها ، اربعةَ عشرَ كتابا شرح فيها بعض رسائل التوحيد ، شرحا عميقا مستفيضا تدعى بـ (شروحات الامير السيد) وكل كتاب منها لا يقلعن اربع مئة صفحة ، منسوخة نسخا ومحظورٌ على غير (العاقل) تلاوتُها ٠

يقول المؤرخ عجاج نويهض : « انك لا تجد فراغا في دعوته وآرائه ، والآفاق عنده هي آفاق الخير الانساني الشامل ٠٠٠ فهو لم يكتب بوجه الحصرِ لبني معروف ٠٠ انما كتبَ الى النفسِ الانسانية » ٠ (٤)

من يتسنى له قراءةُ مؤلفات الامير السيد يجد الغالبَ عليها في الاسلوب والمعنى ، هو سهولة العبارة ، والغنى في المرادفات ، وصحة التعبير ، وبلاغته، كما يجد فيها روحا انسانية متعالية ، تروض النفس والخُلق ، وتبحث في النواحي العملية من الحياة ٠

يقول المؤرخ نويهض : « ان منازع الامير السيد موزعةٌ على اكثرَ من شخص واحد : فيه من (الغزالي) اتساعُ الافق وسهولة اللغة ، وفيه من علماء الصدر الاول للاسلام العزوفُ عن الدنيا ، ومجابهةُ السلطان بالحق ٠ وفيه نزعةُ (لوثر وكالڤَنْ) بحيث ان لِلعقل ان يفهمَ النص ويفسرّه بغير سيطرة خارجية ٠ وليس للشعبذة من طريق اليه ٠ وفيه نزعة الشيخ (محمد عبده) من حيث ان بالعلم تُصقلُ الاذهان ، ويَصفو الوجدان ٠ وفيه نزعة (الكواكبي) من حيث ان الاستبدادَ من اين جاءَ ، لا تقتلعُه الا الجماعة : جماعةٌ منظمة متعاونة مخلصة » ٠

واكمل : « الامير السيد لم يحذُ حذوَ (الشهرستاني والبغدادي) في ان العالمَ مقسمٌ الى ملل ونحل بطريقة اصطناعية ، استيفاء لعددٍ حسابي ، انما خُلقوا ليكونوا امةً واحدةً عن طريقِ مذهبٍ انساني واحد ٠ (٥)

ولكي نكونعلى صدق مع الحقيقة والمؤلف ، نقتطف بعضَ التعابير والحكم من مؤلفات الامير السيد :

١ ـ « اياك ان تقول : ان اللهَ غفورٌ رحيم يغفر ذنوبَ العصاة . فتُضيـع العملَ وتتوكل على الرحمة » .

٢ ـ الحب يورث الرضى بأفعال الحبيب .

٣ ـ لا تطمع في ان تحصدَ ما لم تزرع .

٤ ـ من لم يكنْ صادقًا بلسانه فهو بالقلب أكذب .

٥ ـ المعرفة اساس الخير جميعه .

٦ ـ البصيرةُ الباطنة اصدقُ من البصَر الظاهر .

٧ ـ يهلك الناس في شيئين : فضولُ المال ، وفضولُ الكلام . (٦)

هذا قطر من بحر، مما للامير السيد من حِكَم قيمة ، وتوجيهات للخير والصلاح والتعاضد والتحاب ، بعيدة عن كل عصبية دينيةٍ وقوميةٍ . لقد اعتقَ نفسه من جميع قيود التقليد الاعمى ، شرع يبث في جماعته روح التجدد والانفتاح الرصين ، داعيا الى محاربة الغوايات والعصبيات التي زرعها ويزرعها في نفوس الجهال ، ذوو الاغراضِ الرخيصة من الحكام .

ان الفضلَ الاكبر للامير السيد ، في ذلك الزمن الغارق بانكماشه ، الملتزم بكثير من التقاليد الضارة ، هو في ان الامير قد وقف في مجتمعه المتخلف ، واصر على الانفتاح الخيّرِ البنّاء ، وبُطلان النواح للنساء في المآتم ، وقطع المناداة على الاموات ، ودراسة القرآن الحكيم ، وفتح المدارس ، وتعليم البنات أسوةً بالبنين .

ولقد كتب المؤرخ يوسف ابراهيم يزبك رسالةً موضوعُها : (وليٌّ من لبنان) بيّن فيها تاريخَ الامير ومنجزاتِه وآثارَه ، ومما ذكر من حكمه ، نرويه خاتمةً طيبة لذكرهِ الطيب :

« ١ ـ من صبر على مِحَنِ الزمان ادركَ نعيمَ الجِنان .

٢ ـ من آثر في الدنيا طلبَ الجاه ، لم يبلغْ في الآخرة ما يتمناه .

٣ ـ من جعل نفسه عرضةً لِشهوات الدنيا ، لم يحصل على لذة الآخرة ٠

٤ ـ نظرُ العاقل بفكرِه وخاطرِه ، ونظرُ الجاهل بسمعِه وناظرِه ٠

٥ ـ من ذاق حلاوةَ الثواب ، هانَ عليه المُصاب ٠

٦ ـ من أيقنَ بزوال الدنيا ، أستهانَ بِصولة الاعداء ٠

من الم بدراسة مجتمع الامير وبيئته ، وتلمّس ما فيهما من تخلف حضاري ، قدّر تلك المواقفَ الجريئة ، والروحَ التقدمية الحية ، التي تحلى بها سماحة الامير الجليل ٠

فما احوج البلد ، على مُختلف طوائفه واحزابه ، الى سيدٍ مقدام حصيف يفرض طاعته على كل مواطنيه ، ويعمل على ازالة هذا التخلف الحضاري ، والنزعة التقدمية المزعومة ، في هذا الجيل الذي يتبجّحُ بان له حضارةً ، وفيه تقدمية ، وهو من كليهما بَراء ٠ وهو عن صحة الايمان ٠٠ وانسانيةِ الانسان بعيدٌ ٠٠ بعيد ٠

الامير سيف الدين التنوخي

حين افل نجمُ الامير السيد نشط تلاميذُه باحثين عن خلَف يسد الفراغ او بعضه ، فوجدوه بغير كبير عناء ، في نسيبه الامير سيف الدين يحي التنوخي الشاعر الموهوب ٠

وُلد الامير في عبيه عام (٧٨٩) هـ وتوفي عام (٨٦٤) بعد وفاة الامير السيد بقرابة عشرين عاما ٠ نشأ شاعرا يتغزل ويمدح ، ثم تاب توبة خَلوصا ٠ (٧) ويُلحظ ان تدينه كان يعتمدُ على العمل الصالح والمعاملة المستقيمة ، اكثر من اعتماده على الطقوس والعادات ، وكان على جانب من الثراء ٠ يُحكى عنه ، =والقول موثوق به= ، انه كان يمتطي فرسه ، وتحته خرج ،قد احتقب فيه اموالاً ، من رزقه ، يطوف بين القرى الجبلية ، حيث الفقر مخيم ، والحاجة ماسةٌ بعض الناس ، حتى اذا التقى فقيرًا ، هتف به ان يتناول من الخرج حاجته، واذا صادف غنيًا ، طلب منه ان يضع في الخرج ما تيسّر لديه ٠ حتى غدت

الكلمة الى اليوم مثلا : « حطّ في الخِرج » وكان للامير ايامٌ معينة يتم بها هذا الطَواف ، وما برح على حاله ، مستمرا في الاخذ والحط بالخرج ، الى ان عاد ذات يوم لمنزله ، فوجد عيّنتَي الخرج مليئتين · ادرك عندها ان موجة العسر التي كانت طاغية قد انقبضت بمساعي المسؤولين ، وان الشعب قد اكتفى وعزته تأبى عليه الاخذَ على يُسر · فانقطع الاميرُ عن هذا التجوال · (٨)

هذه النادرة ذاتُ ابعاد في قيمتها ، ان يصدر من امير وشيخ جليل هذا التحسس بحاجة الشعب الى العون ، عون لا ذلة فيه ولا انكسار ، وعطاء بلا تَبجّح ولا استكبار ، وشيخ يزن الامورَ ويعالجها بتؤدةٍ واحتشام · وما هو القادرُ السليط ليحل الضيق ، ويفرج الازمة ويؤمن الشعب ، لكنه على غِناه وسخائه ونشاطه ، استطاع ان يُنقذ بعض شعبه من ضائقة ألمت به · ولو لم يكن لسماحة الامير ، مرتبةٌ مرموقة ، وكلمة مطاعة ، وثقةٌ عمياء لما كان الغني يُلقي بماله في الخرج ، ولا يعلم اين مصير المال ·

والدرس الاروع في هذه النادرة ، هو ان هذا الشعبَ الفقير ، حين احس بقليل من الاكتفاء ، تمنّع عن بسط اليد للاستجداء ، ولو بحشمة فائقة · فهنا القناعة مصحوبةٌ بالعزة والاباء ، وهنا النظرة الصادقة للمادةِ على انها اداةٌ لِقضاءِ الحاجة،لا هي غاية ولا وسيلة للاعتزاز ·

هذه النادرة تنقل الصورة الصادقة عن الشعب الدرزي بفقيرِه وغنيِه وأميرِه ·

وحسبُه بها تذكرةً لِقوم مُضللين ·

لم يَصدِفْ اميرُنا الجليل عن نظم الشعر ، حين اعتزم مَسيرةَ الحق ، وقد كان في شبابه الشاعرَ الصدوح الطروب ، لكنه عاد فاتخذ من الشعر اداةً لِكشف سريرته ، ومناجاةِ باريه ، والاتكال عليه ، وكانت تعصف في نفسه رياحُ الاهواء ، فيلجمُها بالزهد والرصانة ، محذرا كل غاوٍ من مغاب غوايته ·

وهذه مقاطع نَرويها من شعره الكثير ، فهي الدليل الصادق على مَكنون صدره :

يقول :

مُجاورةُ اللئام اشدُّ ضُرّا
واصعبُ من مجاورةِ السباعِ

تلين جنوبُهم تحـــت المواطـــي
ونفثُ سمومهم نفـــثُ الافاعـي

... ولستُ بعاجزٍ ان رمــت امرا
بعونِ الله ، عـــن كــدِّ الذراعِ
ولكني أنطوى في الزهدِ عزمـــي
كما تُطوى الكتابـــة فـــي الرِقـــاعِ

. . . . .

ويقول :

والنفسُ امارةٌ بالسوء ان طلبـــت
امرًا .. يهونُ عليها المسلكُ الوعـــرُ

... عدوُ كل لبيبٍ نفسُـــه .. فاذا
ما استحكمت منه ، لا تُبقي ولا تــذرُ

... ان الهوى حينمـا لذتْ موارده
عُقبى اللذاذةِ .. ياتي الغمُ والكـدرُ

... كل المصائب عند الموت في هَوَنٍ
والموتُ عند هوانِ النفس .. محتقرُ

... لا تحقرنَّ يسيرًا من هواك بـدا
فالطلّ ينهلّ في أعقابـــهِ المطـــرُ

والنفسُ بالغةٌ فـــي شر صاحبها
ما ليس يبلغهُ بِيضٌ ولا سُمُـــرُ (٩)

يصور لنا الاميرُ بشعره، الدورَ الخبيث الذي كان يقوم به اللئام ، وتسكعهم ومحاباتهم حتى تتاحَ لهم الفرصة لنفث سمومهم في البيئة ، وفـــي اخبـــار الناس . انه الدور نفسه ، يلعبه الخبثاء ويُحسنون اتقانه ، في كل زمان ومكان .

ويبدو شاعرنا الجليل ، من خلال هذه الابيات اليسيرة ، ذلك العمـــلاقَ

الحازم ، فلا يرده غيرُ خالقه عن عزمٍ اراده ، يناله بكدِ ذراعه ، لولا انه الزهد في الدنيا ، وفي مشاغلها ٠

وانه حين يصف اعاصيرَ الهوى وعنفَ مهبِ الشهوات ، فانه ادرى بها ، لانه خَبَرها واستطاع ان يصدها بارادة وعزم ، ليلتقي مع مَسيرة الخَلَقِ الصالح ، على طريقِ العفةِ والصدقِ والاتزان ٠

لقد احتوت نفسُ سماحة الامير سيف الدين الى جانب تذوق الادب الرفيع والحس المرهف ، احتوت عزةَ الامارة وأنَفَتها بتواضع ورفق ، وزهد المتعبدين وقناعتهم ٠ والامثولة التي لقّنها الاجيالَ الطالعة ، ليظل صداها داويًا في مسامع الصدّيقين البنّائين من بني البشر هي : (حطٌ في الخرج) على مضمونها الصحيح ٠

الشيخ زين الدين عبد الغفار تقي الدين

خلفَ الاميرَ سيفَ الدين في رئاسة مشيخة العقل : الشيخُ زينُ الدين عبد الغفار تقي الدين ٠ ولد عام (٩١١ هـ) وتوفي (٩٦٥) الموافق لعام (١٥٥٧) م في كفرمتى ٠

يقول القاضي المؤرخ ، امين طليع : « ان منزلته (عبد الغفار) تاتي بعد منزلة الامير السيد عبدالله التنوخي ٠٠ تضلعًا من العلوم الروحية ٠ كان شيخا فاضلا ، ورعًا ، تقيًا ، عاملا في الفقه والدين وسائر العلوم ٠٠٠ بلغت كتبُه المتعلقة بالدين منزلة ًعالية يُستعان بها في تفسير ما غمُضَ من النصوص ٠٠ له مؤلفاتٌ كثيرة اهمها النقط والدوائر ومجرى الزمان ٠ كان من اعلم مشايخ الموحدين واكثرهم انتاجًا واسبرهم غورًا في معرفة اصول الدين والفقه ٠ لقد طار صيته من حلب حتى فلسطين » ٠ (١٠)

كان سماحته لا يجد متسعًا من الوقت ليصرفَ بعض عمله او انتاجه لمعالجة مشاكل الناس ، شان سلفِه الامير ، بحيث انه ملأ كل فراغ من وقته ، بعد الصلوات والمناجيات الروحانية ، ملأهُ بالتاليف في المسائل الدينية ، وقد تعمق فيها الى ابعد حد ، واظهرها بأسلوبٍ لبق ، متينٍ ، مُحكم العبارة ، صادقِ

التعريف . لهذا كان وما زال لآثاره الفقهية اثرٌ بارز في المعتقد الدرزي .

وقد كان سماحتُه ، كما ستصوره لنا بعض المقتطفات من ادبه ، مثالَ الشيخ الزاهد ، الورِع ، الحكيم ، المتعمق في دراسة علوم عصره كافة .

لقد تعمق حتى سبق ابن سيناء في امر النفس وخواصّها وماهيتها ومعرفة كل حالاتها عاصية كانت ، ام ناطقة عاقلةً مطيعة .

من قوله في النفس : « يجب معرفةما هي (النفس) ولماذا خُلقت ؟ هي عاملة عالمة حية جوهرية ، شفافة قابلة للصور .. تقبل الجهلَ كما تقبل العقل . »

وقال فيها : « هي واحدة » ، ناطقة روحانية ، دائمة الانتقال من جسم الى جسم . وفي حالها اثنان : نورٌ وظلمة .. وفي نعوتها ستة : عاقلة ، عالمة ، جوهرية ، شفافة ، لا تتجزأ وقابلة للصور .. »

ثم « اما معرفتها ، فتطهير طبائعها الولية من الطبائع الضدية ، وهو ان تطهّر حرارةُ العقل من المعصيةِ ، والشراسةِ والنزق ، وتطهر قوةُ النور من الظلمة والغفلة ... ويطهر سكونُ التواضع ، من الاستكبار والعجب ، وتطهر برودةُ الحلم ، من الجهل والحُمق ... »

ثم اضاف : ان النفس عاجزة ، ولا حولَ لها ولا قوة ، بل القوةُ والحول والعظمة ، هي لِخالقها ... »

واضاف : « انها (النفس) مفتقرةٌ الى المفُيدين ، يعلمونها الخير ، وينهونها عن الشر ، لكي تسلك سبيل السلامة ... ومِن معرفتها لذاتها ، انها لا تتعدى طورَها،اي منزلتها ، ولا ترى لِنفسها ميزةً على احدٍ الا بالعلم والعمل » . (١١)

هذا هو النهج الذي اتبعه سماحةُ الشيخ زين الدين في كتاباته . والى هذا المستوى الرفيع يعلو ويعلو ، ليصلَ الى افق يلتقي فيه الانسان بأخيه الانسان ، حين تصفو النفوس ، وتتعالى عن زخارف المادة ، وترتفع فوق مغريات الحياة الدنيا . فمن اين يدخل للنفس ، في مسلك التوحيد ، متى صفت ، ايُّ حبٍ للذاتِ والتسلط والدَسّ ؟؟

تلك هي معرفة النفس في عقيدة التوحيد الدرزي، والعاقل حقا يُمسك نفسه ،

عن كل معصية وطياشةٍ وحمق ، ويطهرُها بقوة النور الذي تحتويه ، من كل تعصب اعمى وانكماش ، حيث تنطلقُ للحياة الدنيا ، منفتحةً على المبرّات والصدق والخير · لا اثر فيها للبغي والعدوان ، تقبس نورَها البشري من نور الحق الاعلى ، فكل ما يصدر عنها : مكارمُ وحسنات · ولا نزعةَ في سكون النفس الولية ، الا لِلطيبةِ والتواضعِ والحلمِ ، فهي ابدًا في وئامٍ مع السلام والصفاءِ والمحبة ، ترى الاخوّة الصحيحة في عالم صحيح ، والمحبةَ الصادقةَ غذاءً لها ، ودافعًا لمقوماتها ، في دنيا الناس · اما برودة الحلم في النفس الولية ، فهي الحافز الانشطُ لدفعها شطرَ الكمال ، حيث تذوب كل الفوارق ، وتنصهرُ العصبيات ، وتنطبقُ الضلوعُ على قلوبٍ عامرة بالذوق السليم ، والغَيرية المتناهية ، والتسامحِ والتغاضي والتوحيد ·

على هذا الشاطىء الامين يرسو زورقُ النفس الرضيَّة ، وكل عاقل لا يسعد بالوصول الى هذا الشاطىء ، لِضعفٍ في ايمانه ، وخلل في بعض محركات جوارحه ، وانقباضٍ في مدى بصيرته ، يبعث فيه النزوع الفردي ويثير (الانا) الناهشة ، انما ذلك العاقلُ ، هو عاقلٌ بجسده وبُردَتِه ·

فما اسعد مجتمعًا تراضت فيه النفوس ، وتصافت القلوب،وتشابكت الايدي على بناء حضارةٍ ، وَضَعَ حجَرَ الزاويةِ في رُكنها ، الاقطابُ الصالحونَ في كل شِرعةِ حق ·

الشيخ الفاضل

ولم ينقضِ على وفاة العلامة الشيخ زين الدين نصف قرن ، حتى جاد الزمان برجل الفضل والمبرات ، بالقدوة المثلى للخلقِ القويمِ والطيبةِ والزهد، والعفةِ والتقى ·

في سفح جبل الشيخ ،وبقرية صغيرة تدعى (الشُعَيره) ولد وترعرع الشيخ (محمد ابو هلال) الملقب : **بالشيخ الفاضل** · وكان عصره عصرَ الامير فخر الدين الثاني · تساوى القطبان في هذه الرقعة الصغيرة لبنان : هذا بالشجاعة والعزة والعنفوان ، وذاك بالتقوى والزهد ، والعملِ بأحكام الدين · حط ترحاله في دنياه عام (١٦٠٥ بقرية (عين عطا) بسفح الجبل نفسه ، فغدا قبرُه مزارا يؤمهُ الموحدون الدروز تبركا منه ، وتنسُمًا لِعبير الاخلاق الرضيةِ والنفسِ الصافية ، والوجدان العامرِ بالروح الانسانية الرهيفة ·

قال (عجاج نويهض) : « ان صاحبَ (الآداب) عَرَّفَنا اي نفس كبيرة ، وارادة جبارة كان يحمل ابن جبل الشيخ ، واي رجل دينٍ ودنيا كان . من طراز عجيب لا مثيل له » . (١٢)

ويتابع المؤرخ : « لقد بلغ الشيخُ الفاضل ولا نزاع ، الذروةَ العليا من الشهرة الدينية في بلاد ابن معن الكبير ، واذا استثنينا السيد الامير عبدالله التنوخي ، فلم يبلغ شيخٌ اخرُ ، في القرون الاربعة الاخيرة مبلغَهُ من الدين والعملِ بأحكامه بدقةٍ متناهية غريبة » . (١٣)

لم تسمحْ احداث ذلك الزمن ، بما حل فيه من نَكَبات ، وما قام من ضغوط واضطهاد ، من الدولة العثمانية على ابناء لبنان ، بعد انتهاء فخر الدين . لم تسمح ان تُبقيَ لنا من تراث الشيخ الفاضل ، الا شذَرات ، دُوِنت في كتاب اسمه (**آدابُ الشيخ الفاضل**) . ان هذا اللقب الشريف قد تغلب على الاسم الصحيح فاصبح العامةُ لا يعرفون الشيخَ محمداً ابا هلال ومزاره ، بل **الشيخ الفاضل ومزاره** . وهو نفسه . يقول المؤرخ : ان من يدخل الى (الآداب) يشاهد فيه الشيخَ الفاضل ونفسَه الكبيرة ، ومزاياه التي تفرد بها ، ويرى مجالسَه العامرة بحلقاتِ الشيوخ ويستمعُ احاديثه وتفصيله الاحكام في المسائل والقضايا ، ويرى طِراز المعيشة التي كان يعيشها هذا العابد الاكبر ، واسلوبه في الامر بالمعروف ، وسياسته الدينية . كان يُنفق المال ولا يدخره ، حتى انه حين طُلب اليه ان يكتبَ وصيته ، قال : : « ما في عُمري كله صَررتُ قرشا لاجل الادّخار » . (١٤)

لقد كان يحضُ الاخوان على القناعة والكفاف . وينهي عن السرف والتبذير .. وكان يحب القنع ويفعله ويستحسنه من كل احد . كان يفعل ذلك في طعامه وشرابه ولباسه . ويأمر به غيره ... كان يحب الرفق والايثار بين الاخوان ، وكان يقول : اذا اراد الله بقوم خيرًا ، انزل بينهم الرِفق ... وكان دائما يردد : النظافة من الايمان . ويقصد نظافةَ القلب والجسد معا .

وقيل انه جين احس بقرب الاجل ، قال للحاضرين حوله : مطلوبي منكم ، ألا تدفنوني الا في حقل ينحرثُ ، حتى لا يُعرف لي قبرٌ ابدا . ثم قال : ولا تنعوني الى احد ، وبلغوا عن لساني ان لا يَرثيني احدٌ ببيت شعر ، وان لا يتكلف احدٌ في عزائي شيئًا . (١٥)

كان القاضي الفاضل صورةً صادقة عن امامه المكرم (ابن مضعون النجاشي)

فكانت « صومعته دنياه ، وهي محجةٌ لاهل التقى والكرم والهداية · وكان هو الصوت الخافت للحقيقة العليا ، يرجعه صدى جياش داوٍ ، في اعماق الضمائر، يحث الانسانَ الى الاستسلام والطاعة لخالقه ، وينير في نفسه طرائق الصلاح، فيتسلم الانسان هيكلا ماديا ، ويضفي عليه من الروحانيات ما يجعل منه مرتكزا للفضيلة ومكارم الاخلاق · ان توجيهات الشيخ الفاضل تصيغ الانسان : انسانَ اللحمِ والدمِ والشهواتِ ، تَصيغهُ ، جذوةً وقادةً بالضياء السماوي ، فيحقرُ المادة ، ويقدسُ المحبة ، ويفيضُ وداعةً وولاءً للجماعات ، فلا يفرق بين انسانٍ واخر ، الا بالعمل الخيّرِ والمنطق الحشيم · كذا كانت صومعة ابن مضعون ، ايام الرسول وكذا غدت خلوة الشيخ الفاضل بعد زهاء عشرة قرون وكذا هو حتى اليوم مزارُ الشيخ الفاضل حين يؤمه السادةُ العقال ، مرددين مواعِظهُ ، عاملين على الاقتداء به جُهدَ المستطاع ·

هذا هو السلك النُوراني العريق في القدم ، يمتد ويزداد امتدادًا ، محتفظا بألِقه وصفائه ، منذ كان هِرمسُ الهرامسة من خمسة وخمسين قرنا حتى اليوم ، يسطع في كل خلوة طاهرة ، وبكل صدر عامر بالايمان ، عاملاً على دفع الانسان لِعجلةِ الحضارة الحق والصدق ، الحضارة التي تزرع في الصدور المحبةَ والاحتشام ، والعفةَ والنشاطَ للعملِ البَنّاء ، الحضارة التي يزول فيها تجهيلُ الضعيفِ وتجويعُهُ وابتزازُ جهودهِ ، ويُلجَمُ فَمُ المُحتكرِ والمستعمِر ، ويداه ·

وقد كان الشيخ الفاضل مُلِمًا بالشعر ، حذا فيه حذوَ الامير سيف الدين سلفهِ ، وحذو ابن الفارض ، وابن العربي ، لكنه كان مؤمنا برب سرمدي ، يتجلى تأنيسا لِخلقه ، فما غالى في صوفيته ولا تناهى في انخطافه ، بل ظل العقلُ سيدَ الموقف ، كان متكلا على الله لا متوكلا متخاذلا ، كان ينادي : حيّ على خيرِ العمل ·

ولكي نزدادَ خبرةً لنفس هذا الشيخ الجليل ، نختارُ بعض مقاطعٍ من شعره، تنبئنا عن حقيقته وترينا وجهَهُ الصحيح ·

اهلُ المودة ما نالوا الذي طلبوا
حتى لِربهمُ في الخلوةِ انفردوا
تراهمُ الدهرَ ، لا يمضونَ من بلد
الا ويبكي عليهم ذلك البلدُ

٠٠ مساجد الله مأواهمُ ومسكنهم

وعيشُهم طيبٌ في قربـــه رَغَـــدُ

ناجوهُ في القرب بالتعظيم مُنفــردا

غابوا عن الكونِ فيه٠٠ عندما «شَهِدوا»

٠٠٠

وله ايضا :

للهِ قومٌ سمَوا بالعلـــم والعمـــلِ

برغبةٍ صدقت فـــي طاعـــةِ الازلِ

٠٠٠ لهمْ نفوسٌ عن اللذات آبيـــةٌ

وما لهم رغبة في الحرصِ ٠٠ والاملِ

لا يفْتنـــون بأمـــوالِ ولا ولـــدِ

ولا يريدون ٠٠ غيرَ الواحد الازلـــي

ذلّتْ نفوسهمُ فـــي حـــبِ سيدّهـــمْ

حبٌ شفى صدرَهُم من فاتكِ العِلـــلِ

٠٠ هواهُ غابوا بهِ عن ذاتِ انفسهـمْ

كما تَغيبُ نجومُ الليلِ ٠٠ بالأفُلِ (١٦)

ولْنسمعهُ في هذه الابيات التي تذكرنا بشعراء دولة عمر بن عبد العزيـــز ، ففيها الصدق كل الصدق في الابتهال والتضرع والخشوع ، وفيها متانة التعبير وحسنُ الصياغة ٠

قال :

الحمدُ للـــه حمـداً دائمـا ابـــدا

ما دمت حيا ودامَ الروح في جســدي

والشكرُ للمصطفى المختـــارِ سيدنا

عَينِ الزمانِ ، وعينِ القلبِ والكبـــدِ

وآلهِ الغرر الانجـــابِ صفوتـــه
باللفظ والفكر والاوهام ٠٠ والخَلَـدِ

هم بُغيتي في الورى ، دون الانام،وهمُ
سُؤلي، وقصدي، ومطلوبي، ومعتمدي

ارجو شفاعتَهم يومَ الحسابِ غـــدْا
عند الالهِ الكريم القـــادرِ الصمــدِ

ولنقرأ له مقطعا من قصيدة يقلد فيها نهج البرده :

٠٠٠ نيراننا لم تزلْ تلظى لِبعدكـــمُ
مسعـــورةٌ بهجيـــرٍ دائــمِ الضَرمِ

بحـــقِ فضلِكـــمُ ، جودوا بِقربكمُ
بحسبِ مالَكُمُ من سابـــقِ النِعَـــمِ

ولا تردوا طِـــلابَ الوالهين بكـــم
وتتركوهم لقاً ، في التِيـه والعَـــدمِ

فنحن في الحب لا نُصغي لِعاذلنـــا
ان المحب عن العُذال في صَمَمِ ٠ (١٧)

الشيخ علي جنبلاط

لننتقل من خلوة الشيخ الفاضل ، حيث العزوف عن الدنيا ومتاعها الـــى سماحة الشيخ علي رَبْح جنبلاط ، الشيخ الذي استطاع بما لهُ من مكانة دينيـة مرموقة ، وفضلٍ وتقوى ان يقيض له الجمع بين الدين والدنيا ، بما اسبغ اللـه عليه ، من ارزاقٍ طائلة وخير عميم ٠

كان سماحته من كبار الاقطاعيين في بر الشام؛امتد به العمر مـــن عـــام (١٦٩٣ ــ ١٧٧٨) ٠ زاد في ثروته ما تملكته زوجته عن ابيها الشيخ قبلان القاضي ، من قرى اقليمَي التفاح وجزين قاطبة* ٠ ولما كان يملـك الاستعـــداد الفطري لتولي المناصب الخطيرة ، وكان على هذا الجانب من الغنى المـــادي والخلقي ، حيث التقى فيه : السخاء المفرط والجراة الفائقة ، والادارة الحكيمة،

وتقوى خالقه العظيم · لذلك كله أُسندت اليه مع الزعامة الزمنية الاصيلة ، الزعامةُ الدينية ، فغدا شيخَ عقلاء الطائفة ، ولم يكن للطائفة حتى عهده غيرُ شيخ واحد لكل العشيرة وكان مقره بعد المختارة : بَعْذران،حيث نشاهد بقايا قصرِه حتى اليوم ·

تُبئنا هذه الصلاحية الواسعة ، وتحمل تبعاتها واعبائها، ما كان لسماحة شيخنا المعطاء من تسامح ديني ومن مكانة سامية بين معشر الدروز ، وبين كبار الحاكمين على امتداد هذه الاصقاع ·

وهناك بادرة صدرت عنه ، اضافت الى ثروته الطائلة ثروة مماثلة · والبادرة هي :

لقد اضُطرّ والي عكا التركي الى السفر لاسطنبول ، فأعوزَه المال · خطر له ان يستدينَ من سماحة الشيخ علي جنبلاط ، فطلب ، فلُبي طلبه ، عطاء بغير سَند · بعد قليل ، عاد ذلك الوالي المعزول ، واليًا على بلاد الشام ، فكان وفيًا لسماحته ، اذ اصدر امرًا يمنحه فيه تملكَ البقاع الجنوبي شرقا وغربا · فاقطع الشيخ بعض قراه للمخلصين له ، وتسلم الباقي ، وفاضت عليه النِعم ، وكان اهلا لها ، اذ انه احسن انفاقها ، وخص عائلات كثيرة بمعظم قراها : في الساحل والداخل · (١٨)

ان شيخنا المذكورَ هو جد الزعيم الكبير الشيخ بشير ، فاذا كان قد فات السلفَ ان يتجند كليا لمعترك السياسة الوطنية ، فلم تفته لفتة مباركة على ابناء البلاد ، حيث ساند في مشاريع عمرانية كثيرة ، بقدر تطلعات بيئته ومستلزماتها، واضطلع بأعباء السياسة الروحية ، على سعة مدى نفوذه ، فكان الشيخ الورع ، كثير الصدقات ، خاصة على معشر العقال المعوزين · اية عِظة نغنمها من بادرة سماحته مع والي عكا ؟؟ اكان في حسبانه عودة الوالي ؟؟ وأريحيته تلك ؟؟ اما كانت الدولة العثمانية على كف عفريت ، تتخبط في سياستها الداخلية والخارجية ، وفي دفاعها عن ممتلكاتها في الشرق والغرب ، وفي المؤآمرات التي تحاك لها ، والعصبية الجامحة التي اخذت بعاصفتها ملوك اوربا ضدها ؟؟

أيعقل في هذا الصخب والقلق ، ان يستعيدَ الوالي نفوذَهُ ، وقد صدر الامرُ بعزله ؟؟ واي مستندٍ عليه لِيقومَ بوفائه ؟؟

كان يُعرف شيخُنا الوقور ذلك كله ، وكان مع كل هذا ، ذلك السماحَ النبيل ، فما ارتضى مُستندا ، يثبت حقَه ، ويعيدُ له ذلك المبلغ الضخم ٠

ولم تربط كليهما صداقة ، ولا جوار ، ولا حبٌ لمكسب واغتنامٌ لمنصب ٠ انما كانت الرابطة ، ذلك الشعاع الروحي ، الذي اعتصم بخيطه سماحته ، فتعلم وعلم خدمةَ الانسان ، لانه إنسان ، وبحاجة لان يُخدم ، متعاليًا فوق العصبية القومية ، والنزعة الطائفية ، مُترفعًا عن حب المادة واختزانِها ، حين تدعو حاجةُ انسانٍ اليها ، ايا كان ذلك الانسان ٠

وفوق هذه المزية السمحاء فان مناقبَ كريمةً كانت تواكب كل تصرفات سماحته ، من حب للتعاون بين افراد البلاد ، وعدل في قضاء الامور الموكولة اليه ، وحسنِ ادارة في مجالَي الاجتماع والتشريع ، وتسامح ديني مطلق ٠ تلك المناقب ، تناقلتها الالسنة عبرَ البحر ، حتى حدَتْ بقداسة البابا كلمنت الثالث عشر ان يتوجهَ برسالة لطيفةٍ الى شيخنا الجليل ، بتاريخ ١١ ايلول ١٧٦٥ يرجو فيه ان تشمل عنايتُه ، احدَ بطاركة الروم الكاثوليك في لبنان (١٩) ٠

من مضمون رسالة المقام الاقدس ، يتبينُ لنا مقدارُ الثقل السياسي والاجتماعي لرائدنا الجليل ، في هذا الجبل الاعز ٠ ومن يواكب مسارَ التاريخ في لبنان وسوريا معا يتحقق :

انه ما كان للمادة من دَورِ اخّاذٍ في كل زمن ، مع كل الشخصيات الخطيرة في معشر الدروز ، اكانوا زعماء دنيا ام عقال دين ٠ ومناقبُهم كانت ملازمة لنفوسهم الدوّارة ، تنتقلُ معها وتزداد تبلوْرًا فتختلط الجماعة بزعمائها ، معتصمةً بهذه المناقب ٠ ولم تكن زوابع المحن التي اجتاحت عشيرتَهم مرارا ، لم تكن الا صِقالاً لِجوهرهم ، ومِحكاً لِلذهب الابريز ، حين يعلوهُ بعض الصدأ ٠ كلها مناقبهم متوارَثة ٠٠٠ الى حين يُبعثون ٠

الشيخ يوسف عربيد ابو شقرا

وزمنَ دارتْ رحى الاحداث على المعنيين ، وشاء زعماء الدروز مختارين ان يسندوا الحكم في بلادهم (جبل معن) الى الشهابيين ٠ كان منهم الامير يوسف شهاب ومقره دير القمر عام (١٧٦٢ ـ ١٧٧٠) م ٠

خطر لهذا الامير يومًا ان يفرض ضريبة على الشاشيّات وقد نوهنا عن ذلك سابقا . ومن الواضح ان الشاش يكثرُ استهلاكه لدى الدروز ، بسبب المناديل المتهدلة ، والعمائم الكثيرة . وما كانت الضريبة الا ارضاءً لِجشع المستعمِر العثماني ، ولِتزلف حاكم الجبل ، ومرضاةِ اسيادهِ المستعمرين ، ثم لتمريغ انوف الاقطاع الدرزي المتصلب بحقه في السيادة . هذه العوامل دفعت الامير يوسف لان يصرّ على تحصيل هذه الضريبة . أيَتمُّ له ذلك ؟ واي إرغام للدروز اذا تم !!

غير ان احكام القَدرِ كانت اعنفَ من حكم الامير ، لان العدلَ سيدُ الاحكام ، ومتى انحرفَ الحاكم لِهوىً في نفسه ، فعلى الشعب ان ينهضَ الى تقويمه .

هكذا اراد سماحةُ الشيخ يوسف عربيد ابو شقرا ، لانه المسؤولُ الاول عن جماعته الموتورين ، اراد ان يطالِبَ بحقٍ لجماعته ، وان يناقشَ ويناهضَ وان يغضبَ ويُنذر ، فاستشاطَ الاميرُ غيظا وصرخ : **هذه البلادُ لا تتسعُ لِيوسفَين** » .

اجابه الشيخ بلهجة مثلها : « **المَزروكْ يَرحل** » وخرج من عنده ، فبات في بعقلين وكتب في ليلته الى القرى الدرزية المجاورة يقول : اخوانَنا ابناءَ الطاعة :

يقتضي حضوركم في صباح يوم كذا ، الى مرج بعقلين بالاسلحة الكاملة ، والذخائرِ الوافرة ، لأمرٍ يحبه الله .

التوقيع : الفقير لله يوسف عربيد ابو شقرا (٢٠)

في اليوم المعين ، تدافعت العُقّالُ من كل صوب الى مرج بعقلين ، فبلغ عددُ الجماهير سبعةَ آلاف . كلهم بالعمائم الناصعة ، والاسلحة المغمَدة .

قصَّ عليهم الشيخُ ما حدث ، فاكبروه وصاحوا : لَننتقمنَّ . وكان المرج يموج بالعمائم ، وكانت الرصانة هي المهيمنةَ على الموقف ، لان الجموع كلهم من العُقال وكلهم يصح فيه قول شوقي :

« الليثُ يُسرفُ في الفعالِ
وليس يُسرفُ في الزئيرِ »

على ان سماحته قد شاء ان يتريثَ قبل الهجوم ، فارسل الى الامير يُنذره

بابطال الضريبة ، فجاءه الجواب بالاصرار عليها ، من غير ان يتحسب الامير لِعقبى تصرفه . لما وعى الشيخُ والجماهير هذا الجواب تصايحوا : « ما عِدْنا نُطيقْ .. هيا بنا . فاعتلى الشيخ مطيته المتواضعة وانشد بصوت مرتفع سائرا : « **عا المصطفى زيدوا الصلا ..** » فاستجابت الجماهير وتابعت : « **بسيوفنا نفني العدا .. يَمّا لهم يما لَنا** » . واتجهوا نحو بيت الدين . وكان رسول الامير ساعتئذ قد وصل الدير واخبر سيده عن تجمعات الدروز ، فضاق ذرعًا وطلب اعيان البلدة ، وكانوا من آل نكد (الدروز) ، فطيب هؤلاء بخاطره ، وخففوا من هواجسه وذُعره ، طالبين منه العدول عن رأيه ، فرضخ للامر الواقع . وفي الحال ، بعث هؤلاء الاعيان الى سماحته ولجموع العُقال ان المعضلةَ قد زالت ، والقرارَ اُهمل ، والاميرَ يعتذر . فرجع المتواكبونَ الى قُراهم بِسكينةٍ تامة ، لا اثر فيها لِلتبجّح .

بعد ايام صفا الجو بين الامير والشيخ وتبادلا الزيارات ، حتى كان يومٌ دعا فيه الاميرُ صديقه ، لِوليمة في منزله ، فحضر مع احد اقربائه ، وبعد تناول الغداء بقليل ، احس الشيخُ بدُوارٍ وصُداع حاد ، التزمَ على اثره الفراش ،وكان يومانِ، وتُوفي مَسمومًا مع رفيقه (٢١) .

لهذه الحادثة ابعادٌ ، لن نتعمدَ الاطالة فيها ، ونكتفي بموجز سريع : السلاح الذي استعمله الشهابي الحاكم في دسّ السم ، يبرهنُ قيمة الفضيلة والكرامة عند هؤلاء الذين يغدرون بصديق لهم ، آخاهم عن طيبة ونبل . وما كان هذا السلاح في يدهم ليشهرَ مرة واحدةً دفعًا لحيفٍ ، بل شُهر مراتٍ بوجه المواطنين المخلصين والاقرباء والتاريخ شاهد حق .

اما سماحة الشيخ يوسف فكان له فضلُ احقاق الحق ، وفضل السهر على رفض ما يعاكس مصلحة جماعته في حال بُطله . وله التقدير على غيرته تلك ، ووقوفه جسورًا حازما بوجه حاكم مُتواطِىء ، رفعت جريمته خصمَهُ الى مَصاف الشهداء .

ما كان للشيخ ولا لجماهير العقال ، ان ينتضوا السلاح بوجه حاكم وطني ، لِيقاتلوا جنودًا وطنيين والقتل محرم تحريما في العقيدة ، فكيف اذًا ؟؟

ان التحدي السافر الذي طالعهمن الحاكم هؤلاء العقالُ، بفرض تلك الضريبة، اعتبروهُ ، نِصالا موجهةً لصدورهم ، اعتبروهُ امضى من النصال : غمزًا

لابائهم ، وتجريحًا لكرامتهم ومحاولةَ تذليل وقمعوتركيع ٠

هذا الاعتبار دفع بهم الى المعركة مهما ساقت من مجازرَ واهوال ، وهـــذا الاعتبارُ احال الاصالةَ نزقًا والحكمة تجاهلًا ، والتواضع استكبارا واحال هذا الاعتبار من تلك العمائم الناصعة ، والوجوهِ المُستحيية ، والنفوس المثابرة على الصدق والايمان ، احالها زوابعَ حرب : إما الموت او الحق ،واما وطن نستظـل سماءَهُ بعزةٍ وننعمُ بخيراته مُكرمين ، او محقٌ ودَمار ٠ ترى ؟؟ أكانت الضريبـة بنفسها هي الحافزَ لهذه الثورة النفسية العارمة ؟؟ ابدا لا ٠ المال تكسبه سواعد الرجال اما الكرامة ، فان السيفَ ابوها وامها ٠ متى يُستَهنْ بها ، يتصـــدعِ المجتمع ، وتُعشبُ دروبُ المكرُمات ٠

لِذا ، قد ثارت نفوس الجماعة ، وشكرًا للعناية التي اخمدت السعيرِ ، وعُرِفَ ان هؤلاء المتواضعين لا يحاربون الا مُضطرين ، وحين يطمئنون الى الغَلبَة فانهم يؤثرون العيشَ بسلامٍ وتواضع ٠

كان وما برح مُناوئو هذه العشيرة يُجيدون بَثَّ السموم ، والطعن بالقفــا ، وكانهم اتخذوها مبدأً لِمسلكهم التعايُشيّ اليومي ٠ أفتبقى اقلام المؤرخين رهينـةَ العصبية الحمقاء ؟؟ والى متى ؟؟

وفي المناسبةِ اذكرُ انني كنت على موعدٍ مع المؤرخ الفقيد أسد رُستم ، فسألته مُعاتبا : كيف تُجيز لِقلمكَ ان يكتبَ هذه الاباطيلَ في تاريخ لبنان المدرسيّ ؟؟

اجاب : انا واللهِ مسؤولٌ عن القسم الثاني من الكتاب (اي عن التاريـــخ القديم) وزملِيي (فلان) هو الذي سمح لِخيالهِ ان ينطلقَ كما شاء ، في تدويـنِ التاريخ الحديث ٠

ألا أنعمْ بذلك الزميل الامين !!

الشيخ محمد قاسم عبد الصمد :

ولد في عماطور عام ١٨٦٦ م بمنزل عريق وجاهةً وثراءً وتُقى ، اشرف على اوقاف ومجلس سماحةِ جده الشيخ محمد حسين عبد الصمد ، فكان شابًا وكهلا، مثالاً للنزاهةِ والعفةِ ومكارمِ الاخلاق ٠ وُكلت اليه مراجعُ رسمية عُليا ، القيامَ مع

بعض الشخصيات الدرزية الكريمة ، عام ١٩٢٦ بمساع للوفاق واخماد صوت القنابل ولعلعةِ الرصاص ، في جبل حوران اثناء ثورته ، فنشطَ مُلبيًا هذه الدعوة الخيّرة ، وقام مع صحبه بكلما يملي عليه ضميرُه الحي ، ونزعته الدرزية الصادقة ، وروحُ الوطنية والعروبة المتأصلة في نفسه ·

وفي عام ٩٣٤ حصل خصام حادٌ وتقاتلٌ يؤسَفُ له ، في قضاء صَفَد بفلسطين، بين ابناء العشيرة انفسهم بدسّ من الحكومة المستعمرة ، لِتعميق الجراح واحداث ثغراتٍ بين هؤلاء ، يسهل بعدها قيادُهم الى حيث يطمع الحاكمون ، على رغم ضآلةِ عدهم وثقلهم السياسي ·

عرَفَ اولو الامر من بني معروف ، في لبنان ، بهذا الحدَث فكلّفوا فضيلة الشيخ محمد عبد الصمد ـ يصحبُه قِلةٌ من مشايخَ بارزين ـ القيام بمساع للتوفيق ولأم الجراح هنالك ، وفي اليوم التالي لِفض النزاع ، صدرت صحف فلسطين منوهة في عنوان كبير بموقف فضيلتهِ ، مُستشهدةً بِعباراتهِ الدالة على حِجىً وافر وبُعد بصيرةٍ وثقابة رأي ·

ومن مواقفهِ المشرفة تأييدُه للسلام العالميّ في توقيعه على نداءِ انصارِ السلم يومَ كانَ شبحُ الحرب قابَ قوسَين ، وقال آنذاك : السلامُ طِلبة كل الموحدين ·· فليكُــنْ ·

ولما تجاوز فضيلته السبعينَ من عمره ، انقطع انقطاعًا تاما عن كل مسعى ، وعمل ، وتفكيرٍ عام وعائلي ومنزلي حميم، خلا ما يوجبهُ عليه دينه الشريف · كان يراه ابناءُ بلدته اصيلَ كل نهارٍ على الطريق العام ، متوكئًا على عكازه بقامتهِ المديدة وجسدهِ البَدين ووجههِ الصَبوح ، المشرق مهابةً وتواضعًا ووَرعا، يخطو بِتؤدةٍ الى خلوته ، في ظاهرِ بلدته ، حيث يتألبُ المشايخ من مُختلف القرى ، معظمَ الليالي ، فيُحيونها دراسةً لِرسائل التوحيد · وهو بِدوره ، يتمثلُ بصاحبِ الطهارةِ الشيخ ابن مضعون النجاشي ، فتَتَشابهُ الصومعتانِ ويرف فوقهما جَناحُ الفضيلةِ والصَفاءِ وصِدقِ التوحيد ·

وكان مؤلفُ هذا الكتاب بأم عينه يرى فضيلته ، في مَنزله ، وحولَه على المائدة لفيفٌ من اعيان البلاد ، يأكلون شهيّ الطعام ، وينعَمون بأفخر الفواكه والحَلويات ، وهو بينهم مكتوفُ اليدين مُعتذرا بِلباقة ، تلمعُ تحت حاجبيه عيناه ، سخاءً وترحيبًا ، مِن غير ان تمتد يدُه الى مأكلٍ ، لا على المائدةِ ولا خارجَها ،

اللهم الا المتواضعُ منه الذي يسدُ به رمقه لدى الإفطار · وكان هذا التصرفُ الخفي الشاق ، قد رافق فضيلتهُ طيلةَ عهدَي شيخوختِه وهَرَمه ·

وفي عام ١٩٤٨ في افق تكثّفتْ فيه غيوم التناحر والعصبيات العائلية والسياسية المحلية في الطائفة ، وثبَ في حماسة المستشهدين بعضُ زعمائها ، لإذكاء نارِ الضغينة في الصدور ، تدفعهم الى شفا جرفِ هذه الهوة الوخيمة ، أيدي كبار المسؤولين في الدولة ، لِمآربَ خبيثةٍ متوارثةٍ ·وقد وجَد هؤلاء الساسةُ والزعماء فرصةً سانحةً لِنفثِ سموم الشِقاق والتنازع ، لدى فراغ منصبِ مشيخةِ العقل · لكن المساعيَ الحكيمة التي دأب لها الفضلاءُ من مشايخَ واعيان ، لجمت اشداقَ الشر وسملت مُقلتَيه ، حين اصطفت لهذا المقام الرفيع فضيلةَ شيخينا الجليل ، الشيخ ابي سليمان محمد قاسم عبد الصمد ، اصطفته وهو في خلوته، عاكفًا على تلاوة فروضة الدينية ، غارقًا في صيام متواصل، منقطعًا عن كل سياسة خاصةٍ وعامة ، لا يَشغلهُ الا الواجبُ الديني وحسب ·

تقبَّلَ سماحتُه هذا المقامَ بفخرٍ وتواضع ، وشرع يعمل بهمة ورصانة ، وصدق موحدٍ تعدى الثمانين عاما ، زاخرةً باصدق المناقب · وكان طالعًا سعيدًا على الطائفةِ ، وعليهِ ، حين ظفرَ بعد فترةٍ وجيزة ، بِصِنوٍ له ، في مُقتبل العمر ·

التزما المنصبيَن معًا ، يدفعُهما للعمل الخيّر فيضٌ غامرٌ من النزاهة والاخلاص وصدق الطوية ، كما كان يتجاذبهما نطاقٌ نورانيّ توحيدي ، يُنير سبيل الغد ، مُذللا عقباتِه ، مُسفهًا كل معاندٍ ومكابر ، خدمةً للطائفة ، ودفعا لها بعيدًا لِتجتازَ مراحلَ التخلف المُحيق ، والحرمان المُطبق ·

كان دورُ سماحة الشيخ محمد عبد الصمد ، وهو في قمة عِقده التاسع ، انه منَحَ كل ثقتِه ، برضىً واختيار ومَحبة ، لأبنه الروحيّ ، وصنوِ المقام : سماحةِ الشيخ محمد ابي شقرا ، الذي سخا عليه الحق ، بِشباب نابضٍ نشاطا واقداما، وبنفسٍ طماحةٍ للخير ، الى اقصى حدود الطموح ·

وكانت نهايةُ شيخِنا المَهيب ـ بعد ان قرَّتْ عيناهُ بوضعِ حجرِ الاساس لبناء (دار الطائفة) ـ نهايةَ الشمسِ ، وهي على كَتِفِ الغروب · تكافحُ الدَغشةَ والضِلة ، بما تبقّى في مِحجَريها من وَمَضات نورٍ صفراء ، تتخذُ منها العيونُ السليمةُ ، إثمدًا ابديًا ، وهاديًا مُقوما ، في مَدارجِ الخيرِ والصلاح ·

[illegible]

القبائل وعلية الرجال [illegible]

الطيرة ، وقام مع صحبه بكلما يدل على [illegible]

[illegible]

للتوفيق وكان [illegible]

فلسطين منوهة في عنوان كبير بموقف فضيلته ، مستشهدة بعباراته الدالة [illegible]

[illegible]

يوم كان شيخ العرب غائب [illegible] ، وقال أمامه : السلام عليه كل الوطنيين [illegible]

[illegible]

وعمل ، وتفكير دائم [illegible]

كان يراه أبناء بلدته أصيل كل نهار على الطريق العام ، متوكئا على عكـ[illegible]

[illegible]

بمناسب الطهارة الشيخ ابن [illegible]

فوقهما جناح الفضيلة والصلاح وسعي الترحيب .

[illegible]

والسلوكيات [illegible]

[illegible] ، من غير أن تمتد يده إلى مأكل [illegible] على المائدة ولا [illegible]

الشَيخ محمّد داود أبو شقرا

« ربي : الكونُ مرآةٌ لِوجهِكَ ، ونفوسُ العبادِ شَراراتٌ مِن وَهجِ نــــورِكَ الشَعشَعاني » .

« رابعة العدوية »

« إثنانِ يَدلانِ عليكَ : بَناتُ فَمِكَ ، وعَمَلُ يَدَيْكَ » .

« لُقمـــان »

« يَسعد المرءُ بثلاثةٍ : تقوى اللهِ ، وأبرّ الأعمالِ ، وصالحِ البَنين » .

« الشيخ محمد عبده »

الشيخ محمّد داود أبو شقرا

في غَمرة التمزّق السياسي الذي واجههُ لبنان ، في مطلع الخمسينات ، والذي ارتدت نتائجه على الطائفة الدرزية التي كانت قد غرقت في سُبات عميق ، سَحابة عشرات السنين ، لفّ خلالَها الجمودُ اوضاعها : الاجتماعية والمذهبية والادارية والوقفية والصحية ، وسواها لفًا كاد ان يكونَ تاما ، في هذه الغمرة وفي تلك الاوضاع ، اجمع الدروز على انتخابِ حضرةِ صاحب السماحة الشيخ محمد ابي شقرا ، لِتسنم منصبِ الرئاسةِ الروحية في الطائفة الدرزية كشيخ عقلٍ لها، فجاء وكأنه الرجلُ المنتظرُ الذي حقق لها ما كانت تصبو الى تحقيقه ، من انجازاتٍ في الحقول المار ذكرها ، وذلك في ظل فراغٍ قانوني كامل ، وفي ظل : الظروفِ والعادات والخلافات والرواسب والتيارات التي كانت تعمل في جسم الطائفة الدرزية ، تشرذُمًا وتقسيما ٠

عكفَ سماحتُه فورًا على دراسة وضع منصب شيخ العقل ، سواء من حيث اهميته بالنسبة الى الدروز ، او من حيث الصلاحيات التي يجب ان يمارسها شيخُ العقل ، وكيفية تكريس هذه الصلاحيات في صِيَغٍ وأُطرٍ قانونية ، لتكون لها صفةُ النفاذِ والاستمرار ، لدى جميع المقامات والدوائر والمراجع ٠

ثم بادرَ الى الاهتمام بايجاد اطارٍ تنظيمي للطائفة الدرزية ، يكون منطلقًا لتحقيق الاصلاحات ، وإدخالِ الانجازات التي كانت ولم تزل هذه الطائفة ، في امسّ الحاجة اليها ٠

وهكذا خرجت الى النور ـ في عهد سماحته ، وبنتيجة الجهود والمساعي

المتصلة ، التي بذلها شخصيًا ، على مدى سنوات طويلة ـ الاعمال ، والهيئات، والمؤسسات المختلفة التي تتطلبُ الاحاطةُ بظروف وملابسات احداثها ، صفحاتٍ كثيرة ، واننا نكتفي هنا في الوقوف لِماماً إزاءَ عناويِنها ٠

اولا : دارُ الطائفة الدرزية

وهي الصرحُ المهيبُ الذي ارتفع فيموقع متميزٍ من بيروت ، والذي اصبح مقرًا لمقام مشيخة العقل الجليلة ، ومركزًا لِاجتماعاتِ المجلس المذهبي للطائفة الدرزية، والمكان المفضل لِعقد المؤتمراتِ والندواتِ والاجتماعاتِ الدرزية ، ولِاستقبال الشخصياتِ الرسميةِ وغير الرسمية ، من لبنانيةٍ وغيرِ لبنانية ، في مواسمِ الطائفة واعيادِها ، ومُلتقى الدروز في افراحِهم واتراحِهم ٠

ثانيا : مقامُ مشيخة العقل

لقد تعزَّز هذا المقامُ بسماحة الشيخ محمد ابي شقرا الذي جعل من « دار الطائفة الدرزية » مقرًا له واوقد مِشعلَ منارتهِ ، وامَّن له جهازًا كاملا من الموظفين ، يعمل بإشرافِ سماحته ، في دوائر واقسام مختلفة ، وضمنَ الاصول المقررة والمعمولِ بها في اجهزة الدولة ٠

ثالثا : المجلسُ المذهبيُّ للطائفة الدرزية

لقد تحققَ انشاءُ هذا المجلس ، بموجب القانون الصادر بتاريخ ١٣ تموز ١٩٦٢ وهو يضم ـ برئاسة سماحة شيخ العقل ـ نوابِ الطائفة ووزراءُها الحاليين والسابقين ، مع نخبةٍ من حَملة الشهادات العليا والمثقفين ، ورجال الاعمال فيها ٠ ويدخل في صلاحيات هذا المجلس ، الاشرافُ على شؤون الطائفة الدرزية الاجتماعية والمالية ، وبخاصةٍ شؤون الاوقاف والجمعيات الخيرية القائمة ، والتي ستنشأ في المستقبل ٠

رابعا : الاوقافُ الدرزيـــة

كانت اعيانُ هذه الاوقاف الكثيرة ، والقائمة في مناطق ومدن وقرى مختلفة في لبنان ، تُدارُ ـ قبل تسلم سماحة الشيخ محمد ابي شقرا مقاليدَ مشيخة عقل الطائفة ـ على اسسٍ بدائيةٍ بعيدةٍ عن اي تدقيق حسابي ، وقد تصدى سماحته لقضيةِ الاوقاف ، وعملَ على لمّ شَعثها ، وتصحيحِ قيودِها ، وضبطِ مواردها ، حتى تحقق له ما اراد ، بعد مُعاناةٍ قضائيةٍ تطلبت رفعَ اكثرَ من مئة دعوى ، ضد الغَير ، ومعاناة اخرى ادارية ، وضمن نطاق الطائفة ، استمرتا اكثر من عشر سنوات ، تمكن سماحته خلالها ، وبنتيجتها ، من إحداثِ ادارةٍ مستقلـــة للاوقاف ، تعمل ضمن نِطاق : « المديرية العامة للاوقاف الدرزية » التي يتآلـــف مِلاكها ، في الوقت الحاضر ، من مديرٍ عام ، يساعده جهازٌ كاملٌ من الموظفين الدروز ٠

خامسا : القضاءُ المذهبي الدرزي ٠

ان مؤسسة القضاء المذهبي ، اصبحت جزءًا من تنظيمات الدولة القضائيـة خلال سنة ١٩٦٨ ، وذلك بنتيجة الجهود والمساعي الكثيرة والمتصلة ، التي اسهم فيها سماحته بالقِسط الاكبر ، ويمكن التأكيد ، بان هذه المؤسسةَ قد حـــازت التقديرَ والاحترام ، من جميع الجهات القضائية ، وغيرِ القضائية ، لِما اتصفت به عناصرُها ـ قضاةٌ ومساعدون قضائيون ـ من علم ونزاهةٍ وانضباط ، بحيث اصبحت موضع اعتزازِ الجميع ، وعنوانا من عناوين كرامةِ الطائفة والدولةِ معًا ٠

سادسا : المقاماتُ الدينية الدرزيـــة

ان هذه المقامات ، كانت مَوضعَ اهتمام سماحته منذ اليوم الاول لتسنُّمـــهِ منصبه ، وقد ادى هذا الاهتمام الجدي الى ضبط موارد هذه المقامات مـــن التبرعات ، ضبطاً دقيقا ، كما امن لكل منها ، المراقبة الشديدة ، تحت اشرافه المتواصل ، بحيث تمكن سماحته بنتيجة ذلك ، من مباشرة إحداث ابنيةٍ جديـدة حديثة ، واصلاحِ الابنية القديمةِ في تلك المقامات ، وتأمينِ تجهيزها بالمفروشات والادواتِ اللازمـــة ٠

سابعا : المؤسسةُ الصحية للطائفة الدرزية

بعد ان لمسَ سماحةُ الشيخ محمد ابي شقرا حاجة الطائفة الدرزية الماسة لدار للعجّزِ ولِستشفى ، فقد تمكن في وقت قصير ـ بمساعدة ذوي النخوة والاريحية من الدروز ـ من مباشرة العمل في هذا المشروع الجليل الفوائد ، بعد ان جرى التبرعُ بكامل الارض الفسيحة اللازمة له ، وتم وضعُ خرائطه ، وشق الطرق اليه ، بالاضافة الى التبرعات النقدية التي ما زالت ترسَل باستمرار ، الى مقام مشيخة العقل ، للغاية المارِ ذكرُها .

ويمكن التاكيدُ ، من انه بعد وقت وجيز ، سيصبح المشروع المشار اليه ، حقيقةً ساطعة ، ومنارةً مُشعةً ، تُضاف الى المناراتِ التي سبقت الاشارةُ اليها .

ثامنا : المدرسةُ المهنية وغيرها من المؤسسات التعليمية

وهناك مؤسساتٌ مِهَنية ، وتعليمية ، ومشاريعُ عمرانية ، واجتماعية اخرى ، ينوي سماحته تنفيذها ، وقد باشر في العمل لهذه الغاية ، بالنسبة لبعضها التي لن يطول الانتظار لِرؤيتها قائمةً في تحقيق اهدافها الخيرة ، لجميع ابناء الطائفة الدرزية .

هذا وقد سعدَ المؤلف ابان انكبابه على تصنيف هذا الكتاب ، والبحث خاصةً عن منجزات واعمال واقوال سماحة شيخنا الجليل ، سعدَ بمخطوطة اعدتها للنشر لجنةٌ من رجال دين ودنيا ، جمعوا فيها بعض ما لسماحته من نفائسَ ومواقفَ حميدة .

فوجد لِزاما عليه حرصًا على الامانة التي يقتضيها عمل كل مؤرخ ، ان يقتطف من هذه المخطوطة زهرةً من باقة :

منشاه :

ولد عام ٩١٠ بعماطور وفي عام ٩٢٥ التحق بالثورة السورية لمكافحة

الاستعمار الفرنسي . في المعركة ، التقى احدَ قادةِ الثورة : (حسن الخرّاط) مع جمهرة من الدروز ، فالتفتَ اليهم حسنٌ وقال بهُزءٍ : اتأتوننا باولاد للمعركة ؟! ادركَ الفتى محمد انه المعني، فصرخ في القائد : « **يا حسن بك ، لقد اوشك الجيشُ ان يصل ، فاقعدُ الى جانبي في المتراس ، لِنرى اينا سيصمد**.» نفض القائد طرفه . وبعد المعركة ، صدق توقع الفتى .

وذكرت جريدة الكفاح الدمشقية بتاريخ ٢ـ٦ـ٩٤٥ بعنوان (يوم القلعة) وتوقيع (الامير عز الدين التنوخي) عضو المجمع العلمي السوري : « ان الفضل في ثباتِ قلعةِ دمشق وانقاذِ سوق الحميديّة من النّهب والحرائق ، يعود كله الى أبطال مرابِ ابي شقرا : الشيخ محمد داود واخويه الذين انقضوا تحت وابلٍ من رصاصِ المستعِمر وحققوا كسبَ المعركة » .

وللشيخ محمدٍ ، وهو في عنفون شبابه جولاتٌ في السياسة المحلية موفقة ، تمتْ في عهدَي : القُوتلي وحسني الزعيم ، وكانت غايتها تثبيتَ حقوقِ الطائفة ، وصيانة الكرامة والعنفوان في بنيها .

وبعد ان تسلم مَهامَ مشيخة العقل ، قام بتوعية المشايخ العُقال،وباصلاحات اولية منها : طبعُ وتوزيع نشرات قيمة ، فيها هداية الى الدين وحرص على تعاليمه الحكيمة ، وتسليط اضواءٍ على تاريخ الائمة الصادقين ، لِيكون مقتدىً افضل ، لأهل الرشاد .

بعد هذا ، وبعد قيام مشروع بناء بيت الطائفة المنوّه عنه سابقا،دوى من هذا البيت العتيد نداءُ سماحته ، الى ابناء الطائفة كافة ، لِنصرة اخوانهم في جبل العرب ، لمقاومةِ الظلم ونُصرةِ المضطهدين ، وكان يشد ازرَ سماحته معالي كمال بك جنبلاط . وقد زار الدارَ مندوبُ وكالة الانباء ، وسأل سماحته عن الحل لمشاكل الجبل ، فأجاب على الفور وبحزمٍ وحدة : « **لا حلّ لها الا بنزول الطاغية الشيشكلي عن كرسي الحكم** » . وما لبث ان نزل الشيشكلي وتقاضى عقابَه .

من مناقب سماحته (١) : فرط تواضعه في القَول والعَمل واننا لَنحقق ذلك ، في تدوينه ، لكل الرسائل والنشرات قبل التوقيع : « **اخوكم الفقير** » . كما نحققه لدى كل مقابلة له ، وتجاه اي زائر رفيع ام وضيع ، وان شأنه شأن كل المشايخ الموحدين ، **ينحني للزائرِ ويتبادلانِ تقبيلَ اليدين في السلام والتوديع**

معاً . وهذه الشيمة اصلٌ في طبيعة اهل التوحيد ، وشاهد على تأصل الديمقراطية في طباعهم وعاداتهم .

ب : اهتمامُه الجدي بتثقيف المرأة وتحضيرها ، حضارة توحيدية زمنية ، يشهد بذلك ، تشجيعه للمؤسسات والجمعيات النسائية الرصينة ، وارشاده لهن الى انتهاج سلوك اقومَ واعفَ دنيا ودينا .

ج : عنايتُه بحفظ الاخوان ، وغيرِ الاخوان من مواطنين واغراب ، تعترف بذلك الصحف اللبنانية اليومية :

لقد اجرى سماحته مُصالحات متعددةً في كثير من القرى الدرزية ، مصالحات لِخلافات عابرة ، وبحوادث قتل كثيرة ، وكان رائده : تعميقَ الايمان بفضيلة التسامح ، والتغاضي ، وضبط النفس . ومن ادعيته في هذه المواقف : اللهم اني براء من الطلب الا منك ... اشغلْ قلبي بذكرك ، وزينّ لساني بحمدك وشكرك .. »

وفي حوادث زغرتا الدامية أطلت علينا الصحف بتاريخ ٢١-٢-٩٥٨ تنشر رسالة سماحته لرئيس الجمهورية ومجلس الوزراء وقيادة الجيش ، ومؤداها : « ان معالجةَ قضية زغرتا بالاخلاص والحكمة والرفق خيرٌ من معالجتها بالشدة والعنف والقتل والتدمير ... اننا مستعدون لِتحمل كل مشقة ، وللتدخل حالا وبذلِ كل مُستطاع ، لاقرار الامن والسكينة ... »

كما ان سماحته قد ارسل الى السيدة (انديرا غاندي) متوسطا لازالة الخلاف واطلاق سراح اسرى (الباكستان) تلبية لِرجاء من سفيره ، في ١٤ شباط ٩٧٣ فاستجابت السيدة غاندي للطلبِ على الفور .

عِظاتٌ وتَوصيات :

من العِظات القيمة والادعية الحارة التي لا ينفكُ يلهج بها سماحته : « ما الصلاة الا صلةَ القلوب بالله ، عن طريق المجالس المكرمة .. انها تطهر النفوس، وتمحو الخطايا ، وتصقل الاخلاق .. انها عمل ونية ، وسلوك واخلاق .. »

وقال سماحته : « لا سعادةَ ولا اطمئنانَ بغير اخلاقٍ وايمان ... التوحيد

هو الشيء ، وغيرُه لا شيء ·· على المجتمع التوحيدي ، ان ينتجَ رجالا اقوياء ، اكفاء ، شجعانا علماء ، بررةً اتقياء ··· رسالة التوحيد : عدل وحق ··· جهادُ النفوس بتقويم اعوجاجها ، وصدّها عن الهوى ، وعما لا خير فيه ··· يصدأ القلب اذا استمر بعيدا عن روح الدين ·· الحد الفاصل بين الايجابية والسلبية في حياة الشباب هو : الاخلاق ·· الطفلُ وعاءٌ فارغ ، وقلبه جوهرةٌ ساذجة ··· مصدرُ سلطة كل زعيمٍ درزي : ابناءُ طائفته ·

ومن توَصياتِ سماحته :

« أُوصي اخوتي الشيوخَ ليبقوا شعلةَ هداية ونور في هذا العصر المظلم ·· رسالة الامهات سامية واجرهن عظيم ·· حضارة القرن العشرين ، تبرّج وزيف، لا تحل مشاكل البشر ، وان حلها على يد رجال خُلق ودين ، يخدمون العدلَ والحق ، والجمالَ النابعَ من الخير ··· التضحية خير عامل ، لِمحو الانانيات والتغلبِ على الشهوات ، وتحقّقُ روحَ التآخي والتضامن ··· تعاشروا بمعروفٍ واستبعدوا المنكرَ وعِفوا ···

· · ·

كان سماحته لا يفتأ يكثّفُ الزيارات والسهرات في القرى النائية للمجالس الروحانية ، والمقامات المكرمة ، وفي كل مجلس كان يدوي صوته الشجاع الرصين ، مؤكدا ، في خطبه الموجزة البليغة ، على الخط الاخلاقي القويم ، المتوجب اتباعه ، وعلى السيرة الحميدة ، والعملِ البناء والنياتِ الصافية التي يفرضُ علينا سلوكَها ، مذهبُنا الكريم في العمل اليومي · ومن اقواله هذه ، مخاطبا معشرَ المشايخ في تواضعه المعهود : « ارجو ان اجد في نياتكم الصالحة وصفاء خاطركم الكريم ·· عونًا لي على اداء رسالتي المنشودة » ··

ولم يقف صامتا قط ، حين اخذت ألسنة نيران الضغينة واللؤم والدس عام ٩٧٥ تتراقص على مروج لبنان ، وتعبث باخضراره : بشرًا وبناءً وخمائل ·

مما قاله يومذاك قولاً من صميم جوارحه : « تَهمُنا سلامة لبنان ، ونقف الى جانب الحق اين كان · »

وقال بملء فمه : « ان الاحداث التي تقرع اسماعنا ، تدعونا جميعًا الى

التعاطف وتُلزِمُنا الزاماً بالتفاهم ، وتنادينا الى غسلِ القلوب ، مـــن الادران والرواسب . »

وقال : « نِعمة الحياة في الاخاء ، والاتفاق والاتحاد . » . **أليس هذا الكلام أبعد ما تصبو اليه الديمقراطية الحديثة ، في بناء دولةٍ معاصرة ثابتة ؟؟**

كما ان سماحته كان ينظر للقضية الفلسطينية ببصيرة ثاقبة ، وبوعـــي ويقظة ، لما يدور على المسرح السياسي العالمي ووراءَ كواليسه ، من مؤتمـرات ومؤآمرات ، على هذا الشعب المشرّد الطَعين .

من اقواله اللاهبة : « يا للعار يحيق بالعرب ، وبالعالم الاسلامي والمسيحـي معا ، اذا هُم لم يضَعوا حدا سريعا لجرائم الصهاينة ، المتمادية المتلاحقة ... لا بد من التضحية لِدفع الشر ، وحفظِ الاوطان والكرامات ... »

وقال : « **مجاهدةُ الصهاينة فرضُ عَين** ... والاستكانة مسلكٌ لا يتفق مـع طبيعة الايمان ... الباطل المتحرك لن يوقفهُ الا ايمانٌ ناشط متحرك ... قـد تحجبُ عيونُ التضليل شمسَ الحق ، ولكن الى حين ... قضية فلسطين بحاجة الى تضحيةٍ جماعية .. »

كما انه كان قد أيد دولةَ الرئيس شمعون سابقًا باسم الطائفة الدرزية للتدابير الحازمة التي اتخذتها ضد اسرائيل يومذاك ، وانه لعب دورًا بارزًا مبـرورا لتأمين استقلال لبنان وحرية العملِ الفدائي في مطلع نشاطه .

ومن أقواله في جمال عبد الناصر : « جَلجَلةُ صوته : الحرية والعدلُ والحق، وخطوط نهجهِ : الوطنيةُ والصراحةُ والصدقُ .. »

ومن المواقف الحازمة لسماحة الشيخ محمد ابي شقرا ، دفاعا عن حقـــوق الطائفة ، وتجنبا لِمساوىء الاخلاق ، والمطاعن بالعقيدة ، نلمح على عجل الى :

١ ـ مصادرة كل كتاب ، فيه غمزٌ او طعن بمذهب التوحيد .

٢ ـ احتجاجٌ ملُح وجريء على اباحةِ القمار في نوادي لبنان .

٣ ـ اشارةُ سخط وتبكيت ، على تواني المسؤولين عن مناهضةِ المفاســـد ،

والتفكك الخلقي والمنشورات الاباحية ، في المجلات ودور السينما » ٠

٤ ـ المطالبةُ بالاقتصاص من ناشري المفاسد ، والغاء كل نظـــام مدرسي ، رسميٍ وخاص ، فيه روح الميوعةِ والانفلاتِ واللامبالاةِ ، والتعصبِ المقيت ٠

اما المطالبة بانصاف الطائفة ، في كل مرافق الدولـــة ، والمؤسســـات ، والمعاملات ، فكانت شغلَ سماحته الدائم ، وكان هو الصوتَ الداوي إبدا ، لدى كل الادارات وفي كل المواقف ، وبكل المناسبات : **لنا حقوق يجب ان نعطاها ٠٠ لن نتخلى عن واحدٍ منها** ٠

وهذه احدى البرقيات التي رفعها سماحتُه لرئيس الجمهورية بتاريخ ٢٦ـ٣ـ ٩٦٢ :

« الغُبن والاجحافُ بل الحرمان ، مظالمُ لاحقةٌ بطائفتنا الدرزية . اثبتناهـــا في المذكرات المسهبة ٠٠٠ استمرار الاهتضام والتجاهل ، لا يصلحان للحكـــم دعامةً ، وللوحدة الوطنية اسّا ٠ اذا حاق الدروز ضيمٌ ، لن يبيتوا على استقرار، وهم حُماة لهذا الوطن ٠ »

وفي اليوم العاشر من آب عام ٩٥٠ زار سماحة الشيخين محمد عبد الصمد ومحمد ابو شقرا فخامة الرئيس بشارة الخوري ، مؤكدين عليه الاهتمامَ بالشوف من حيث الطرقات والمياه والمدارس « ولدى انصرافهما قال فخامته : « ادعوا لنا ياصاحِبَي السماحة » ٠ اجاب الشيخ الشاب : « **إعملْ حسنا ندعُ لك** » ٠ وتابع

« **ندعو لِمَن يستحق الدعاء ، واننا لن نستجديَ حقنا استجداء** » ٠

وفي ٢٠ آذار عام ٩٥١ قام بعض الدرك بتفتيش رهط من المشايخ على الطريق العام ، فاسرع سماحته ببرقية لفخامته تقول : « ٠٠ انما قِحة رجـال الامـــن **وسوء تصرفهم ٠٠٠ لن نسكت على الضيم ، ولن نُحجم عن الدعوة لِحمـــل سلاحِ الايمانِ بالحق ، لإخماد الباطل ٠٠** »

وحين حضر رسولٌ من لدن فخامته ، معتذراً ، زوَّده سماحتُه بهذه العبـارة لِينقلها لفخامته : « **ما سبقَ ان اطعنا مُكرَهين** ٠ » ٠

وكأن عينَ سماحته شمسٌ تتهدلُ اشعتها على كل قرية ، ومنزل وادمي من بني عقيدته ، فيزخر النفوسَ بنفائس توصياته ، وارشاداتهِ ، في المكاتبات حبذا ، وفي الخُطبِ ، والمداولات حينا :

خاطب الفتى والفتاةَ ، والام والابَ ، والغنيَ والفقيرَ ، والمهاجرَ والمشرد ، وخاطبَ الزعيمَ والموظفَ ، والعاملَ والتاجرَ · خاطب كلَ هؤلاء كاشفًا لهم بعض اسرار العقيدة ، وما تبطنُه من دعواتٍ الى العِفة والرصانةِ ، والسخاءِ والصبرِ ، وفضيلةِ النشاطِ في العمل ، والصدقِ في المعاملة ، والقناعةِ في المربح ، والاخلاصِ في اداء الرسالة · مُخاطَبات وافرةٌ مستفيضة ، تقتضي وحدها مجلدا كبيرا ، املين طيبَ جَنى غِراسِ هذه الجهود الشاقة ·

ومِن ابرز ما كان سماحته يكتُبه ويُذكر به رؤساءَ الجمهورية المتعاقبين ، في مناسبة عيد وطني ، او تنصيب لمقام الرئاسة ، هو :

١ ـ التذكيرُ بانصاف الدروز في مرافق الدولة ، تذكيرًا مُلِحًا حازما ·

٢ ـ الحثُ على ايجاد مناهج تربوية اجتماعية ، تستقيمُ بها النفوس ،ويتوطد العدل ، ترسيخًا لوحدةٍ وطنية صادقة ، وتضامنٍ وتحابٍ ، يشمل الشعبَ اللبناني كله ، على اختلاف معتقداته السياسية والروحية ·

فحبذا لِو كانت صادفت هذه التوصياتُ ، اذنًا واعية ، وضميرًا صادقا حازما ، لكنا تلافينا هذه المجزرة ، وهذا الدمارَ ، ولَظلَ لبنان اخضرَ ، ومهدَ رخاءٍ وعطاء ·

الشيخ محمد ابو شقرا ومواقفُه من ثورَتي : ٩٥٨ و ٩٧٥ ·

ان تفاقمَ الشرور واباحةَ اموال الامة ، والعبثَ بكل مقومات الدولة ، وبكل مناقب الانسان ، وبكل قيم الاديانِ ، ومواثيقِ الاحزاب الحرة ، كل ذلك جعل من عهدِ الرئيس كميل شمعون ، بؤرةَ مفاسد ومطاعن ، وحكومةَ ازلام ومحسوبياتٍ وقبضايات ، تموّلهم الدولة العتيدة ، وتطلقُ سِراحَ المحكومين المُجرمين ، وتسلحُهم ·

وينتفضُ الشعب وتتالبُ احزابه ، مطالبة ببريقِ عدالةٍ ، فينهمرُ عليه رصاص درك الدولة .

وتحدثُ الانتخاباتُ النيابية ، فتُفجّر كلُ الطاقات واللاأخلاقيات لتفشيل خصوم الدولة ، وتتأزمُ الحالة الدولية ، ويدوي بوقُ التحرر والحياد التام ، في الدول العربية ، فيتخطر الاسطولُ السادسُ في عُرض البحر ويحاول العبورَ بايعازٍ من دولةِ الرئيس شمعون .

لقد ابى على سماحته دمُه العربي الاصيل ، وعنفوانُه ونبلُ نفسه ، الا ان يقفَ دِرعًا في وجه هذه المؤامرة النكراء . فشد ازر الشهيد القائد كمال جنبلاط وتعاونا على احباط كل تآمرٍ ، ونبذ كل فسادٍ والتهبَ الشوف ... وكانت دولةُ الرئيس فؤاد شهاب .

وفي عام ١٩٧٥ صرح سماحته بان الديمقراطية المنُفلتة ، والاحزابَ المتعددة الاهداف والاغراض ، وعدمَ الانضباط والميليشيات المسلحة بمعرفة الدولة نفسها ، وكسب مغانم ، وهضم حقوق ، وضياع العدالة . كلُ هذا كان من اهم اسباب ثورة ٩٧٥ المدمرة الضارية .

وقد اقترح سماحته في بدء الثورة حلًا عاجلًا للازمة يقوم على :

١ ـ رفضِ فكرة التقسيم اطلاقا ، وحسنِ تعايشٍ عام .

٢ ـ اقامةِ العدلِ والمساواة بصدق ، وبين كل الفئات .

٣ ـ معالجةِ الامور بالتفاهم والمنطقِ ، لا العنف .

٤ ـ تسامحٍ وتضحيةٍ من اجل الوطن العزيز .

٥ ـ اتفاقٍ بين الفلسطينيين ، ليُطبّق بأمانةٍ واخلاص مع الدولة .

وقد كانت امهاتُ الصحف اللبنانية تنشر على التوالي ، نداءات سماحته واقتراحاته من اجل احلال الامن ، في الربوع ، واستبدال الضغينة والحقد ، بالتسامحِ والحب ، حفاظا على الوطن وبنيه . وكانت دعوته لتسهيل مجال

العمل لرئيس الجمهورية ·· ونداؤه الحار ،في سبيل الجنوب وابنائه ، ومن كلامه المأثور : « **ان معارضة الرئيس ، عرقلة لِمساعي السلام ·· وان التعاون العربيّ هو الحل الافضل ··** » وقال سماحته بايمانه الصادق في ما يقول : « **بِنا توقٌ الى الحرية المسؤولة ، التي تبني المواطن والوطن معا ·· اذا كانت هناك نفوسٌ مهياةٌ للتحرر من رواسب الطائفية بالفعل لا بالقول** » ·

لقد اشادت الصحفُ على انواعها ، واشاد الانعزاليون انفسهم ، بمساعي الشيخ محمد ابي شقرا والرفيق وليد جنبلاط ، بما قاما به من تلطيف الجو ، واشاعة الامن والاستقرار ، وضبط النفس ، ونسيان ما سبق من احداث مفجعة · كان شعارهما : **الزام التعقل ، والمساهمة في اطفاء نار الفتنة والتعالِي فوق الجراح مهما ثخنت** · وقال سماحته : « **نناشدكم ان تكونوا اوفياءَ لِحسنِ الجوار والجارِ ، وان لا تدعوا سبيلا لاحدٍ كي يسيء لِتقاليدنا العريقة** · »

وفي يوم ١٧ اذار ١٩٧٧ اشارت الصحف الى موقف سماحته الحاسم بُعيدَ استشهاد القائدِ المعلم ، ضمانا لِوحدة الكلمة ، والخط ، والمصيرِ في الطائفة · وقفَ سماحته قُبالة السيد وليد جنبلاط وقال مكررا : « **بسم اللهِ والحمدُ لله ، عوضنا بالخلف عن السلف ، مَرحى ايها الوليد** » · ثم تسلم عباءةَ القائد الشهيد السوداءَ الموشاةَ ، ووضعها على كتفيَ الابنِ الأبر ·

وصدرت الصحف اللبنانية يوم ٧ نيسان ٩٧٧ وفي اولى صفحاتها تصريح سماحته :

« **سيبقى الشوفُ مهدَ التعايش لان العقلاءَ لا يتأثرون الا بالحقائق** ·· وقال بعدها : **انتهت** مِحنة الشوف ، والمطلوبُ فتحُ صفحةٍ بيضاء يعمها الصفحُ والتسامح · »

وقالت مجلة الصياد بتاريخ ٣١ آذار ٩٧٧ : « **لقد عمل سماحته جاهدًا وبدون كللٍ لإِعادة الهدوء ونشر الطمانينة بين جماعة الخائفين ··· لقد كان سماحته صاحبَ الدورِ الاول والاكبر ، في اعادةِ السكينة الى الشوف الحزين ···** »

وبعد اجتماعات متكررة ، في دار الطائفة حضرتها القمةُ الاسلامية (قمة عرمون) كان لِسماحته مطلبٌ رئيسيّ هو اعادة الاستقرار ، وتركيزُ دعائم لبنان

الواحد ، بكل طوائفه · ومما صرح به : « **ان المُواطنَ الصحيحَ هو الذي يُساهم في بناءِ المستقبل ، ولا يكونُ متفرجًا وحسب ، على اعمال الساعة** » ·

ومما يؤثر عنه بيانُه التلفزيوني في ٢٦ـ٢ـ٩٧٦ ·

« اتوجهُ الى جميع الاخوان اللبنانيين كافةً ، ان يعود كل الى دينه ، وضميره، الى انسانيتِهِ ووطنيتِهِ ، الى وعيهِ وعقلهِ ، فيعتبر بما جرى ومضى ، ويعمل مُخلصًا على محوِ ما سطرته جهالاتنا ، واطماعنا ، من سطورٍ سوداء قاتمة ··· »

بهذه الروح السامية ، نضحتْ مشاعرُ شيخنا المهيب ، فكانت الصدى الاصدقَ والاجهرَ لمكتنزاتِ هذه العقيدة السمحاء بما تنطوي عليه من مناقبَ ومُثلٍ رفيعة· فليعتبرِ المكابرونَ ·

وهوذا سماحته ، يتقدم مؤخرًا ، بمشروع للاتفاق والمصالحة الوطنية ، الى الدولة ، بواسطة مجلس الامة اللبناني ، في غضون هذه الاحداث والمآسي ، مؤداه ، انقاذُ البلد من حالة القلق والفوضى والتقاتل المستمر ، في حين ان كل المسؤولين من اقطاب الدين والدنيا ، ما برحوا مكتوفِي الايدي ، مشدوهين واجمين ·

تركَّز المشروع على ان حل الازمة لا يحدثُ فعلاً ، الا من مساعي ابناء البلد انفسهم ، ومن كبار المسؤولين على الاخص · وقد تفضل سماحته بتفصيل تلك المساعي ، يضيق المجال عن تعدادها ·

اما صدى هذا المشروع في الندوة النيابة فقد اوضحته وكالة الانباء الصحفية في نشرتها بيوم ٣١ـ٨ـ١٩٧٨ · قالت الوكالة :

الصُلح : نُرحبُ بمشروع الشيخ ابو شقرا ، ونطالبُ بتنفيذه ·

الوزّان : مشروعُ ابو شقرا ليس بعيدًا عن مواقفنا ، ينبع من صدق نية ومن موقع رعائي كبير يتحسس بالام ِالمواطنين وشرورِ الاخطار المحيقة بالبلاد ·

عُسيران : اقتراحٌ وجيه ، وجديرٌ بالاهتمام والتنفيذ ·

رشيد الصلح : نُرحب باقتراح سماحة شيخ العقل ونعتبرهُ اقتراحا بنّاء" يهدف الى وضع حدٍ للمأساة التي يعيشها لبنان .

ابو فاضل : مشروع سماحتِه مدروس .. ارحبُ بأي حلٍ يضمن وحدة لبنان .

فؤاد لحود : اقتراح سماحته هو الطريقةُ المثلى للتوصل الى الوفاق الوطني .. ولكن هناك فُرقاء .. وارتباطات ... وتخوفات ... » وعاد فاكمل : « نأمل ان تكونَ في بادرة سماحة الشيخ ابو شقرا بادرةُ كل الخير للبنان ، كما جرى في عهدِ الامير فخرِ الدين الاول باني لبنان الحديث . »

عبد اللطيف الزين : اقتراحاتُ سماحته وجيهةٌ وفيها الكثيرُ من الحكمة والتعقل وبُعد النظر ، .. على المسؤولين بدءًا من رئيس الدولة ، ان يأخذوها بعين الاعتبار ... باسم المواطنية اللبنانية اشكر سماحته .. فانه يرمي الى وحدةِ اللبنانيين والى الحفاظ على لبنان شعبًا وارضًا .

اين اصواتُ ومساعي دُعاة الصلاح والاصلاح ، في هذا البلد ، ولِمَ ، ليتآزروا جميعهُم مع سماحة الشيخ محمد ابو شقرا ، تفاديًا منهلاك محتم ودمارٍ اعم ؟؟

طال بقاء شيخنا المقدام، ابي المُفاجآت والمبرات ، وعمَّ انشاؤه للمؤسسات ودوام محافظته على احقاق الحق ، والزام العدل والصدق ، وسهره على التوعية العصرية الملتزمة ، وصيانة الاخلاق ، والتوجيه الامثل دينا ودنيا ، فلا يندّ ضالٌ ، ولا تَعمهُ بصيرةٌ ، ولا يستحكمُ التحجرُ بعقلٍ في عصرٍ تفتحتْ فيه نوافذُ المُغلقاتِ ، وتدانتْ مَسالكُ النجوم .

وقبل ختامي لِبحث مشيخة العقل ، اشير بفخر ، الى ان هؤلاء الاجاويد الموقرين كانوا المثل الاصدقَ ـ في مدى عمرهم ـ للمناقبية التوحيدية الدرزية ، وقد عزز هذه المناقبية وركزَ علَمها سماحة الشيخ ابو شقرا ، مُدلِا بتواضع عليها، في كلمة قالها في الكتاب المُعدّ للطبع والسابق ذكره قال :

« ان تقييم الاشخاص ، يكونُ عادةً على قدر انتاجهم ، وعلى قيمة ما قدموه لجماعتهم وامتهم . واني من هذه الجهة ، اعترفُ باني لم استطع تحقيقَ كل ما اصبو اليه ، اذ لم ينفتح لي مجالُ العمل ، لاكثرَ ما عملت ، وكان عملي

محدودا ، متواضعًا ، في حين كانت ارادتي توّاقةً لأكثرَ واكثرَ ٠٠ ومع كل تقصيري ، فقد وجَدتُ فيه طائفتي العزيزة ـ في نِظاميتها وتعففِها ونبلها ـ تقديرًا لا استحقه ٠ اعتبرُ هذا التقديرَ من اخواني المكرمين ، هو العنصرَ الزكيَّ الطيب ، الذي فُطرَ عليه ابناءُ معروف الموحدون ، والذين شملوني بهذا العطف والتجاوب البناء ، في كل ما نُقدمُ عليه من اعمال ٠ فلا سبيلَ لي الى وفائِهم ، لاكثرَ من اخلاصي ، وبذل قُصارى الجهد ، في السعي لتوطيد عِزتهم ، ورِفعةِ شأنهم ، ورفع كل مستوياتهم : الروحية والمعيشية ٠ اثابَهمُ اللهُ اجمعين ، واعانني على ما يقتضيني الواجبُ نحوهم ، ونحو لبنان الوطن الغالي ، الذي فيه لِقومي حقوقٌ ٠٠ وتضحياتٌ ٠٠ وآمال ٠

[illegible]

للبنان ، كما جرى في عهد الامير فخر الدين الاول باني لبنان الحديث .

عبر التلفيقات الزمنية اقتراحات سماحته وخبرته وفيها الكثير من الحكمة والتعقل وبعد النظر ... على المسؤولين بدءاً من رئيس الدولة ، ان يأخذوها بعين الاعتبار ... باسم المواطنية اللبنانية اشكر سماحته ... فانه يرمي الى وحدة اللبنانيين والى الحفاظ على لبنان شعباً وارضاً .

اين اصوات وضمائر دعاة الصلاح والاصلاح ، في هذا البلد ، وليت ليتآزروا جميعهم مع سماحة الشيخ محمد ابو شقرا ، تأكيداً من هذا محبة ووجدان امر ؟!

طال بقاء شيخنا المقدام ابي الفاعليات والهيئات ، رغم انشاء المؤسسات وسواها محافظة على احقاق الحق ، والتزام العدل والصدق ، وسهره على التوعية العصرية اللازمة ، وصيانة الاخلاق ، والتوجيه الامثل ديناً ودنيا ، فلا يفل ضالا ، ولا تعمه بصيرة ، ولا يستحكم التحجر بعقل في عصر تفتحت فيه نوافذ المغلقات ، وتألقت مسالك النجوم .

وقبل ختامي لبحث حقيقة العقال ، اشير بفخر ، الى ان هؤلاء الاجاويد الموقرين كانوا المثل الاصدق ، في مدى عصرهم ، للمثالية التوحيدية الدرزية وقد عزز هذه المثالية وركز عليها سماحة الشيخ ابو شقرا ، فعلا يتواصى عليها ، في كلمة ثالثة في الكتاب المعد للتكريم والسابق ذكره قال :

« ان تقييم الاشخاص ، يكون عادة على قدر انتاجهم ، وعلى قيمة ما قدموه لمجتمعهم وامتهم . واني في هذه المناسبة ، اعترف بأني لم استطع تحقيق كل ما اصبو اليه ، اذ لم يتسع لي مجال العمل ، لاكثر ما عملت ، وكان عملي

المنهج الزمني

ما كان في عهدٍ ، دعاةُ التوحيد وروّادُه ، لِيأبهوا بمغريات الحياة الدنيا . فلا الثراء ، ولا المناصب ، ولا مباهج الحياة ، وتألق وهج المدنية ، لِيشغلهم عن خطهم القويم ، منذ عُرف التوحيد . الدنيا في عُرفهم دارُ زوال ، كسرابٍ في عرض صحراء . لذلك ، تأصل في نفوسهم ، ونفوس أعوانهم ، الاعتصام بأشرف المثل ، والتنكر : للخديعةِ ، والملَقِ ، والخيانةِ ، والتبذلِ ، في كل ما تقوم به اليدُ والعينُ واللسان .

انهم في تاريخهم الطويل ، ما انسجموا الا مع الحق والصدق ، ولا كبح جماحَهم عنفٌ ، اين كان مصدره ، ولا التَعجت في صدورهم نارٌ لضغينةٍ وتعصبٍ ديني ، في كل عصورهم ، وانه محظور عليهم التبشيرُ لمعتقدهم ، حيث هم يؤمنون بان التوحيدَ ، هو هبةٌ من الواحد لكل موحد ، والدعوة للتوحيد قد عبَر قطارُها منذ الفِ عام .

يؤيد توضيحَنا هذا ، تصرفاتُ وانفتاحُ كبار رجال الدين على السياسة في الزمن الغابر . ما دعا واحدٌ منهم لمذهبه ، ولا عملَ لِصالح جماعته ، وتخلى عن سواها ، بل كان عملُهم جميعا ، وبكل عهد ، لِصالح المواطنين على السواء ـ قبل ان ذرّ قرنُ العهد الشهابي ، المشحونِ بالانغلاق والعصبية الجامحة ـ وما كان للدروز من طَولٍ فيه .

لم تشهد العهود التنوخية والمعنية ، سلطةً للدين على السياسة ، ولا اهتضامًا لِحق الشعب ولا تلكؤًا جماهيريًا عند نداء الوطن ، بل كانت هناك ديمقراطية سليمة وكانت لفتةٌ عميقة الى الصناعة والعلم ومستحدثاته . كان كل هذا ، في

القرون الوسطى حتى مطلع القرن السادس عشر ، يوم كانت اوربا في سَبات ، قُبيلَ مطلع يقظتها ·

فلنستمعْ الى الاديب الناقد المعاصر : (جيروم شاهين) المرجع (٢٢) ·

« ان العناصر التي كانت تُعتبر اساسَ الحضارة الاوربية ، وسرَّ قوتها وتفوقها ، يمكن اختصارُها كما يلي : **المجتمع المتحد ضمن المفهوم القومي ، ادارة الدولة ادارة تضمن خيرَ الامة وحدَها ، فصلُ الدين عن السياسة ، الديمقراطية ، احترامُ الحقوق الفردية ·· المناقبية التي تتجلى بمزايا التفاني في سبيل المجتمع ، واخيرا ، التنظيمُ الحديث للصناعة والذهنية العلمية · تلك هي الافكارُ التقدمية التي تطلعت اليها اوربا ، في القرن الثامن عشر ·**

اي جديدٍ جاء به هؤلاء ، على الدولة الدرزية ؟؟

ويقول الناقدنفسه بلسان الكاتب المصري كامل عَسلي : « **ان الارساليات البروتستانتية ، والكنيسة المارونية التي مارست نفوذا كبيرا في لبنان ، قد خلقت جوًّا من الارهاب ، كي تُحكم قبضتها على اتباعها** · » وتابع الناقد « اما سبب نفوذ هؤلاء ، **فلانهم جمعوا بين الزعامة في الدين ، وفي السياسة ، وفي العلم** · » واما سبب هذا الجمعُ الغريب ، فيعودُ الى ان رجال الدين المسيحيين ، كانوا في سوريا ولبنان معا ، معقدَ آمال شعبهم ، بالنظر **للروابط الوثيقة بين هؤلاء الكهنوت ، وبين الحكومة الفرنسية ، والحكوماتِ الاوربية الاخرى** ، التي لا تفتأ تشدّ ازرهم لِبسط النفوذ والتسلط ، حيث **يَجني الغربُ (المستعمِر) ، فوائدَ سياسيةً وماديةً جسيمة ، مقابلَ ذلك النفوذ الكهنوتي** · » (٢٣)

واي دور اضطلع بمهامه الرائدون الروحيون الدروز ، في غابر الايام ، وفي عصرنا الحاضر ؟؟ بعد ان نزل الموارنةُ المنطقةَ الدرزية في القرن الثاني عشر ، وتعايشوا اخوانا اصفياء ، وتعاملوا سواسيةً في كل زمان ومكان ، كانوا جميعُهم يحشدون قواتِهم لمقاتلةِ غزاةِ الديارِ، محافظين على كل شبرٍ من ارض الوطن الامّ : لبنان ·

وفي عهد المعنيين ، حكى المؤرخون واسهبوا عن النزعة اللاطائفية التي كان حكام البلاد مُعتصمين بها ، واثبت هذه النزعة النبيلة ، قداسةُ البابا ، في الرسائل التي بعث بها الى كلٍ من فخر الدين الثاني والشيخ علي جنبلاط ، مقدرا

فيهما الاريحية السامية التي حَدَتْ بهما لاحتضان الاقلية المسيحية ، ورعايتها برفقٍ وحنان · كما سبق ذكره

وفي بلدة (عبيه) يشهد التاريخ اي مواقف حازمة عادلة ، كان سماحة الامير السيد يقفها ، تجاه كل مواطن ، لا يفرق قريبا عن بعيد ، في المذهب وفي الحمى ·

اما الشيخ الفاضل فان كتابه (الآداب) الثريَّ بشتى الوان الفضائل الاجتماعية ، والزاخرَ ادبًا وتوجيهًا سليما ، لكل نفس بشرية ، ما خص ارشاداته باحد او بطائفة ، بل كانت كلها اريجًا دافقا ، يملأ كل صدرٍ على السواء ·

وقد سبق الشيخَ الفاضل في الزمن ، سماحةُ الامير سيف الدين التنوخي ، الذي اتخذ من (الخرج) زادا لكل مُعوز ، يضعُ فيه كل مثري ، ويتناول منه كل ذي حاجة ، من غير ان تُعرضَ الهويّات ، وتتبذل القِيم ، بل كان الشموخ والتعفف والتجرد ، هو السائدَ الوحيد ، في هذه الطرفة النادرة ·

ونعود عِجالا الى سماحة الشيخ محمد ابو شقرا ، فلنرجعْ قليلا بالكتاب ، نشهد اي المواقف والعظات والمهام التي عجت بالاطناب بها صحف لبنان اليومية · كان ، ذلك الدرزيَّ الاصيلَ ، وكان ، ذلك اللبنانيَّ المتفانيَ بحب وطنه ، وذلك الانسانَ الذي يتضوعُ من ثنايا جُبتّه ، حبُ السلامِ والوئامِ شاجبًا كل عُنفٍ ونَزَقٍ وتعصبٍ رخيص ، اين كان مصدره ·

هذا هو الخطُ المستقيم الذي رسمهُ منذالقِدم ، ايمةُ التوحيد ، وانه الخطُ الدائم دوامَ مِحورِ الارض ، المتوارثُ جيلاً عن جيل · خط توحيديٌّ وزمنيٌّ لامع ، لا يشحُب لَه ضياءٌ على الدوام ·

الهوامش

١ ـ كتاب التنوخي والشيخ محمد ابو هلال ، لعجاج نويهض ، ص : ١١٣

٢ ـ المرجع نفسه ص : ٦٦

٣ ـ المرجع نفسه ص : ١٢٥ ·

٤ ـ المرجع نفسه ص : ١٣٧

٥ ـ التنوخي وابو هلال ص : ١٣٨ ـ ١٣٩ ·

٦ ـ المرجع نفسه ص : ١٨٠ ·

٧ ـ عارف ابو شقرا ـ ثلاثة علماء طبعة ١٩٥٧ ·

٨ ـ المرجع نفسه ص : ٢٣ ·

٩ ـ المرجع السابق ص : ٢٢ ـ ٢٠ ·

١٠ ـ مشيخة العقل طبعة ١٩٧١ بيروت ص : ٨٨ ـ ٨٩ ·

١١ ـ مخطوط النقط والدوائر ـ لسماحته ·

١٢ ـ التنوخي وابو هلال ص : ١٧ و ١٨ ·

١٣ ـ المرجع نفسه ص : ٢١ ·

١٤ ـ المرجع نفسه ص : ٢٩٠ ·

١٥ ـ المرجع نفسه ص : ٢٩٣ ·

١٦ ـ عارف ابو شقرا ـ ثلاثة علماء ص : ٩٥ ـ ٩٦ ·

١٧ ـ امين طليع : مشيخة العقل ص : ٩٢ ـ ٩٣ · عارف ابو شقرا ـ ثلاثة علماء ص : ٩١ ـ ٩٢ ·

١٨ ـ توفيق سلمان : اضواء على مسلك التوحيد ص : ١٧٥ ـ امين طليع مشيخة العقل ص : ٩٥ ـ ٩٦ ·

١٩ ـ الرسالة مثبتة حيث الوثائق اخر البحث ·

٢٠ ـ عارف ابو شقرا ـ المرجع نفسه ص : ١٦٦ ـ ١٦٧ وقد سلم المؤلف الرسالة نفسها للمؤرخ يوسف يزبك· وامين طليع ص : ٩٥ ·

٢١ ـ امين طليع : المرجع نفسه ص ٩٤ ـ ٩٥ · عارف ابو شقرا : المرجع نفسه ص ١٦٧ · توفيق سلمان : المرجع نفسه ص : ١٨٠ ـ ١٨١ ·

٢٢ ـ مجلة آفاق اللبنانية ص : ١٠ ·

٢٣ ـ المرجع نفسه ص : ١٢ ·

المَرأة الدرزيَة

عناصر البحث :

أ ـ الست ساره

ب ـ نَسَب مَعن (ام فخر الدين الثاني)

ج ـ عَمشه القِنطار

د ـ نايفه جنبلاط

هـ ـ مُجاهدات ..

و ـ نظيره جنبلاط

ز ـ أَديبات

ح ـ ما قيل في المرأة الدرزية

المـرأة الدرزيـة

(دور المرأة الدرزية)

أُولى نضالاتِ المرأة :

للمرأةفي كل بيئة وزمن ، دورٌ رئيسي في مجتمعها ، تتصفُ بمزايا معينة محدودة · اما المرأة الدرزية فقد انطبعت في نفسها سجايا كثيرة رافقتها في الطريق الطويل ، منذ السيدة (ساره) ابنةِ اخت الامام بهاء الدين حتى العصر الحالي ·

اقتبست هذه المرأة سجاياها ، من رسائل التوحيد اولا واخرًا · لقد كانت اولى بذور الخير في تلك التربة · وقد فعل الزمن فِعله في صقل نفسها ، وانماء مميزاتها ، وعملت البيئةُ الطبيعية والاجتماعية عملَها المحسوسَ فيها ، واضافت اليها المعاركُ وتلاحمها ، وتدميرُها وتشريد العيال ، عناصرَ كثيرة : منها : التجلدُ على احتمال المكَارِه ، والشجاعةُ في تلقي الكوارث ، والاستهانةُ بالمرض وخشونةِ المرقد والمأكل والملبس · حتى لَغدتْ في صلابة الرجال ، محتفظة بانوثتها لليومِ الذي يختاره لها القدر ·

عنيَ الامامُ الاعظم بالنساء ، ولم يُميز الرجل عنهنّ في شيء من لُباب الحياة، وخاصة في ما يتعلق بتحصيل العلوم الروحانية · لقد استن لهن طرائق تمهد امامهن السبيل ، للوصول الى مناهل المعرفة ، حيث تستوعب الالباب منها كل المناقب التي تجمّل بها المرأة نفسها ، امام ربها وعائلتها ومجتمعها ·

فمَن قبلت منهنّ مختارةً دعوة التوحيد ، وجبَ عليها الالتزامُ بمُتطلباتِ هذه الدعـوة ·

اولى المتطلبات : الاعتصامُ بالفضائل التي نوّهتِ الرسائلُ عنها ، والرضى

والتسليم لحكم الله ، في كل الامور التي تتعدى طاقتها العقلية او الجسديه ٠

وانطلقت المرأةُ ، وانطلق الرجل ، وكان المجتمعُ الدرزي بخصائصه المميـــزة عبرَ تلك القرون ٠

الستُّ ساره ٠

عرَفَ النضالُ الروحي ماردةً نضالية في مصر ، (بالعهد الفاطمي) ، لايغمض لها جفن ، ولا يهجع جانب ٠ تصل الليل كفاحًا بالنهار ٠ وكان جو مصـــر محموما ملتهبا ، يبحث الشرطة عن الموحدين بالمجاهر ، ويطلقون الدوريـــات تعقبا لهم ، ويبثون في احياء المدينة وبين العامل والفلاح ، الرقباءَ والسُعاة ، بحثا عن موحدٍ ليُعدموه ، سبب ذلك اختلافٌ بالمعتقد في محاولةٍ لِتقييمٍ جـريء عقلانيٍ للمجتمع الفاطمي المتفكك ٠

هنالك على الصعيد ، تحت الشمس المتوقدة ، واللوافح اللاسعة كانت السيدة (ساره) مع بعض المكّارةِ تجتازُ المتاهاتِ الى بر الشام ، وجبل لبنان ، حاملةً من خالها بعضَ الرسائل التوحيدية ،لينشرها الاولياءُ على المخلصين في تلـك الارجـــاء ٠

ما نهكَتْ هذه المهمة ، على مخاطرها وتواصلها ، عزيمةَ هذه السيدة ، **وكلما تناهى المضيق شدة ، وتحكم الجوعُ والتعب في الجسد ، كلما تبلورت همتهـــا واتقدت حماستها ، اداءً للواجب ٠**

واستمر نضالُها سنواتٍ ، حتى بات على العقيدة حقٌّ ، وفَّتهُ للسيدة ، حيـن اعتبرتها في طليعة المناضلين الروحانيين ٠

كان بهاء الدين داعيًا ، الى عفة المرأةِ واحتشامها ، الى اختلاطها بحذر مع الرجال ، اذا كان لا بد من الاختلاط ٠ كيف به يناقض نفسه ؟ ويرسل ابنته الى شاسع الارض مع الرجال ؟؟ ويعرضها لاهوال واخطـــار ؟؟

انه عرف معدنَ ابنته فسلَّمها لله ، ولأيدٍ صادقة وفيّه ٠ ولم يكن ليختـــار ذلك لولا الدعوة الملحة ، والمهمة الخطيرة التي يرتاب ان يكلَها لاي انسان ٠

كانت « الست (ساره) اولى السيدات ، اللواتي تعرضنَ لمثل هذه المجازفات، وكان عملها باكورةً لاعمالٍ ستقدم عليها السيدات ، في حقول مختلفة ، ولهدف واحد : ترسيخ الايمان ، وتعزيز القيم الرفيعة في الانسان ، وصيانة العرض والوطن ، ودفع عجلة الحضارة الى امام ·

سنرافق التاريخَ خطوةً خطوة ، لنأخذ منه العِبرة مما جاش في صدور النساء الدرزيات ، وما اقدمن عليه من تضحيات ، وتميزن به من خلال ·

السيدة نسب معن ·

امتدح كثيرٌ من مؤرخي القرن السادس عشر السيدة (نسب) والدة فخر الدين الثاني ، وقد اثنوا على شخصيتها الرصينة الحكيمة ، واشادوا بما خُصت به منذكاء متوقد ، ومضاء فيالعزيمة ، وتبصر في رعاية وتوجيه ابنَيها : فخر الدين ويونس ، اليافعَين ، ثم مراقبة تصرفات الامير الحاكم ، بعين واعية شاملة ، تتبصرُ في قضاء الامور ، وتوحي الى ابنها انتهاجَ المسلك الحكيم · فايةِ قدرة لها كانت في معالجة الشؤون السياسية ، وفي مهارة التخطيط والتنفيذ ، في مناخ كلبنان ، كان الاستعمار العثماني فيه فاغرَ الاشداق ، دامي النيوب ، وكان ابنها فخر الدين ، القيّمَ على البلاد ، فشدت ازرَه ، واحسنت توجيهه ، وعمّرت نفسهُ بمناقب اسلافه ، عمدةِ التوحيد ، لقد كان عليها انتجتاز بابنها مخاطرَ ومكائد المستعمر والاقطاعي ، وان تنقذه من المؤامرات الشريرة الداخلية والبعيدة ، وان ترسخ قدمه على دَستِ الامارة الحاكمة رغم وفرة الحاسدين ·

لقد زار السائح البريطاني (سانديز) لبنان ، في عهد الامير فخر الدين الثاني ، فكتب : « ·· **ولا قام (فخر الدين) بعمل يؤثر عنه ، الا بعد استشارة امهِ (الست نَسَب) ورِضاها** · » (١)

وزيادةً في التوضيح فانها كانت ، المشتشارَ المخلص لابنها سيد الجبل ، وكان بدوره **يرجع اليها في كل اموره ، سيما لدى تفاقم الاحداث ،واحداق المخاطر ، حيث يجد فيها الموجهَ الاحكمَ والامنَ والاصدق** · وكان مُؤزرًا بالفلاح والنصر ، بفضل هذه الرعاية الشاملة ·

ودليلُنا الواضح على جدارة هذه السيدة ، وحُنكتها ودقةِ تصرفاتها ، فان

الامير ابنها ، حين اقتضت الاحوالُ السياسية ان يرحل الى (توسكانا) سلمها حكم البلاد ، كما وكل لاخيه يونس ادارةَ الجيش ·

وفي عوَدته ، ما لبثت الهاديَ الامين له ، في احلك ليالي نضاله ، ولعل ما اتصف به من سمو الخُلق ، والترفع عن الضغائن ، والتسامح الديني النبيل ، وبناء لبنان ثابت الركن ، في شعب موحد الرأي ، متماسك متحاب ، لعل هذا الشهدَ او معظمه ، مُجتنى من خلية السيدة (نسب) مثالِ الامومةِ المتعالي ·

السيدة حبوس ارسلان ·

وانطوت من سجل التاريخ صفحات بين عهدي معن وشهاب ، لم يلمع في افقها نجم لسيدة بارزة · لعل مرد ذلك ، الى تراكم الاحداث ، وشمول الفوضى في البلاد ، وفقدان اليد الواعية ، لتسجل كل من برز من رجال ونساء · عذرُ هؤلاء ان التطاحن على مداراة المستعمر ، من حكام البلد ، وعلى التنازع المستمر بين الحكام واسَرهم ، وبينهم وبين الجِوار جميعا ، وعلى الضائقات المادية التي رزح تحتها الشعَب ، في عهد كثير من حكامه ، ان هذا الجو المضطرب شغل ارباب الاقلام عن تدوين الشوارد ، فخفتَ صوتُ المراة طوال هذه الفترة · لولا ان يدوي صوت صاخب من بلدة (الشويفات) في عهد البشيرين والجزار الرهيب ، يوم كانت الضرائبُ تتراكم على الشعب ، والقناصل تحوك المؤامرات، على الشعب ، والاقطاعيون والحكام ، يتنازعون ويتقاتلون ويسفكون دم هذا الشعب · وتضبط الغلال ، وتصادر الاملاك وتحرق المنازل ، اذا تململ وثار الشعب ، وتتوتر الطائفية بنفخات الرياح الغربية ، وتتصارع مصالح الاقطاعيين ، على ظهر هذا الشعب · في هذه الفترة بالذات ، ومن صميم البيئة الدرزية الساحلية ، شمخت السيدة (حبوس ارسلان) لِتعيدَ عزة السلف · شمخت بجبروت وحزم وصمود ، لا يلوي عودَها عاصفُ الاحداث ، ولا تتأثر بنزاعات الزعماء · لبت نداءَ الواجب الانساني ، لترفعَ عن كاهل الشعب اغلال الاضطهاد ، والعنف والتجويع ، فناضلت وواصلت نضالها واحتجاجها جاهرةً في طلب الحق لِبيئتها بصلابة وحزم ·

حين ادرك بشير الثاني ، ما لهذه السيدة من نفوذ ودراية في تدبير الامور ، سلمها ادارةَ منطقةِ الغرب ، فظلت تحكم فيها بتجردٍ واخلاص ربع قرن ·

يقول الدكتور سليم حريز في محاضرةٍ له بكتاب : الواقع الدرزي :

« **للسيدة حبوس ارسلان همة لا تلين ، وذكاء حاد نفاذ ، وتجلدٌ في الاحداث، ووعي ومرونة كبرى في تبصر لكل الامور** ·· كانت ملجأ اللائذين السياسيين ، فصيحة اللسان ، عميقة التفهم للقضايا عامة ··· تمكنت من ان تخلي بلـــدة الشويفات من آل شهاب لارسلان فقط » على ما لآل شهاب من صولة في تلــك الاثنـــاء ·

السيدة عمشه القنطار ·

وهذه صفحة جديدة من سجل تاريخ هذه العشيرة :

كان لآل القنطار ، وجاهةٌ وعزيمة شرقي الجبل ، اوجبت على حكام البلاد في اوائل القرن التاسع عشر ان يتخلوا لهم عن منطقة : راشيـــــا ووادي التيم ، فحكموها بوعي وتجرد · وقد سعدوا بسيدة طمست امجادهم في مجال القـــوة والسلطان ·· هي (عمشة القنطار) · **وُهبت قوةً جسدية خارقة ، وحذقـــا وبراعة ، وكانت في استخدام السيف والرمح امهرَ من الرجال** ، وقد خولتهـــا نفسها ، ان توسع رقعة اقطاعها ، فتسلمت السلطة بنفسها ، ودربت الشباب على القتال وفنونه ، ونفخت فيه من روحها الطموحَ ،وهاجمت حاكمَ زحلة ،فانتصرت عليه ، واستولت على البلدة عَنوةً ، والحقتها باقطاعها ، واستمرت في الحكم زمنـــا ·

ان روح التملك بالقوة ، واتخاذ العنف والبطش وسيلةً له ، ليس من طبائـــع المذهب في شيء ، اذا كانت الغاية منه مطامع شخصية ، ونزواتِ نفس جامحة · وما كان لعمشة اية ذريعة ، تدافع بها في محكمة الاخلاق ، لولا انه العصـــر الاقطاعي الطاغي ، يفرض ان يكون الانسان ذئبا لا حملا ، كيلا يقعَ فريســـة للذئاب ، وعصرها مشحون شحنًا بتلك الاسراب ·

لم يوضح تاريخ هذه السيدة ، بالدقة المطلوبة ، الاسبابَ التي اغرتها بهـذا الاحتلال ، ولا مقدار الحكمة والنزاهة التي كانت مهيمنة على وادي العرايش ، في ظل هذا المحتل الجديد · كما اننا نجهل فيما اذا كانت عمشة ، في ضمهـــا زحلة لإقطاعها ، تقصد انقاذها من براثنَ غريبةٍ دامية ، لِتحضنها في حنـــان

الامومة ، لانها بنت لبنان . **فاذا كان هذا الاحتلال ، للسببِ الثاني نقول وتقول معنا العقيدة : مرحى لعمشة في هذا التوسع الميمون .**

السيدة نايفة جنبلاط .

وكاني بالنصف الثاني للعهد الشهابي ، غني بالسيدات البارزات من هـذه الطائفة ، طوال ايامهم وما بعدهـا .

كان الشيخ بشير جنبلاط ، في البدء ، صديقا للامير بشير الثاني ، وبموآزرته توصل الامير الى الحكم في الشوف ، ودارت رحى السياسة فانقلب الصديق عـدوا متآمـرا .

لِكليهما صفحاتٌ واسعة في تاريخ لبنان ، لا سبيل لنقل ما لا يعني بحثنا منها . اما الذي يعنينا الان ، فالمرأة ، وتهمنا هنا . ابنة الشيخ بشير زوجة خليل شمس ، من حاصبيا ، المتوفية في مطلع القرن العشرين عن تسعين عاما .

كيف صرفت هذا العمر الطويل ؟؟ واي مسلك اختارته لنفسها ، على تربةٍ تخال في جوفها بركانا يتململ ، وفي افقٍ عابق بدخان البارود ، وبين اقطاعٍ واقطاع ، متربصين للانقضاضِ والتقتيل ، وفي شعب ساهٍ واجم عَمٍ ؟؟ ايُ مَسلك ؟؟

قال الدكتور حريز : « **كانت السيدة نايفة جنبلاط ، على جانب عظيم مـن الذكاء والحصافة والرصانة . وانها تقية جدا** ، عملت على دَرءِ المخاطـر والنوازل عن اهل حاصبيا ، وخففت الكثيرَ من الويلات والمصاعب . كانـت شديدة العطف على الفقراء ، تجادل الاقوياء بعنف واصرار في الطلب ، غيـر هيابة صولةَ الحكام والمسؤولين ، محاولة رفعَ الضيم عن ابناء منطقتها قاطبةً وعلى السواء » .

ويقول المرجع نفسه بلسان احد الذين عاصروا السيدة نايفة وهو (الشيـخ جمال الدين شُجاع) ما يلي :

« **ان العطفَ الفائق ، والثورةَ النفسيةَ العنيفةَ التي المّت بالسيدة نايفة ، اثناء مِحنة سنة ١٨٦٠ في حاصبيا نفسِها ، برهنت على ان هذه السيدة قـد ارتقـت**

ارفع مستويات الانسانية ، لقد برزت اريحيتُها ، وانفجرَ حنانُها وعطفها على المشردين المنكوبين ، من اخوانها المسيحيين ، بشكلٍ لم تَرَهُ عين ، لقد فتحت منزلها غرفةً غرفة ، وقدمت كل ما في وسعها من عون وغذاء · ثم انها ، حين حوصرت قلعةُ آل شهاب ، **اندفعتْ بشجاعة فائقة ، تحتَ زخاتِ الرصاص ، فوصلت الى القلعة ، وانقذتْ كلَ من فيها من نساءٍ واطفال ، وحضنتهم بِحنانِ الامهات** ، حتى انقشع الافق ، وزال القتال · »

وقد زار الامير شكيب ارسلان حاصبيا ، والتقى بالسيدة نايفه ، وهي في آخر عهدِها فكتبَ عنها :

« لقد زرتُ كثيرا من الكُبراء البارزين والفُصحاء ، فلم يَعتَرِني تاثيرٌ ، كَبعضِ ما اثرتني شخصيةُ هذه السيدة · »

في النساء سيدات فصيحات بارزات ، وفيهن عطوفات شفيقات ، وجسورات وحازمات ، وصبورات في الارزاء · اما ان تتجمع كل هذه المناقب في شخص واحدٍ فنادر · واما تحسس السيدة بالروح الانسانية التي طغت على تمسكها بالسلامة ، وعدم تعرضها للمخاطر ، وانسانيتها التي جعلتها تنظر للناس اجمعين نظرتَها لِاخصّائها ، بنزاهة وترفع في احرج المواقف ، فتلك ، شمائلُ السَلف ، جاءت لتقدمَ واحدةً منها ، ولتصلَ الشعاعَ التوحيديَّ بين السلف والخَلف ، وتصل فيه مُميزاتِهِ العريقةَ الحية ·

المجاهدات : سعدى ملاعب ورفيقاتها ·

تلك الشمائل المتجمعة في السيدة نايفه جنبلاط ، نجدُ بعضها ، في سيدات وآنسات ، فَرضت الظروف الملحة عليهنّ ، ان يقفنَ على مفترقٍ رهيب ،وان يكنّ العامل الرئيسي في تبديل مجاري الاحداث ·

كانت ثوراتُ الجبل العربي ، في العهود الاستعمارية من تركيا لمصر لفرنسا ، تعطي التاريخ زادا يغذو به الاجيالَ المطلة من شرفات المشرق ·

في سنة ١٨٩٥ دارت رحى معركة طاحنة بين العثمانيين والدروز في (العيون) في جبل العرب اليوم · التقى بجماعة من الدروز زهاء اربعة آلاف جندي تركي،

بافتك المعدات ، وليس بين ايدى الجماعة ، غيرُ الخناجر والسيوف ، طال امد التقاتل ، **واوشكت الشمس ان تغيب ، والطعنُ والذبح على اشده · فكلت سواعد الدروز ، وتفللت مضاربُ السيوف ، فارتدوا مُتقهقرين** · واذا بشبح يخترق الجموع المبعثرة **ويصرخ فيهم : الى اين ؟ رَمِلوا نساءكم ويتموا الاطفال ·· ولا تَراجعوا ·· فتهتكَ اعراضُنا ؟؟** قالتها باللهجة العامية ، **وكأن حباتِ قلبها تتناثرُ مع الكلمات** ، وما زالت تصرخُ بهم وتستقبل نار العدو ، حتى ارتدَّ المقاتلون مُستميتين ، وتواثبوا ، وصمدوا ، وتلاحموا تلاحمًا اخرسَ البارود ، فانكفأ الجند ، وتبعثروا ، وعاد المناضلون بالهتافات :

على شانِكْ (سَعدي ملاعبْ)

نفني كل الكتايبْ

وما بْيرجعْ لَقرابو السيفْ

حتى يْسَوّي العجايبْ ·· » ·

وكانت معركة (المزرعة) الشهيرة عام ٩٢٥ ، المعركة التي تناقلت اخبارَها وملاحمَها ، صحفُ العالم اجمع · ماذا حدث فيها ؟

العدوُ متفوقٌ جدا ، عَددًا ومعدات ، لديه القاذفات والمصفحات · وافتكُ ما يدخر المناضلون الاشداء : فؤوس ، ومناجل ، وسيوف ، وبعض المعدلات ·

اية عواصف هبت فاجتاحت الاعداء ، واية معجزةٍ حدثت ونحن في عصر يتنكر للاعاجيب ؟؟

استطال امدُ التلاحم ، وكر ليلٌ ونهار ، والقتال يستمر ، تسعرًا ، والطائرات تحوم وتقصف ، والمدافع تعربد وتتفجر · والعدو يُزجي الفيالق ·· من بيض وسُمر وسود · والشبان بين كر وفر ، ومستميتٍ ومتردد ، والجو متلبد بغيوم اليأس والخذلان ، ويوشك الجنود ان يُطبقوا على المناضلين ·· واذا بسرب من الفتيات يخضنَ غمار المعركة ، وبايديهنَّ بعضُ الخناجر وهنَّ صارخات :

« الى اين تَراجعون ·· الموتُ ولا العار ·· النشاما واحفظوا اعراضَنا ·· نحن امامكم حتى الموت ، سيوف الحق فوقكم تلمع ، ومعكم تقاتل ·· الى الامام ايها الابطال ·· »

وما تفجرتْ هذه الصَيحات حتى ارتدَّ المكافحون بعُنف الصواريخ يُغيرون ويُحسنون الطعن ، ويتقدمون على جثثِ الضحايا ·

وقد صدق في تصوير هذه الملحمة شاعرنا القروي :

« ··· مُتهافتينَ (الشباب) على الردى وشعارُهمْ
اليوم افضلُ من غدٍ يا فان

ونساؤُهمْ ·· لو تشهدونَ نساءَهم
في الحرب حاملةً على الشجعان

كالماءِ ، اعذبَ ما يكونُ ، وانه
لأشدُّ ما يسطو على النيران

يَنفُخْنَ في اشبالِهنَّ حماسةً
تَثِبُ الصدورُ لها مِنَ الغَلَيان » (١)

هذا دورُ المرأة ، في المجتمع الدرزي ، حين يضطرم الْدقّ ، وتتنكر السيوف لاغمادها ·

وهذا تاثيرها العميق ، في الشباب المقاتل · وكم حدوة دوت عند التلاحم العنيف ، وكانت العصبَ الاقوى لِنشر راية الظفر ·

« لعيونِك عبلا وشما
ونحطِّم الدبابات

والمدفَعْ ما مِنْسِدّو
إلا بِيْضِ الشاشيّاتْ » (٣)

والى القراء صورة لفطنة بعضهن ، وشدة تمسكهن باعراضهن ، وصيانةً للاخلاق الشريفة من عبث الفاجرين ·

حدثت المؤلف ، سيدةٌ طاعنة في السن ، وهو في مطلع الشباب ، قالت : لما احتل الاتراكُ بلادنا (الشوف) تكاثرت العساكر في الضياع ، وعلى الطرقات العامة ، وبما ان النبعَ عندنا ، على الطريق العام ، اصبح لِزاما على الفتيات

والامهات ، ان يملأن جرارهن منه · ما الحيلة ؟؟ وهيهات ان تخلو الطريق من العسكر · فصيانةً لِشرفنا واتقاءً لِشر مستطير يتحتم حدوثه ، في حال اي اعتداء علينا ، كنا كلنا في القرية وفي القرى المجاورة لنا ، نُشوِّهُ وجوهَنا (بالشِحار) ونتركُ شعورنا مبعثرةً تحت المنديل ، ونكتسي بثيابٍ ممزقة ، واحذيةٍ بالية · »

واردفت السيدة : « والحمد لله انقضى ذلك العهدُ ولم نسمع بحادثٍ مؤسف · »

فليتأمل القارىء ، اي الفوارق بين عصرٍ تخَلُّفٍ وبساطة ، وعصرٍ متمدن بعيد التطلع !! واننا باشادتنا في هكذا تصرف ، لا يعني اننا موافقون على التزمُّتِ لكننا نرفضُ الانحلال الخلقي ، مُتمنين على الناشئة الطالعة ان يشحذوا ارادتهم بالعزيمة فلا يحدثُ هذا الانزلاقُ في مجاري حُثالات العصر الحديث ، وليُشيحوا الى الوراء ، فان خمائلَ من القِيمِ المثلى غرَسها الاجدادُ لهم ·· لِيعتبروا ·· ويقتدوا مُهتدين ·

السيدة نظيرة جنبلاط ·

وفي العشرينات من هذا العصر ، انبعثت عملاقةٌ جبارةٌ في صدر الشوف هي (السيدة نظيره جنبلاط) جمعت بين اصالة الرأيِ ، والحنكة السياسية ، وحدة البصيرة ، وسخاءِ الكف ، ما جعلها تتبوأ المقامَ الارفع ، لدى الفرنسيين والحكامِ اللبنانيين وسائر الشعب : طلاقةٌ في التعبير ، وعمقٌ في التفكير ،وحشمةٌ ورزانةٌ في الملبس والمجلس ·

كان قصرُها مَحجةً ، من اقصى حلب حتى فلسطين · وكان الفرنسيون يُولونها ثقةً مطلقة في تدبير الامور ، وحل المشاكل ، والتغاضي عن ملاحقة الثائرين عام ٩٢٦ العائدين لقراهم في الشوف · كانت تقدر الفشل ، لكل محاولة عصيان وتمردٍ على المحتل ،لِذا فقد اتخذ منها هذا المستعمرُ ركيزةً له في الشوف فتستفيدُ هي منه حين يبدو متغاضيا في بعض الشؤون ، وجاهدا في توسيع وتوطيد نفوذها في جبل لبنان ، وهو بدوره يطمئن لاستقرار المنطقة وتحجيم العناصرِ المتحررة ، الى حين ·

كان قصرُها مُرتاداً لاقطاب لبنان ، فلا تتشكل وزارةٌ فيه الا بمنزلِها ،

وباختيارها ، ولا ترتادُ شخصيةٌمرموقة سوريا ولبنان من عَرَبٍ واجانب ، الا تزورُ قصرَها ، فتعجب ببشاشتها ورصانتها وفصاحتها .

نزل ضيفًا على لبنان ، الكاتبُ الفرنسي المعروف (كليمان غرانكور) فزار السيدةَ جنبلاط ، وكتب عنها :

«ان السيدةَ جنبلاط ، منفردةً هي نابغةٌ ، وهيَ مع سيدة من طِرازها تغدو خطرًا ، واذا اجتمعَ معها على هذا الطِرازِ سيدتانِ تشكلُ كارثة . » (٤)

من رَحِمِ هذه السيدة ، اطلَّ الصغيرُ كمال ، فكان حربًا على المنتدب والمستعمر والمُحابي ، وقد ناهضَ والدته بإصرار وحزم ، قُبيلَ معركةِ استقلال لبنان سنة ١٩٤٣ .

ان الصفحةَ التي دوَّن فيها التاريخ مآتي السيدة (نظيرة جنبلاط) قد رصَّع في اعلاها طغراءَ مذهّبه : تلكَ والدة المعلم والقائد الشهيدِ : كمال .

وفي الثُلث الاول من القرن العشرين ، تناقلت الصحف العربية جمعاء **صرخةَ نظيرة زين الدين** ، مُنادية **بالسفور المحشوم** ، وقد كان لِحملتها هذه على الحِجاب دوي قاصف ، انشطرَ رجالُ الفكر والدين في الامة الاسلامية ازاءه ، شطرَين : محبذٌ وناقم . واستمرَّ الانقسام امدًا ، وطال الجدَل وعَنُفَ ، حتى فَرَضت الايامُ حُكمَها ، وكان ما كان ..

وفي منتصف القرن نفسه ، أَنجبتِ الطائفة سيدتين مثقفتين هما : **(نجلا صعب ، وزاهيا سلمان) ، كِلتاهما اسهمتا بجد ومثابرة في بث روح التوعية الوطنية ، في بنات جنسهن** . فكانت الاولى رئيسة المجلس النسائي اللبناني الذي يضمّ ستًا وتسعين جمعية في انحاء البلاد ، كما انتخبت الثانية رئيسة لجمعية رعاية الطفل في لبنان ، فكان لِجمعيتها هذه مدارسُ ابتدائية ، وروضات للاطفال ، في القرى النائية المغفلة حيث امتدَّتْ اليها روحُ الامومة العطوفُ الواعية ، مُسهمةً في التنشئةِ الوطنية ، وانماءِ الشعور الانساني القويم .

ما قيل في المرأة الدرزية :

فمثلما كانت المرأة الدرزية في عصور الفِتَنِ ، والتقاتلِ ، سندًا للمقاتلين تثير

بزغرداتها النخوات ، وتضمّد بمنديلها الجراحَ، وتحمل عند المقتضى افتك السلاح، شهدنا المرأة نفسها ، في زمن السلم ، زهرةً باسمة في حديقة الاخلاق ، وينبوعا دافقَ الزلال ، في التعليم والتوجيه ، وفي زرع بذور المحبة والعفة والوعي الصحيح ، وكانت هي ربة المنزل ، واسخى من قدّم زادًا ، والطفَ من استقبل ضيفًا ، لا تفارقُ مُحياها بسَمات الرضى ، والطُهر ٠ والاحتشام ٠

ولعل في ما يقوله المؤرخون ، مِمن عايش الدروز وضافهم ، وحضر او سمع عن معاركهم ، وعن نواديهم ومنابرهم ، لعل هذا يُحسن تقيمَ المرأة الدرزية ٠

يقول سلامه عبيد : « ان مساهمةَ المرأة الفعالة ، قد برزت عظيمةَ الاثر ، في تموين المقاتلين بالماء والزاد ، بلا تذمر ، او تعب ، او خوف ٠٠ وكان لها الاثرُ العميق في الحض على القتال ، **وتمجيد الابطال ، وتربية الاطفال تربية غنية ببذورِ الفروسية المبكرة** » (٥) ٠

ويقول المرجع نفسه ، ان لكل قرية في حوران والشوف علمًا خاصًا ، لا يُحمل وينشر الا في المعارك والهجمات ، وكان المقاتل يتفانى في الدفاع عن علم بلده ، وتسقط الضحايا عشرات دونه ، لانه من صنيعِ الام والاختِ والابنةِ ، ولانه يمثلهنّ جميعا ٠ وهي غالياتٌ عليه ٠

هذه منزلةُ المرأة في نفس المناضل الدرزي ، وتلك مهامُّها في الحروب ٠

ويضيف المرجع نفسه في الصفحة (٢٤٥) ، لقد اثبتت المرأة في الجبل ، قدرةً فائقة على تحمل ويلات الحروب ومآسيها ، بصبر وشجاعة ٠٠ **كنَّ يبتعدن بأولادهن وبالجرحى الى الغابات والكهوف ٠٠٠ الثورة** مدينة ٠٠ **لهنّ** ٠٠٠ »
هذا كلام مثقفٍ هو ابن البيئة وقد عاشها العمرَ كله ٠

ويقول المؤرخ الكبير : عيسى اسكندر المعلوف : « كانت النِسوةُ (الدرزيات) على مقرُبة من المعركة ٠ وحين شعرنَ بِوهَن المقاتلين ، اندفعنَّ بينهم مزغردات : النشاما يا بني معروف ٠٠ » (٦)

وفيعام ١٨٩٧ جرت موقعةٌ رهيبة في (تل الحديد) عملت فيها زغردةُ النساء اكثرَ ما عمله السيف الدامي في رقاب الاعداء ، وقد المح احد شعرائهم العاميين الى بسالةِ المرأة في تلك الملحَمة ، قال :

« بْقَلّ الحديد ·· شابو الطفـــال المراضيـــعْ
(سعدى) تنخـــي بالعيـــال المضاريـــــع

مـــــنِ الزغردات ماضي السيوف تقصفـــوا
وجنودهم ، عاالارض ·· بـــوشْ مضاجيـــع

··· وخلف الشبابْ زينات تصرخ يـــا شباب
بسيوفكـــم حنـــوا ترابهـــا بالنجيـــع

العمــــرو طويـلْ ما فيش طُـوبْ بتقتلـو
والشهيـــدْ بيحضنـو الـــرب السميـــع (٧)

وقد زار سوريا الكاتبان الفرنسيان (Jérôme et Tharaud) وَيَمّما حوران والجبل ومِما قالاهُ في المرأة الدرزية :

« لا يطيقون (الدروز) تزوجَ نسائهم بالخوارج ، فيحرصنَ عليهن الحرص كل الحرص » (٨) ·

صدق الكاتبان ، فالدرزي يأنفُ ان يُحلل من نواهي العقيدة ، فهو على حبه للمجتمع الذي يعايشه ، وعلى تلاصقه وتضامنه معه ، فان امر التزاوج من غير الدرزيات غيرُ مألوفٍ لديهم ، بل هو محرم ·

ولن تعيقَ هذه السُنة تطورَ المجتمع في شيء ، وهي في اصلها قد وجدت ، يوم كانت البيئة الفاطمية ، على أفسد ما يكون تهتكًا وميوعة ، فصيانةً للشـرف ، وللقيم التي رسخها المذهبُ في رسائله ، بصدور معتنقيه ، وخوفا على التمادي في التسامح ، حذر معشرُ العقال وحرموا ، هذا التزاوج · مع الحثّ على دوام التآلف والتآخي ·

ويقول ابو راشد في المرجع نفسه : « والنساء (الدرزيات) لهن مضيفـــة اخرى في دار النساء ، ولا يكتفينَ بما عمل رجالهن ، فلهن ذبيحة مثلما للرجال، ومَنسِفٌ كمَنسفهم · » في المضافات الخاصة بهن (٩) ·

ويتفضل في الادلاء بهذا التصريح، **رئيسُ جامعة عين شمس المصرية (الدكتور محمد كامل حسين) فيقول :**

« ... ولا يَعرفُ المجتمع الدرزي شيئًا عن الزنا ، او الخيانة الزوجية ، او ما يُشبهُ ذلك ، من المفاسد الاجتماعية . فالمرأةُ الدرزية اعفُ نساءِ العالـــم واشدهنَّ طهارةً ومحافظةً على شرفِها . » (١٠)

هذا ما أوضحه الواقع اليومي ، في كل حال ، وما اكده رجالُ الفكر ، مـــن مواطنين معايِشين لابناء العشيرة ، ومن زائري ربوعها ، اكدوا ما تتصفُ بـه المرأةالدرزية من مناقب ، ومن منزلةٍ مرموقة بين الجماعة انفسهم . وقد جهـر عمليا بِسُمو هذه المنزلة للنساء ولضيفاتهن . حين خصَّهنَّ ازواجهن بالمضافاتِ العامـــرات .

اما الرجال ، فقد اسهبَ زائرو جبل العرب ، ومعايشو جماعته في التنويـه بالدور المشرف ، حين انفتحت مضافاتُهم مرحبةً بالنزلاء ، عبرَ تاريخهم ، وعبر كل ازماتِه ، وانتفاضاتِه .

ولْنسمع اليهم مُحدّثين ، في بحثِنا اللاحِق .

الهوامش

١ ـ لبنان في التاريخ لفيليب حتي ص : ٤٥٥ .

٢ ـ ديوان الشاعر القروي ص : ٢٤٨ .

٣ ـ شاهد عيان ـ الفتاتان هما عبلـه حاطوم وشما ابو عاصي (من جبل العرب)

٤ ـ الواقع الدرزي للاداري سليـــم حريــز .

٥ ـ الثورة السورية الكبرى ص : ٣٨ . وحوران الدامية ـ لحنا ابي راشد ص : ٨٨ .

٦ ـ جريدة زحله الفتاة تاريخ ٢١ ت١ ١٩٢٥ .

٧ ـ حوران الدامية ج١ ص : ١١٠ . وان الاسم الكامل للفتاة : سعدى ملاعب .

٨ ـ كتاب طريق دمشق ص : ١٨٩ .

٩ ـ الجزء الثاني ص : ٢٨١ .

١٠ ـ دار المعارف (مصر) عــام ١٩٦٢ ص : ٢٩ .

المضافات

عناصر الموضوع :

أ ـ تعريفُ المضافة

ب ـ انتشارُها

ج ـ قيمتُها الاجتماعية والعسكرية

... ولا يعرف المجتمع الدرزي شيئاً عن الزنا ، او الخيانة الزوجية ، ما يشبه ذلك ، من المفاسد الاجتماعية . فالمرأة الدرزية اعف نساء العالم ، واشدهن طهارة ومحافظة على شرفها ... » (١٠)

هذا ما يرشحه الواقع اليومي ، على كل حال ، وما اكده رجال الفكر ، من مواطنين معايشين لابناء الطائفة ، ومن زائرين [illegible] ، [illegible] ما تتمتع المرأة الدرزية من مناقب ، ومن منزلة مرموقة [illegible] عملياً يستمر هذه المنزلة للفتاة وللسيدة [illegible] حين [illegible] المعاصرات .

أما الرجال ، فقد اصبحت زائرو جبل العرب ، ومعايشو جماعته في المدن والقرى المشرفة ، حين [illegible] مضافاتهم مرحبة بالنزلاء ، [illegible] كل [illegible] ، والتقاليد .

ولنستمع اليهم مُنشَئين ، في بحثنا اللاحق .

الهوامش

١ ـ [illegible] في التاريخ [illegible] ٤٣٣ .

٢ ـ ديوان الشاعر القروي ص : ٢١٨ .

٣ ـ شاهد عيان ـ [illegible] عيلب [illegible] ابو عاصي (من جبل العرب)

٤ ـ الواقع الدرزي والاداري [illegible] .

٥ ـ الثورة السورية الكبرى ص : ٣٨ . و[illegible] ابي راشد ص :

٦ ـ جريدة رحلة الفتاة الربيع ٢٩ ـ ١٩٢٥ .

٧ ـ ديوان [illegible] ص : [illegible] دار الاسم الكامل للفتاة : [illegible]

٨ ـ كتاب طريق دمشق ص : ١٩٨ .

٩ ـ الجزء الثاني ص : ٢٨١ .

١٠ ـ دار المعارف (مصر) عام ١٩٦٢ ص : ٢١٦ .

المضافات

قال فيليب حتي مصورًا الحالةَ المؤثرة والمجاعةَ التي اجتاحت لبنان ابان الحرب العالمية الاولى سنة ٩١٤ :

« ٠٠ كانوا يبحثون في الدِمَن والمزابل ٠٠ عن قشور الموز ، والبطاطا والليمون ، والواح الصبّير ٠٠ وبعضهم يقصدُ الجيفَ المنتنة ، للالتهام منها ٠ وقسم آخر انطرحوا على جوانب الشوارع يستنجدون بكلمات تفتتُ الاكباد ٠٠ »

وسبق للمؤرخ نفسه ان قال بايجاز معبرٍ لدى اولي الالباب :

« اما المعسرون ، فبعد ان فرغوا من بيع اشيائهم ، قصدَ قسمٌ منهم الداخلية لِتحصيل الاقوات ٠٠ » (١)

لم يكن في كتاب (لبنان في التاريخ) متسعٌ لتوضيح وتحديد هذا (الداخل) الذي قصده المؤلف ، انما المعروف لدى كل لبناني عاش تلك الحقبة العسيرة ، **ان هذا « الداخل » انما هو : حوران ، والجبل الدرزي بشكل خاص** ، حيث كانت المضافات مشرعةَ الابواب لكل قاصد ، بغيرتمييز ، وقد اوضح ذلك المؤرخون والسياح ٠

ولنعرْ انتباهنا اكثر للمؤرخ حنا ابي راشد ، الذي عايش البيئة فترةً طويلة ، وخبر ما لها من طقوس وفضائل قال :

« ٠٠ من كمال انسانيتهم (الدروز) ان الفقيرَ في ديارهم لا يموت جوعا ٠٠ انه في اية ساعة شاء ، يدخل المضيفة ، فيجدُ طعاما مجهزا غير مقيد بزمان ولا بحد ٠٠ أليست اشتراكيتهم هذه من افضلِ اشتراكيات العالم ؟؟ » وتابع المؤرخ :

« ان الرَبابَ تَصحبُهم في الحروب كما في المضافات » (٢) · قيمة الرباب في الحرب ، تشجيعُ المقاتلين ، ثم اضافة عبارات حماسية يمجدون بها الابطال منهم وحينًا يوبخون الخاملين ، فتكون درسًا بليغا وحافزا حيا · واما استعمال الرباب في المضافة ، فله الدرس السابق ، ثم هي تضفي على الجو ارتياحا كاملا ، وشهية للاكل ، فينعم الضيف ويطمئن · والميزة الكبرى في الضيافة لدى ابناء الجبل هي **انهم لا يسألون مضيفهم اسمَهُ ولا بلدته ، ولا طائفته ، بل يعتبرون السؤال عن ذلك ، صغارًا وخِسة** · ما لِسخائهم حد ، ولا مأرب منه الا الخدمة الانسانية · أكان الضيفُ غنيا ام فقيرا ، اميرًا ام اجيرًا مستجديا ، ام لاجئا · واجبهم يقضي بخدمته ، الى اقصى طاقاتهم المادية · وعبارات الترحيب تتكرر ، منذ يُطلُ الضيف من بعيد ويلاقى خارج المنزل ، **ويقدمُ له من المأكل ، اجودُ ما يملك المضيف** ·

ويقول المؤلف نفسه : « من اهم العوامل التي تدفعهم للحرب هي المضافات ، حيث يجتمع فيها كل شارد ووارد ، فيُعرَف الشجاع ، ويتغنون باسمه ، ويعرَف الجبان ، فيلعنون ذكره ·· واجمل احاديثهم امام الضيوف : انتصاراتُهم وحروبهم وغزواتهم · »

ثم يتابع : « لما أُرهقَ ابناءُ سوريا ولبنان عسفا وخسفا ، وبلغت من الكثيرين المجاعة اقصاها ·· فتح الجبل ابواب المنازل للاجئين من الطوائف كافة » ··· **ولم يكتفوا بذلك بل اقفلوا ابوابَ اهراء الحنطة بوجهِ جمال باشا والدولة العثمانية ، وارصدوا الحبوب كلها** ، للاجئين بعضه ، والبعض الاخر يبيعونه للتجار السوريين ، ولا اثر للاحتكار (٣) ·

ويحدثنا الاديب سعيد الصغير ، ابن بيئتهم فيقول : « في معظم البيوت يخصص اجملُ غرفة واكبرها لتكون (مضافة) لاستقبال الضيوف · وعلى صاحبها تجهيز القهوة يوميا لكل زائر ·· ويقدم الطعام ·· ويكون الضيف محاطاً بالحفاوة والتكريم ·· » ، وقال نقلا عن الشاعر الفرنسي Lamartine ان كرم الضيافة عندهم امر مقدس · **فلا وعدَ ولا وعيد يحمل الدرزي على تسليم ضيفٍ لاذَ بهِ ، ولو طلبه اميره ··** » (٤) ·

ويزيد الكاتب توضيحا : « الح القائد العام التركي ان يقدم الجبل الحبوب فرُفض أمرُه ، فحنق وحقد ·· وعندما ازداد الضغط التركي على بلاد الشام **التجأ الى الجبل نحو عشرين الف لاجيء على اختلاف مذاهبهم ، فرارًا من**

الجندية والمجاعة ··· فأُطعموا بلا عوض ··· وكانت المضافات اشبه بفنادق ومطاعم عامة مجانية ، خدامها اصحاب تلك البيوت · » (٥)

وقالت **المقطم المصرية في عددها ٢٩ آب سنة ٩١٨ : « لولا فضل الاميركيين ولولا فضل دروز حوران الذين فتحوا ابواب ديارهم لكل لاجيء اليهم ، على اختلاف الطوائف والاديان ، لخفنا ان لا يبقى في البلاد (سوريا ولبنان) ثلث اهلها الى اخر هذا العام · »**

وتكررُ العبارةَ التي وردت في خطاب رئيس المجلس النيابي السوري ، فارس بك الخوري ، في مطلع استقلال سوريا :

« **ان جبل الدروز هذا ، الذي اطعم لبنان وسوريا في الحرب العالمية الاولى ··· تنازل عن امتيازاته ···» (٦)**

وقال عبد الله نجار ، مدير معارف جبل الدروز سنة ٩٢٤ :

« لم يخضع الجبلُ ابان الحرب للنظامات التركية ·· فلا ضرائب ولا جنود ·· **عندها اصيب لبنان وسواه بالجوع الشديد فلجاوا اليه ، حتى غدا نصفُ سكانه من اللاجئين ، كما كان ملجأ للمضطهَدين السياسيين من سائر البلاد السورية عامة · » (٧)**

ان المضافة التي بلغت شهرتُها البلدانَ النائية ، حتى لُقبت بقصر البرامكة هي مضافة (العرقاوي) وان مضافات اقل منها شهرةً لا تحصى بِعَدّ ·

كان يتعرض الجبل لمخاطرَ جمة ، **وتهديدات وانذارات من قبل الطاغية جمال باشا** ، لكي يُسلم الحنطةَ للجيش لقاء ثمن ، **وكان الجبل يرفضُ مُصرا على ان ابناء الوطن هم المفضلون** ، ولا فرق عنده ابيع ام قُدم للضيوف هذا الانتاج الضخم ·

المجتمعُ الأصلح ·

نستدلُ من هذا السخاء الفطري ، ومن تلك الشجاعة في المعارك ، والبشاشة والترحيب ، اثناء السلم ، نستدل على مدى تأصلِ الروح الانسانية الصحيحة ، في هذا القوم ·

لقد كانت شجاعتهم على مثال سخائهم ، يتفانون دفاعا عن حق عام ، وعرض عام ووطن للجميع . ما ثاروا مرة ارضاءً لزعيم ، او رغبة في توطيد اقطاع ، انما كانت الثورات التي ينادي بها ذلك الزعيم ، محافظة على زمام وشرف ، وحق للشعب اجمع ، لذلك كان الشعبُ اجمعُ يلبي النداء ، ويتهافت لموارد الحِمام: موتٌ او تثبيتٌ لِحقٍ عام .

ان الشمائلَ التي يتحلى بها ابناء هذا الجبل ، على ما كان عليه ، من التخلف الحضاري ، وندورة التعلم ، والانكماش في ربوعهم ، تلك الشمائل الغراء ، التي دفعت باقلام السياح والمؤرخين ، الى ذلك الإطناب والاعجاب ، نتمنى لو انتقلت عدواها الى المجتمعات المتمدنة والمدّعية بالحضارة ، فلا يؤخذ المالُ : غايةٌ ، والبهرجةُ والزيفُ والتفسخُ الخلقي : مدنيةٌ ، والودُ والمؤاخاةُ المزيفةُ : دهاءٌ وحنكة . ولا يؤخذ رُقيًا ، ذلكَ التحصيلُ العالي والجافُ للعلوم ، تحصيلٌ لا يَتَنسمُ منه العالِمُ ولا الجاهلُ عبيرًا من نفحاتِ المكارمِ ، انما هو من أَلِفه لِيائه ، في سبيلِ المغانمِ الرخيصةِ الذاتيةِ ورفاهيةِ الفردِ المحظوظ .. وعلى القِيَم السلام .

وما الحروبُ العدوانية ، ولا استغلالُ جهود الشعب ومكاسبه ، ولا المخاتلات في المواثيق والعهود ، كلها ، وكل ما يتكدس بنتائجها من ثراءٍ وجاه ، لا يضاهي في العين البصيرة ، والنفس الخيّرة ، لا يضاهي قط ، واحدةٌ من مضافاتِ ذلك الجبل ، او قطرةٌ من جُرحِ شهيدٍ اريقتْ في احدى انتفاضات النضال المسلح .
هذا التقييم الذي يصنفه بعضُ ابناء الجيل الحاضر : رجعيةٌ وانغلاقاً ، تعتبرهُ هو نفسه ، روحُ الطيبةِ والصلاح ، في المجتمعِ الانسانيِ الافضلِ ، افقًا لِأسمى تَطلعاتِها .

الهوامش

١ ـ لبنان في التاريخ ص : ٥٩٠ ـ ٥٩١ .

٢ ـ حوران الدامية ج٢ ص : ٣٨١ ـ ٣٨٣ .

٣ ـ المرجع نفسه ج١ ص : ١٢٥ ـ ١٥١

٤ ـ بنو معروف في التاريخ ص : ٢٥٧

٥ ـ خطط الشام لمحمد كرد علي ج٣ ، ص : ١٤٦ و ١٤٧ .

٦ ـ فؤاد الاطرش (الدروز) ص : ٢٩٠ .

٧ ـ بنو معروف في جبل حوران ص : ١٠٦ .

كمَال جنبلاط

« للسعادة رافدانِ أزليانِ أبديان :

بَساطه وَطِيبة ·»

كونفوشيوس

« شموسُ الحقيقةِ لا تراها كلُّ عين · »

اتمنندا

« يكونُ فيكَ آخرُ الكلامِ ، اولَ الكلام · » « لكمال »

ادونيس

« ان الموتَ من اجل القضايا العادلةِ ، هوَ ·· وِلادةٌ جديدةٌ ، هوَ ·· الحياةُ التي لا تغربُ شمسُها ابدًا ·»

كمال جنبلاط

لقد كانت شعاراتهم على مثال سجاياهم ، يتكلمون بطابعا عن حق عام ، ويحرص عام ووطن للجميع ، ما ثاروا مرة لمصلحة لهم ، أو رغبة في توطيد السلطان ، انما كانت الثورات التي ينادي بها تلك الزعيم ، محافظة على زمام وشرف وحق الشعب ، لذلك كان الشعب اجمع يلبي النداء ، ويشهد أولاد الجبل موتاً او يتبعه لمن يسلم .

ان الشمائل التي تحلى بها ابناء هذا الجبل ، على ما كان عليه ، من التخلف الحضاري ، وقصور التعلم ، والانكماش في ربوعهم ، تلك الشمائل الغراء ، التي [illegible] بالسماح والتواضع ، الى تلك الاشياء [illegible] عزوها الى [illegible] والنهزمة والريفة والنفس الخلقي ، مدنية ، والود والمؤانسة الرقيقة ، [illegible] ولا يؤخذ وقتا ، فلك التحصيل العالي والتعاليم العليا ، تحصيل لا يشبع منه العالم ولا الجاهل صبرا من شمائل الكرام ، انما هو من [illegible] في سبيل القائم الرئيسية الذاتية ورهافة الذوق [illegible] المتسامح .

وما المروءة [illegible] ، ولا الشمائل عبرة الشعب ومكانته ، ولا الفضائل في المواثيق والعهود كلها ، وكل ما يتصل بشخصيته [illegible] في العين المبصرة ، والنفس [illegible] ، لا يتساوى [illegible] ، وواحدة من حسنات ذلك الجبل ، أو [illegible] ربطت في احدى التضحيات النضال المسلح ؟ هذا التقييم الذي يستحقه بعض ابناء الجبل الصامد [illegible] وحضارتها [illegible] هو بنفسه ، روح المحبة و[illegible] ، [illegible] لاسمى تطلعاتها .

الهوامش

١ — [illegible] في التاريخ ص ٢٩٨ — ٣٩١ .

٢ — ديوان الحماسة [illegible] ص ٢٨٢ — ٢٨٢ .

٣ — الزعيم [illegible] ص ١٢٤ — ١٥١ .

٤ — [illegible] في الثلاثينات ص ٢٨٧ .

٥ — [illegible] الشام [illegible] ص ٢٧ ، ص : ١٤٦ و ١٤٧ .

٦ — فؤاد الاطرش (السويداء) ص ٢٨٢ .

٧ — [illegible] في [illegible] ص ١٠١ .

كمال جنبلاط

(١٩١٧ - ١٩٧٧)

« ودوره الطليعي »

المجدُ لربوع الشوف ، التي اطلعت شخصيةً عالمية ، تلاقت فيها انبلُ شمائل الانسان المتحضر · عايشناه يافعًا ، فكان التلميذَ المثابر المتفوق ، وعايشناه شاباً ، فأطلّ من بين مقلتيه نجمُ العزة والعنفوان وشمخَ بهامته النحيلة ، وبما اختزنت من جرأة فائقة ، وتمرّدٍ على الظلم ، وبُعدٍ في التطلع ، فتمثل للشعب المعاني سيدَ الجلجلة ، ثم عايشناه كهلا ، فاذا هو ذلك العملاقُ ، قدماهُ على الارض وجبهتُه في ابعدِ مرامي البصر ·

كل ما حوله كان يستصرخُ الانفلاتَ من طقوس ذميمة ، وتسكع ، وخنوع ، فرضته على الشعب الجاهل الصامت ، قبضةُ المستعمر منذ اجيال · فاذا هو ، ابن ذلك القصرِ المؤثل ، يجامل العاملَ ، ويواسي العاني ويزأر في وجه كل متحكم غاشم · تمردَ على الطقوس ، وعلى القصرِ وعلى الاداراتِ ، وعلى النظام وعلى الدولةِ ، وقال لهذا المتغاضي : تَنَحَّ ·· فتنحى ، ولذلك الطاغية المأجور : انخلعْ ·· فانصاعَ رغم انفه · وما برح منددا بكل نشازٍ عاملا باللين والعنف على تقويض كل استغلال وتحطيم كل غلٍ يقيد الشعب ، ويحد من حرية الفكر ، ويحتكر حتى لقمةَ الطعام ، في بلدٍ تفشى واستضرى فيه وباءُ الاستذآب · واستشهد في سبيل قضاياه ·

كان القائدُ الشهيد يستلهم مناقبَه تلك ، من طبع مؤصل في نفسه ، غذاه بلبان الفضائل ، منهلُ العرفان الدرزي الذي كان يأنسُ به ، ويلوذ اليه فينقع منه الغليل ، ويفتح فيه كوىً رحبة لعالم ما بعد المادة ، فيهب ، ويناضل بتفان وحزم وجلد ، في سبيل عيش اشرفَ وارغدَ ، لكل مُعوز محروم · وامتدت مطامحه الخيرة ، وتطلعاته الانسانية السامية ، حتى تبوأ بها منصة الخلود ·

فالى الذين يجهلون او يتجاهلون اعماقَ هذه الشخصية النادرة . فاننـــا نقتطف نزرا مما اشيد فيه ، ونزرا من اقواله واعماله لضيق المجال ولكي نَصدُقَ التاريخ والفكرَ في دراسته الشاملة ، تعوزنا مجلدات . نكِلها الى حمَلة الاقلام المتحررة ، مكتفينَ هنا بهذا اليسير ·

من اعمال الشهيد

كان لم يُطلَّ نجمُه بعدُ ، على افق السياسة عمليا ، حين ثار الشعب اللبنانـي عام ٩٤٣ مناديا بالاستقلال واطلاق محتجزي قلعة راشيا · وكان يـوم عصيب عاصف رهيب · الاستعمار ينذرُ ويبطش ، والشعبُ امواج صاخبة ، يهتـــف باسقاط الاستعمار ، واركانُ البلد متجمعون في قصر السيـــد صائب سلام ، ينتظرون بقلقٍ وايجاس موقفَ السيدة نظيرة جنبلاط ، صاحبةِ الراي الاول في الشوف · وفيما الجموع ترقب بتلهف ، والسياسة بين متشائم ومتفائـــل ، اذ بالشاب الامرد (كمال) ، ابن سيدةِ الشوف ، يُطل على الجماهير . فحُمل على الاكتاف وتعالت الهتافاتُ والتكبيرات بحياته وعزته · وكان المؤلف في عداد مُستقبليه يومذاك ·

تلك كانت اولى خطوات الشاب كمال في ميَدان السياسة · لقد عرف كيـــف يَكسرُ الطوقَ ، وكيف يلجمُ اللبوءةَ وكيف يرسخُ صخرةً في ركن استقـــلال لبنان · وكان له آنئذٍ اولُ بيان سياسي وجههُ عبرَ الندوة النيابية : « نداء الى الامة » في تشرين الاول سنة ٩٤٣ . رأى العارفون المخلصون بارقة امـــل سعيدٍ وجديد ، في روح هذا البيان ·

وحين طغت في عهد الشيخ بشارة الخوري الرشواتُ والمحسوبيات ، كـان كمال الشاب ، في طليعة الناقمين العاملين على خلعه . املا بعهدٍ ارغدَ وآمـن واشرف ، وقد تم له ذلك · وكان قبلها قد اسس عام ٩٤٩ الحزب التقدمـــي الاشتراكي ·

وكان مستوليا على افكاره ومشاعره ، ايمانٌ عميقٌ صارخ ، بان لا خلاصَ ونهوضَ للبنان ، وللامة العربية جمعاء ، الا بثورةٍ وطنية ديمقراطية . ثـورة علميةٍ ثقافية ، مقوضةٍ كل الانظمة القديمة الخرقاء ·

وحين انتُخبَ السيد كميل شمعون رئيسا للجمهورية ، كانت للشاب كمال ، الباعُ الطولى في انتخابه ، ظنا منه ان الرئيسَ الجديد ، سيتبع سياسة عربيـة تحررية ديمقراطية . بعيدةً عن الاستعمار واحابيله ، جاهدةً في تثبيت الامن في البلاد ،والعدالةِ في الحكام ، والاعتدالِ في السياسة الدولية ، وكان عكس ما ظن . فنشط ناهضا لمشاكسةِ النظام وتقويضه . فكانت له البيانات المتتابعة ، والمؤتمرات الصحفية اللبنانية والعالمية ، وكانت نداءاته للاحزاب والهيـئات ، واتصالاته المستمرة بالشخصيات البارزة من رجال الدين والدولة ، علىاختلاف منازعهم السياسية ، كان ذلك حقنًا للدم اللبناني ، قبل نشوب ثورة ١٩٥٨ ، وكان قبل هذا،ارضاءً للروح الخيرة فيه ، الروحِ التي لا تفتأ تلح وتستنهض عزيمته لتأمين معاش ايسرَ لكل محتاج ، ومناخٍ معتدل لكل مواطن ، وادارات منظمة ونزيهة ، وتعايشٍ اخوي مستقر .

ومن مواقف الشهيد المشرفة ضمانا لمعيشة هانئة لكل لبناني،نُذكّر بالمحاولة التالية : شغر مقعد الكاثوليك النيابي في الشوف ، بمطلع عهد الرئيس فـؤاد شهاب ، وكان الموقف جدّ دقيق وحساس ، فاتصل بالفقيد احدُ المراجع هاتفيـا ، عارضا عليه مبلغًا ضخما جدا ، لِتمويل حزبه وصحيفته ، لقاءَ تبنيه ترشيـح رجلٍ ثريٍّ من خارج المنطقة .

كان جوابُ جنبلاط الفوري : « عَرْضٌ مُغرٍ حقًّا ، ولكن جَماعتي جماعـةُ كَرامةٍ لا مـال . »

ويوم تصدت السلطة اللبنانية لمنع قيام احتفال حزبيّ شعبي في الباروك ، تمرد الشعبُ ودارت معركة بالرصاص بينه وبين الدرك ، اسفرت عن بعض القتلى ، قُبيل وصول المناضل كمال جنبلاط الى الساحة ؛ وحين وصل ، وكان رصـاص الدرك ما يزال ينهمرُ من الغياض المحيطة بنبع الباروك ، وثب من سيارته رابـط الجأش ، حثيثَ الخطى ، فاعتلى المنصة ، كأن الرصاصِ مفرقعاتُ صبيانيـة ، فتسارع اليه الجمع المبعثَر ، وبدأ خطابه بـ : « اليوم تعمّدَ حزبُنا بالدم . » اما الدرك فتقهقروا مكبوتين . وقد أُسندتْ اليه وزارات كثيرة ، كان في كلٍ منهـا القدوةَ الفضلى انضباطا ونزاهة وجرأة .

هذا في الحقل الداخلي ، اما في الخارجي ، فكان لكمال جنبلاط مـن ثاقب بصيرته ، نجمٌ قطبيٌّ ، يُحسن توجيهَ السفينة في اصطخاب اليم ، الى الشاطيء الامين . كانتسياسته العربية متوافقةً مع سياسة الراحلِ الكبير جمال عبـد

الناصر : سياسة لا انحياز ، ولا استعمار ، ولا استغلال ٠

كان موازرًا للقوى المسالمة العالمية ، ومجابها بعنادٍ للقوى الناشطة في السباق الى التسلح ٠

اي صوت ارتفع عاليا في لبنان ، من شخصية رسمية غيرُ صوت المناضل كمال جنبلاط ، دائبا على افشال مشروعَي بغداد وايزنهور الاستعماريين ؟؟ كان كل مسؤول متخوفا متسترا وكظيما ، رهبةً من ذلك الغول المريع : المستعمِر ٠

اما هو ، كمال جنبلاط ، فلم يكن ليحسَّ بقوة تُقعده عن انجاز مهماته ، ومتابعة مسيرته اللبنانية العربية العالمية ، لرفع مستويات المحرومين ماديا وفكريا ولتنشيط الروابط الاقتصادية والثقافية بين كبُريات الدول ، وذلك باسهامه وبروزه عبرَ الخط التقدمي التحرّري العالمي ، الذي سُمي بالعالم الثالث ، وشد ازرَه في هذا الكفاح ، فقيدُ العروبة : جمال عبد الناصر ٠

حدث كذلك ، اثناء غليان الاحقاد في صدور الصهاينة ، والاستعمار وعملائه المواطنينَ مُصرّين على نبذِ الفلسطينيين ، والقضاء على الفداء وقضيته ٠ يومذاك كُمَّتْ حناجرُ المتشدقين بعروبتهم وانسانيتهم ، وخارت قواهم ، وانكمشوا في مقاصيرهم يتلصصون ٠ اما البطل كمال ، فكان العملاقَ الفردَ فيهم : عصب شملَ الاحزاب والهيئات الوطنية ، ورسمَ لهمُ المخططات ، وعبأ المواطنين المخلصين للبنان والعرب ، جادين في ان يُسكتوا الرصاص بالرصاص ، ويكسروا شوكة المتآمرين على وحدة لبنان ، نزقًا وضلالًا ٠

على هذا الطريق استشهد كمال جنبلاط ٠ استشهد لِتبقى كل قطرة من دمه المراق مسيلَ لهبٍ وشواظَ حقدٍ على المغتال الجبان، ولتبقى افكارُه امواجَ نورٍ متوقد على عدَسة بصائرِ الكادحين ٠ وليس كمال جنبلاط الشهيد الاول من هؤلاء الجماهير الشرفاء ، انما سبقه سلفٌ صالح من اجداده ،وسبقهم جميعا فخر الدين وذووه وسبقهم رهط اخيار ، وكان مقدمةُ السابقين يوحنا الذبيح ٠

ولن ينتهيَ التنكيلُ باولئك المغاوير المذاويد ، طالما هنالك دمعةٌ لِثكلى ، وزفرة لِجائع ، ونابٌ هاصرٌ في شدقِ كَلوب ٠٠ بهذا نطقَ التوحيدُ الدرزي ٠ وهذا ما حققه واقعُ كل زمان ٠

المهمات التي وكلت للقائد الشهيد :

١ ـ في عام ٩٤٣ قُبيل الاستقلال انتُخب نائباً عن جبل لبنان ·

٢ ـ في عام ٩٤٦ تبنى الخط السياسيَّ الديمقراطي لاصلاح النظام وتحقيق العدالة الاجتماعية في لبنان ·

٣ ـ في عام ٩٤٩ اسسَ الحزبَ التقدمي الاشتراكي ·

٤ ـ في عام ٩٥١ عمل في طليعة قادة الجبهة الاشتراكية الوطنية معارضا شعبيًا عنيدا ، مُقوضا للنظام الاستغلالي الامبريالي العنصري

٥ ـ انشا في عام ٩٥٢ ـ ٩٥٤ الجبهةَ الشعبية الاشتراكية ·

٦ ـ في عام ٩٥٧ ـ ٩٥٨ قاد الثورةَ الوطنية المسلحة ، بتكتيكٍ حربي بارع، وادارة حازمة ، وتعايشٍ وطني سليم ·

٧ ـ في عام ٩٦٠ رأس كتلةً برلمانية اسماها « جبهةَ النضال الوطني » ·

٨ ـ بين عامي ٩٦٥ ـ ٩٦٧ اشترك في هيئة التضامن الاسيوي الافريقي وفي مؤتمرَي الجزائر والخرطوم ، وفي اتحاد كتاب آسيا وافريقيا ·

٩ ـ في عام ٩٦٩ انتُخب امينًا عاما للجبهةِ العربية المشاركة في الثورة الفلسطينية ·

١٠ ـ انتُخب عام ٩٧٠ رئيسَ اللجنة العربية لِتخليدِ عبد الناصر ·

١١ ـ كما انتُخب بعدئذٍ بقليل ، رئيسًا للجنة اللبنانية للتضامن الاسيوي الافريقي ، تأمينا وتوثيقا لاستقلال كل دولةٍ فيهما ·

١٢ ـ في عام ٩٧٣ توشَّى صدرُه بِوِسام (لينين) ، للسلامِ العالمي ·

١٣ ـ في عام ٩٧٥ تولى رئاسةَ المجلس السياسي المركزي للاحزاب والقوى التقدمية والوطنية في لبنان ، إحباطا للمؤامرةِ المحبوكةِ ضد وحدةِ هذا البلد ،

وضد المقاومة الفلسطينية على السواء ·

يوم جنبلاط اللبناني العربي العالمي

مهرجانٌ ماسوي ، لم يشهده لبنان في طويل تاريخه · زحفت الجماهير من كل بلد وتقاطرت الوفودُ من جميع الاصقاع العربية بغير ما استثناء ، وفود شعبية يغمرُها الاسى ، ووفودٌ رسمية واجمة حدادا · كما امَّت ارض لبنان هيئات وشخصيات عالمية من الشرق الاقصى ومن الغرب ، كلها يحمل في صدره غصة عميقة ، ويقدرُ هولَ المصاب · وقد دلت الارقام الصحيحة على مشاركة ثمانية وعشرين بلدا تمثل اثنيَ واربعين تنظيما وخمس منظمات، منها العربية والعالمية·

(مصدر هذه الوثائق ، المجلات والصحف التي صدرت في يوم القائد الشهيد باول ايار سنة ٩٧٧) ·

هذا المهرجان الحاشد شعبا ورجالات ادارة وفكر ، من ثمانية وعشرين بلدا، هو وحدَه الشاهد الحق ، على ما زخرت به نفس كمال جنبلاط من مناقبَ مثلى ، وما كان يجيش بصدره من امان كبار لاسعاد لبنان ، وتوحيد الامة العربية من الخليج للمحيط ، **وتعزيز الروابط القومية** ، وشدِها بوثاق المحبة المتبادلة ، والصدق في المعاملات ، والمساواة في الحقوق ، شدها شدا بوشائج السياسة الاقتصادية والفكرية العالمية ، دفعا اختياريا بالانسان القلق ، غامضِ المصير ، الى دنيا آمنةٍ من شراسةِ المستعمر ، ومطامع المستغِل الجشع ، وهرطقة المتدينين والمتفلسفين ·

في الكثيرِ الكثير من هذه المناقب الجنبلاطية العالمية والخاصة ، لَفتاتٌ صادقة الى جوهر التوحيد الدرزي ، فيها دفعاتٌ ودفعات من شَمَم الدُعاة الابرار ، وتمردِهم على الاستبداد والاستئثار ، وفيها نفحاتٌ طيباتٌ من حنكة بهاء الدين ، وليونته ورأفته وجلده ، وفيها بوارقُ ساطعةٌ ، يسافر الخاطرُ والخيال معًا ، على زورقها الاثيريّ لآفاقٍ وراء شواطىء المادة ومُغرياتها ، وفيها وفيها من مُجوهرات المشرق ، وكنوزِ المغرب ، ما يشدَهُ الالباب ·

لئن كانت رسالةُ القائد الشهيد الروحية ، ناشزةٌ في شيء عن مسلك التوحيد الدرزي ، فانه لَنشازٌ سطحي عابرٌ اما الجوهرُ فصدقٌ وحق ، ونهاية المطاف

واحدةً ، وواحدةً هي ، في كلا المسلكَين مَسيرةُ النفس البشرية ، وواحدة هي كذلك ، مناقبية الدنيا ، بما تشمل من ليونةٍ وحلم ومعرفةٍ وتواضعٍ وصفاء ·

كمال جنبلاط في ميزان الفكر العربي العالمي :

١ ـ قال فيه خالد عبد الناصر : « عرفتُه صديقا للشهيد جمال عبد الناصر كما عرفته مناضلا ثائرا على خُطاه · »

٢ ـ وقال باسم اتحاد المحامين العرب ،شفيق رُشَيدات : « ··· انه حي فينا ابدا بفكره وسيرته ورفاقه ، سيظل في امتنا فكرًا حيا للتقدميين ، وصورة ناطقة للمكافحين ، وقائدا وطنيا في سجل الخالدين · »

٣ ـ وقال حسن صبري الخولي : « سيبقى كمال جنبلاط ركيزةً جبارةً عبر التاريخ ، بما يحمل من مبادىء سامية ونزعةٍ شعبية مناضلة ، في العالم اجمع· »

٤ ـ وقال حميد فرنجية : « ·· امتدت يدُ الحاقدين امس الى الرجل الذي اعطى لبنان من حبه الكبير وعلمهِ الكثير ما لم يعطِهِ زعيم لبلده · »

٥ ـ وقالت ارملة المرحوم الامير فؤاد شهاب : « ··· لقد عاش ومات وهو يناضل في سبيل لبنان ورفاهية بنيه ، ووحدةِ شعبه · »

٦ ـ وذكر العلامة عبد الله العلايلي العبارة التالية : من تأبين مُسهب : « ··· ظل هو اياهُ ينبوعَ ضمير ومعينَ قلب نمير ·· » وختم التأبين ب: « هيهات لابناء الطينِ ان يُدركوا الحقيقة في ابناءِ اليقين · »

٧ ـ ومما قاله سيادة المطران غرغوار حداد : « كانت تذوبُ شخصية الآخرين في حضوره · »

واضاف : « عطِشَ الى الحقِ والخيرِ والعدالةِ ·· لم يرتوِ · »

٨ ـ وصرح المناضل محسن ابراهيم : « ان صخرةً تظل صامدةً ، يمكن ان يتكىءَ عليها كل المُتعبينَ اسمُها : كمال جنبلاط · »

٩ ــ وقالت صحيفة الموند الفرنسية : « اغتيالُ جنبلاط اهانة للمستقبل ٠٠ وفاته ستتركُ فراغا سياسيا يصعب ملؤه ٠٠ سيفقده لبنان بأسره ٠٠٠ سيشعر المسيحيونَ انفسهُم بِغيابِ رجلٍ كان ينزعُ بطبيعتهِ لإقرارِ التسويات ٠٠»

١٠ ــ وقالت جريدة الاومانيته الباريزية : « تلك الهامة الرقيقة الطويلة ،قاومت كل الضغوط : المادية والمناصبِ الفخرية والتهديدات ٠»

١١ ــ وقالت التيمز البريطانية : « ان اغتيال جنبلاط ينطوي على كارثة ٠»

واما صحيفة « التيم » الاميركية ، فقد اكتفتْ بالتنويهِ عن تاريخ جنبلاط المدرسي ومقتلِ والدهِ وشقيقتهِ ٠»

١٢ ــ وقالت جمعية الصداقة الفرنسية اللبنانية : « ننحني بخشوع امام ذلك الرجل ، الذي كان يمثل القوى التقدمية ، والذي كان يحمل بين جوانحه أسمى فكرةٍ عن وطنه : لبنان ٠»

١٣ ــ وصرح المستشرق الفرنسي الكبير جاك كولان : « لم يكن هناك الا الموتُ ليطرحَ ارضًا رجلًا بهذه الضخامة ٠»

١٤ ــ وكل رؤساء جمهوريات وملوك وامراء ورؤساء وزارات الدول العربية كلهم ابدوا في برقياتهم اعمقَ مشاعر الالم ، باغتيالِ قائد النضال الشعبي في لبنان وتلميذِ افلاطون واتَمَنْدًا وغاندي ٠

وُرَيقات من غَيضته

١ ــ « ان الموتَ من اجل القضايا العادلة هو ولادة جديدة ٠٠ هو الحياة التي لا تغربُ شمسُها ابدا ٠ »

٢ ــ « ان الأُطر التي تحددها الطائفية السياسية ، هي مقبرةُ الوعي الروحي ٠»

٣ ــ « على حامل الرسالة الحزبية ان يتعدى جدرانَ المبنى والصور الفكرية والايديولوجية باستمرار ٠»

٤ ـ تبرز الطبقيةْ عند الشعور بالحرمان ·»

٥ ـ مطلبُ الاشتراكية ، جعل الانسانَ يتجلى في كل انسان · »

٦ ـ الديمقراطية هي : « تتميمُ معنى الانسانية في الانسان · »

٧ ـ « الحرية هي : وعيٌ ومعرفة · وانها اثمن ما في الوجود ، اذا اقترنت في ممارساتها وابداعها ، بشِرعةِ العقل وقيم استشفافه · »

٨ ـ من لم يكن في داخله نورٌ يُنيره ·· فهو اعمى وابكم · »

٩ ـ الوعيْ هو : جوهرُ الوجود ·»

١٠ ـ الدين يعطيك قواعد مثالية اخلاقية ، تلَجمُ انانيتك ، وانه مسلكٌ وليس غايـــة ·»

١١ ـ ليس للعلم وطنٌ خاص ، انه وليدُ العقل ·»

١٢ ـ بدون الحب لا يستطيع الانسان ان يبني ·

١٣ ـ الحبُ يوحّد الاشياء ، والكراهيةُ تفككها ·»

١٤ ـ « الجمالُ هو شعشعة الحقيقة ، ووجهُها المختبىءُ فينا ·»

١٥ ـ « اذا تعودنا ان تكون افكارُنا خيرةً ، جرت في ذهننا اقنيةُ الخير ، فنشعرُ ، ونفكرُ ، ونعملُ الخير ·»

١٦ ـ « الموسيقى المتناغمة تُشعرك بالغبطة والانشراح ، انها موسيقى الحنان لا الانغامِ المسموعة والالحان ·»

١٧ ـ « الشعرُ هو شعر الداخلِ الباطن لا الظاهر ، وانه محاولةُ انعكـــاس الجمال في مرآة الجمال ·»

١٨ ـ « افضل الطعام والشراب ، ما استنبَتَهُ واستقاهُ الانسان ، من ارضه وينابيعه ·»

١٩ ـ « لا يُفيدُ الانسانَ ان يكون متمدنا في خارجه ، بل عليه ان يكـون متحضرًا في داخله حضارة حقيقية ٠»

٢٠ ـ التطور حدثٌ « طبيعي له شرائعه ٠٠ انه الخَلقُ ومعراجه فينا ٠»

٢١ ـ « لولا النقطة لما كان الخط الدائرُ المستدير حول محوره ٠٠ الكلُ بشكله يتشكل ٠»

آثاره الفكرية

بدأ القائد الشهيد في اعماله الفكرية منذ مطلع عام ٩٤٠ وما كفَّ حتى كفَّنه القدرُ بغمامةٍ مُضمخةِ الجوانب بِعَبيرِ الخلود عام ٩٧٧ ٠

لقد احصى القيمون ما دبَّجه قلمُه فكان : زهاءَ ثلاثة آلاف افتتاحية (بالعربية والفرنسية) واكثر من عشرين الف تصريـح صحافي ، ومئات الدراسـات والبيانات ، وضعها على امتداد سبعةٍ وعشرينَ عامًا في الحـزب التقدمـي الاشتراكي ، وله حوالَي سبعين خطابا وحديثا مسجلة بصوته ٠٠ وله افـلام تلفزيونية وسينمائية ، ولوحات فنية وعِـدة اطروحاتٍ جامعية بعضها قيـد الانجـاز ٠ (٢)

اما ما صدر له من كتب ف :

١ ـ الديمقراطية الحديثة ٠

٢ ـ اضواءٌ على الحقيقة الوطنية

٣ ـ في ما يتعدى الحرف ٠

٤ ـ حقيقةُ الثورة اللبنانية ـ وفي مجاري السياسة اللبنانية ٠

٦ ـ ثورةٌ في عالم الانسان ٠

٧ ـ احـداثُ لبنان ٠

٨ ـ ديوان شعر صوفي : « فَرَح » ٠

وهنا يقفُ القلمُ ابكمَ اصيلَ تعمد السفاحون الجبناءُ إخلاءَ الساحة اللبنانية المناضلة ، من عملاق عبقري على هذا الطراز ٠ لكن العزاء الاكبر للشعب هو ان الطريقَ التي عبّدها بفلذاتٍ من احشائه ، وقطعٍ من اوتار اعصابه ، ورواها بعصارة فكره وعمدها بقُدس دمه ، هذه الطريق قد وجدتّ عليها عابرين مخلصين متفانين وتلامذةً ابرارًا لمعلمٍ أبرّ ، يركزون علم التحرر الكامل ، والوحدة الوطنية، والديمقراطية السليمة ، على ارفعِ قمةٍ من هذا الجبل العزيز ٠

ولئن كانت ساحاتُ النضال اللبنانيةِ والعربية معًا قد فقدت كمال جنبـــلاط بِحَجمه الضخمِ وطاقاته الزاخرة،فان الخُلق الكريم فقد فيه سجايا الرجلِ الامثل: بساطةً ، وزهدًا في العيش وتجلدًا على المكـــاره ، وتمردًا على كل طغيان ، واستشفافًا لِعالمٍ ما فوق زخرفِ المادة الغَرور ٠

ذِكرُ كمال سيبقى ، بسمةً على شفاه الكادحين المحرومين وستَبقى آثــــاره أهراماتٍ شامخةً تشيرُ بكبرٍ الى عظمة هذا العملاق ٠ في مَجالِي الافكار التقدمية العربية جمعاء ٠

وليت القضاءَ اخطاهُ ،لكان أَضفى ـ فوق وافر سَخائه ـ على المناقب الدرزية حِلىً ، أمتعَ ما كان ، واروعَ ما يكون ٠

١١ ـ « لا يفيد الانسان أن يكون [illegible]
منحصراً في داخله حضارة حقيقية » .

آثاره الفكرية

لقد احصى القيمون ما خلّفه قلمه فكان : زهاء ثلاثة آلاف افتتاحية [illegible]
[illegible]
[illegible]
الاشتراكي . وله حوالي ستين خطاباً وحديثاً مسجلة بصوته . [illegible]
[illegible] وسياسية ، [illegible] ومحاضرات جامعية [illegible]

أما ما صدر له من كتب فهو :

١ ـ الديمقراطية الحديثة .

٢ ـ أضواء على الحقيقة الوطنية

٣ ـ في ما يتعدى الحرف .

٤ ـ حقيقة الثورة اللبنانية ـ وفي مجاري السياسة اللبنانية .

٦ ـ ثورة في عالم الانسان .

٧ ـ احداث لبنان .

أقلام تحكي

عناصر البحث

أ ـ اقوالُ لمؤرخين اجانب وعرب

ب ـ اقوال لِعسكريين محاربين

ج ـ اقوال لِسُيّاح

د ـ مقتطفات من قصائدَ لِشعراء بارزين

أقلام تحكي

ما أشرف القلمَ ، حين يسوقه ضميرٌ حي ، ويسقيه موردٌ صِدقٌ ، لدى كل حدَث ومُعضل . والعشيرة الدرزية ، مَدينة انسانيةٌ ، الى رهطٍ كبير من معشر المؤرخين ، والشعراء ، والقادة العسكريين ، الذين بدّدوا بناصع بيانهم ، ضَباب الضِلة والافتراء ، نتيجة العصبيةِ الخرقاء ، عن الوجه الدرزي الصحيح . فعرّفوا به العالمَ العربي والعالمي ، تعريفَ باحثٍ نزيه .

لِنقرأ مع المؤلف فيليب حتي :

« في هذا الوطن الجبلي ، اكتسب الدروز ، على مر الاجيال ، تلك الصفات والمميزات ، التي عُرفوا بها ، في جميع مراحل تاريخهم : ولاءٌ صادقٌ للجماعة ، تضامنٌ جماعي قوي ، حبٌّ شديدٌ للحرية والاستقلال ، وصبرٌ على تحَمُّل المكارهِ والشدائد . » (١)

ولْنرافق المؤرخَ جواد بولس :

« وتتميزُ عائلاتهم (الدروز) بالضيافةِ المضمونة للغرباء ، وباستقامةِ السلوك والاخلاق .. وبفضلِ ما لديهم من شجاعةٍ وتماسُك .. حفظوا طوالَ التاريخ ، مُعتقدهم وخواصّهم واستقلالَهم . »

واكملَ المؤرخ :

«ولكن لِسوء الحظ ، حدثتْ خُصومات اثارها الغُرباء ، بين الدروز

والموارنة ·· ، أيُّ الغُرباء ، غيرُ أنفسنا ؟؟ (٢)

ان هذه المناقبَ ، دائمةٌ في طبع الدروز ما داموا ·

أما أسلوب الحكم، يوم كانوا اسياد البلاد ، فغيرُه في العهد الشهابي ، وقد عرَّف اسلوبَهم بايجاز ، الفيلسوف الفرنسي الكونت قِسطنطين فولني الذي ساكن اللبنانيين سنة ١٧٨٣ ، وتعلم لغتَهم ، قال :

« أما وظيفةُ الحاكم الدرزي (الرئيس الزمني) ف ··· وينبغي موافقةُ الاشراف ··· وكل شيخٍ او فلاحٍ يحظى بمكانةٍ ، لِرجاحة عقله ، وشجاعتِه ، يحق له الادلاءُ بصوتِه في هذه الاجتماعات · » (٣) اينَ الاقطاعية ، ازاءَ نظامٍ تليدٍ كهذا؟

ومَن سخَّرَ صاحبَ القلم النبيل ، المؤرخ يوسف ابراهيم يزبك لِيجهر :

« لقد حان لنا ، ان نُعلن رأيًا صريحًا في مذهب ··· (عني عقيدة الدروز) يأمرُ بالفضائل المثلى ·· انني ارفعُ صوتي جاهرًا : بالحقيقة والانصافِ وتصويبِ الاوهام ، وأن يَخرجَ من فم مارونيٍ ، بل من ضميرهِ وقلبهِ ، هذا الرأيُ ، لعله يستطيعُ محوَ ما علِقَ في ذهنِ قومِهِ ، مِن مَزاعِمَ غيرِ صادقةٍ · » (٤)

وهذا الاستاذ المربي مارون عبود يعود مرارًا لِيتحفنا قلمُه بما كان يتحسَّسُه بتعاطفِهِ الدائم مع هذه العشيرة يقول :

« يَمشي الـدمُ العربي في اعراقهـم
صِرفًا صُراحًا ·· والدليلُ المَنطـقُ »

ويُكمل : « الدروزُ عربٌ اقحاح ··· حافظوا على عروبتهم ، بفضل ما تحلوا به ، من مكارم الاخلاق ، والتمسكِ بتقاليدِ السلفِ الصالح ،والاحتفاظ بالعصبية القبلية ·· وقواعدِ المروءةِ والنخـوةِ والشرفِ ، وادابِ الحديثِ والمجاملةِ ، واللفظِ العربيِّ الصحيح ·· » (٥)

ويقص علينا فؤاد الاطرش وهو ابن جبل العرب فيقول :

« من امجاد بني معروف دفاعُهم وحمايتهم ، لأحرارِ العرب المضطهَدين ، مِن

قِبَل الاستعمار او عملائه · تحدثَ عن (سلطان الرشيد) الذي تقدم ذكره ، واوضح كيف فزع الدروزُ لمقاتلة الاتراك ، الذين وفدوا للقبض عليه ، وكيف ادبر هؤلاء ، حيث رفع الشبانُ المقاتلون سلطان الرشيد ، على الاكتاف ، في الاهازيج والحداء : (٦) ·

« نَبيعْ رواحنا من شانكْ يا ابن الرشيدْ
يا اغلى ضيفٍ نازلْ في غاب اسودْ
الدنيا منِ خلّي تشَتّي رِصاصْ وبارودْ
ويِشْعرا من راسكْ نِفدي كل العِربانْ · »

وذكر المؤلفُ نفسه نجدةَ عِياله (لِغالب ابن سراح) وكان غالبُ ، ابنَ اخت آل سعود ، فهرب من (عُبيد الرشيد) الاميرِ الحاكم ، الذي كان مُنضويًا تحت لواء الدولة العثمانية المستعمِرة ، وقد اختشت ، وتهيبت العربان استضافتَه ، مخافةً من السلطة والاميرِ معا · لكنه وجدَ الحمايةَ والتكريمَ في جبل الدروز ·

واردف المؤلف : « وحادثةُ (علي الحُنيف) مع (عُبيد الرشيد) مشهورة وذائعه · لقد وجه حاكمُ نجدٍ ، لِشيخ الخريشة ، مَطاعنَ في الدروز ·

اجاب الشيخ : هذه دِعاياتُ المغرضينَ والاتراكِ ايها الامير ، وكتبَ في اليوم نفسه شعرًا عاميًا قدّمه للحاكم · هذا نصه :

« العِزْ عِز الله ولِيّ الانفاسْ
وعِز آخرْ لِلابسينِ العمايم
··· الدروزْ لو رِكبوا على الخيلْ فرّاسْ
يا مِيرْ الله يعزهُمْ دومْ دايم
··· يا اللهْ يا للّي مِرتقبْ كل أَجناسْ
تفِكْ عنهمْ غايِلاتِ الظلايمْ ··· »

فلنتأملْ جراةَ هذا البدوي الغريب ، الذي لم يتهيب صولةَ الحاكم ، ولم يُداره ، مَن انطقه ؟؟ اهو حميمُ اليف ، ام مدافع مأجور ؟؟ انه الحقّ الذي يستصرخ اصحاب الذِمم ·

وكثيرًا ما كان يُخدع الدروز ، لِطيبةٍ في نفوسهم ولِترفعهم عـن الاكاذيب ، فتسببُ هذه الطِيبة احيانا انهزامًا وويلا عليهم · وهذه حادثة جرتْ قُبيـل الحرب الكبرى الاولى · قال المؤرخ :

لقد هاجم (سامي باشا الفاروقي) جبلَ الدروز ، ولكي لا يتصادمَ بهم، كلف مطرانَ حوران (نيقولاس) بنقل كتابِ عفوٍ عام ، عن كل ثائرٍ في الجبل ، اذا سلم سلاحَه ، وركن الى السكينة ·

فتقاطرَ الشبابُ لِتسليم الاسلحة ، خلا فريقًا منهم ، ظلوا مُوجسين مُتمسكين باسلحتهم ومُتمرّدين · فدارت رحى موقعة عنيفة · وكان يصحبُ القائدَ العام الفاروقي ، قرابة ثلاثين الفِ جندي ، وكانت مفارزُ الدروز ، بعضَ المئات · احتدم القتال ·· واحتدم ، واخيراً تقهقر المناضلونَ البواسل ، وعاث سامي الفاروقي في البلاد ، طولاً وعرضًا ·

تُعلق مَجلةُ الشمسِ اللبنانية ، في عددها الصادر بتاريخ (تموز وآب معـا سنة ١٩٢٧ بما يلي : « لو لم يتوسط بعضُ الزعماء المُحايدين للصلح ، لَتـمّ النصرُ النهائي للدروز ، **فصالحوا الدولةَ ، لكنها غدرتْ بهم ·** » (٨)

وفي عام ١٩٥٤ تحدى الزعيمُ الشيشكلي جبلَ العرب ، فاجتمع دروز لبنـان وقف المعلم (كمال جنبلاط) قائـلا :

« ان ابناءَ الطائفة الدرزية ، طليعةُ كل قضية تحريرية ، فَهُم الفداء لكل مبدأ خيّرٍ سامٍ ·· ولكل ديمقراطية ··· وهم الشهداءُ عندما يرتفع نداءُ الأستشهاد·· وهمُ القرابينُ التي تقدمُ في سبيل قضيةِ البلدان العربية · » (٩)

وقال الجنرال بيجيه :

« يؤمنُ الدروزُ بعُمقٍ ، أن السلطةَ ليست إلا لِسعادة الشعوب » · (١٠)

وقد زار لبنانَ وسوريا **القِسّ البريطاني بورتر** ، في الثلث الاول للقرن التاسع عشر ، وكان شاعرًا ، فنظم بلُغته ما مَعناه ،

« شُجعانٌ اشدّاء ، أُباة ذوّادون عن الحرية ··

وهذه المنازلُ المتلفّعةُ بالعواصف ·· منازلهُـمْ

انهم همْ وحدهم ·· بينما كل منَ حولهم ·· يركعُ

ضارعاً ·· خاشعا ·· لِلسيفِ العثماني ··

·· يُعلمونَ رايةَ الطغاةِ ، ذاتِ الهلال الشاحب ،

أن تخافَ الغَضَباتِ الوطنية ، من أَسِنَّةِ رماحِ الجَبل ·» (١١)

ولعل هذه الاقوال طبعت اثرا عميقا في نفس الاديب الكبير : **عمر فرّوخ** حين تضَلع من دراساته في التاريخ ، فجعلته يصرح :

« التاريخُ في حوضِ البحر المتوسط الشرقي : تاريخُ الدروز » ·

يعود كلامه الى ما قبل عهدِنا الميمون ، وقبل مذابح عامي ٩٧٥ ـ ٩٧٦·ثـم نراه يزيد توضيحـًا فيقول :

« ·· وكان للدروز في حركتهم الدينية ، عبقريةٌ عمليةٌ تلفتُ الانظار ·· بدأت منذ اوائل القرن الخامس الهجري ··· **لقد استطاع المذهبُ الدرزي ، ان يقـر في نفوس اتباعه ، نظاماً اخلاقياً عملياً ، يندرُ ان نجد مثله ، بمثل هذه القوة ، وذلك الاستمرار : عشرة قرون متوالية · ويُظن ، ان حسنَ الاخلاق في المذهب الدرزي ، جزءٌ من الدين ، والدرزي مُتصف بالعفافِ والصدقِ واتيانِ الفضائل·· ولكن مكانَ العبقرية هو في ان هذا الامرَ ، لم يفقد سلطتَه الى اليوم ··· لقـد اصبحتِ الاخلاقُ جزءًا من الحياة الدرزية** · » (١٢) اي مَغنم لِهؤلاء الادبـاء الكبارِ في ما يُصرحون به ؟؟ اليس ذلك ، صوت الحق وحدَه ؟؟

وقد اكد سلطان الاطرش عام ٩٢٥ حين طُلب اليه الكفُّ عن الثورة ، والاتفاق على المطالب سلما لا عنفا ، فنقَل تصريحَه المؤرخ حنا ابو راشد · قال :

« **لقد حاربنا تركيا مُضطرين ، وحاربنا الجِوار مُرغمين** ·· كنا مندفعيـن بعاملِ الاستقلال ، وايجاباً لِصوتِ الواجب الوطني ·· » وقال : اننا نسالمْ ، اذا ثبتَ لنا صيانةُ عِرضِنا ومُعتقدِنا وحُريتِنا · (١٣)

وقال المؤلف نفسه ، انه التقى مُتعِبَ الاطرش ، احد زعماء الثورة، وسأله عن خُطط جماعته فأجاب :

« اننا نعتبرُ ثلاثةَ مُثلّثات : مثلثاً نحافظُ عليه وهو : حفظُ العرض ، حفظُ القومية وحفظُ العادات ٠ ومثلّثا نُجبر على فِعله وهو : الدفاعُ عن العرض ، الحربُ على من يخرق حدودَ استقلالنا ، وذبحُ من يمسّ كرامتنا ومعتقداتنا ٠ ومثلثا نختارُ القيامَ به وهو : صيانةُ الضيف وخدمته ، والطاعةُ لِاولياء امورنا، والولائمُ في افراحنا واتراحنا ، مع مُواساةِ من يلتجىءُ الينا ٠» (١٤)

ويحدثنا ويُسهب الاستاذ ابو راشد ، وهو اللبناني المولد ، والعَريف بأمور وعاداتِ وتاريخ الوطنِ الأمُ فيقول :

« كانَ الدروز اسيادَ البلاد (لبنـان) في مدى ، اربع مئة سنة ، انتهت تلك السيادةُ بعد حرب عيندارة سنة ١٧١١ (اي حينَ تسلم الشهابيون حكم البلاد ، بلفتةٍ وعطفٍ ومحبةٍ من الدروز ٠) »

ويستمر الاستاذ في الكلام : « ولكنِ من هزَل الزمانِ الحاضر ، فـي لبنان ، أنواضعي تاريخِه اليوم ، منِ المؤلفينَ ، خصوصا ، لِكتب التدريس ، يتجاهلون ويُغفلون ذكرَهم ، او الاشارةَ الى تلك الحِقبة من العزة القومية ، التي اعلـى منارَها الدروز في هذا الوطن ٠٠٠ يَحفزُهم (واضعي التاريخ) لِذلك ، شعورٌ طائفي ، هو اصلُ البـلاء ، ومصدرُ الـداء ، فـي تكويننـا المتفكك ٠٠٠ »
وبعد ان يَحصى حروب الدروز ، دفاعا عن الوطن ، ضد غزوات الترك والمماليك، وابراهيم باشا ، ونابليون ، وفرنسا ٠ يُكرر : « تلك الاقلية حُملت امانةَ الدفاع عن البلاد ، ووَضعت في عُنقِ الوطنِ دَيْنا ، يُنكره عقوقُ المؤرخين ، المرضى بفقرِ الدم ، وإن كانوا الآن مُستمتعين بنعمةِ الاستقلال ، الذي لم يدفعوا له ثمنا ،نقطةً واحدة من دمائهم ٠٠ في سَيلِ ما نزَفَ ، من جِراحِ الدروز ٠ (١٥)

وفي محاولتنا تقريب الابعاد ، على مسامع ونواظر القرّاء ، يتوجب علينـا ان نقبس بعض عبارات ،من الخطاب الذي القاه بنفسهِ رئيسُ الجمهورية اللبنانية السابقِ كميل شمعون ، لدى وَضع حجرِ الاساس لِبيتِ الطائفةِ الدرزية فـي (١٦ـ١ـ١٩٥٣) قال امام الجماهير المحتفِلة وامام المؤلف نفسه :

« ٠٠ وما نشأ الدروزُ الا على اسمى السجايا ، فهم في كل عهد ، سادةٌ واباةُ ضيم : كيَنبوع الصفا خشنوا ورقوا ٠ عزةٌ في هِمم ، واتضاع ، في شَمم ، ووفاء للجار ، وذمة للاخوّة ، وشجاعة دونها الدرع والمِجنّ ، وصفحات مشرقة ترتقي الى القرنِ الخامس للهجرة ، يوم تاصلوا عروقا في لبنان ، فكانوا لهُ مِن ابـرّ

الابناء وكان لهم من اعز الاوطان ..» (١٦)

اجل كان لهم من اعز الاوطان ، يوم كانوا حُماة تخومه من اي عدوان .

ولنعرْ سمعنا الى وتر الشعر واحاسيس الشعراء العرب وتقديرهم لمناقب الدروز : ولم يَغفل الشعراء قبلا آل تنوخ وامجادهم ، فقد مدحهم شاعرهم المجليّ محمد الغزّي فقال :

« حيا الحيا غربَ ببروت ومن فيه
وجودَ كفِ (ابن سعد الدين) تكفيهِ (التنوخي البحتري)

غربٌ غدا مَشرقًا للجود .. ما برحت
شمسُ المكارم تُضحي في ضواحيهِ

هل لِلحسينِ ابن خُضر في الورى احدٌ
جودًا يضاهيه .. او باسًا يُباهيهِ ؟؟

ان قلتَ ليثًا .. فما لليث همته
اذا سطا يومَ حرب في اعاديهِ

... او قلتَ بَحرًا .. فاينَ البحرُ من رجلٍ
لو اعطيَ البحرَ .. أعطاهُ بما فيه ...»

وامتدح غيرَه من آله قائلا :

« بِكُم اشرقت بعد الظلام ديارُ
واضحى عليها هيبةٌ ووقارُ

... أيا آلَ عبدِ الله أبنا جُميهر
ومَن لهمُ .. ماءُ السماء نِجّارُ (آل تنوخ)

... ولا زلتمُ مثلَ الأَهلَّة في السما
اليكم باطرافِ البَنانِ يُشارُ » (١٧)

وفي الحقبة التي تولى المعنيون فيها حكم البلاد ، كانت النفوس زاخرة بالحماسة ، للذود بالحسام ، عن تخوم الوطن ، ولم يكن للقلم والشعر من دور قط . كانت الانتصاراتُ الباهرة هي القصائدَ المعلقة ، والآثارَ المخلدة ، بحقٍ

لهذا الوطن ، منقوشة على الصدور ، وعلى صفحات التاريخ ، لا على صخور نهرِ الكلب ، حيث هي : رموزٌ لِلأحتلالِ والأستعباد ·

وبعد عصر النهضة ، واستفاقة الشعر من سُباته ، واستعادة تسعير النضال العربي ، بعد الحرب الكبرى الاولى ، قال شاعر الشباب **بديع عبد الصمد** :

« بنــــو معروفَ فـي حـدِّ السيوفِ
اعــادوا مِنعـةَ الجبـل المُنيــفِ

علــى « أبراهيـمَ والاتـراكِ » ثـاروا
فطـالـعَ خصمُهـم زُرقُ الحتــوفِ

شبابٌ مـا اعتـدى لكـنَّ خصمـاً
زنيمـاً غــرَّهُ عــددُ الصفــوفِ

فـلاقـى بالمجـازرِ ايَّ هَــولٍ
وفتــكٍ : بالمئـاتِ وبـالألــوفِ

وغـــرَّ فرنسـةً او غررتهـــا
عصائبُ اوقعتهـا في خُسـوفِ »

وقال الشاعر المهاجر الياس فرحات :

« مَرحـى بنـي معـروف ان لكـم
جيشـاً تضيـقُ بِخيلِـهِ السبـلُ

جيشٌ مـن المجـد الـذي رفعـت
اعـلامَـهُ ·· الخطيَّـةُ الذُبـلُ

يـا سائلـي عنهم ·· أتجهلهـم
وهـمُ الذيـن على العلـى جُبلـوا

وهـــمُ بنـو معروفَ ·· هِمتهـم
بيـن الكواكـب والـورى مثـلُ

··· والعدلُ يجعلُ شيخَهـمْ حمـلاً
فـإذا ظلمتَ استأسـدَ الحمـلُ

هُــمُ نــابُ سوريــا ومِخلبُهـــا
وهي اللبوءة·· والعِدى·· همل» (١٨)

وقد هزَّت نخوةُ الدروز ، فيلسوفَ العراق الشاعر جميل صدقي الزهـاوي ، فنظم فيهم قصيدة عامرة نستشهد منها ، لِضيق المجال في البيتين التاليين :

« وآل معـروفَ ، مـا في مدحهـم ملقٌ
سيوفهـم نقشت امجادهـم قِدمــا
وضيفهـم نـاءَ عـن تَعداد بِرّهـم
في شامخٍ ، دفقت اعرافه كرما ··» (١٩)

وترنح قلمُ شاعر الفيحاء « دمشق » خير الدين الزركلي فقال من قصيدة :

« إيـــهٍ فرنســا استبـدي
ان الــزمـــانَ استبـــدا
خلّــي الكريــمَ ذليـــلا
وصيـري الحــرَّ عبـــدا
··· ان السويـــداءَ كانت
ولــم تــزل لــكِ لَحدا ·· » (٢٠)

وانشد شاعر جبل عامل العلامة الشيخ سليمان ضاهر :

« ··· نصروا العروبـةَ في المواطن كلهــا
وهـمُ لهـا ·· في النائبــاتِ حصــونُ
·· اقــلامهــم مشحــوذةٌ كسيوفهــم
لــم ينجُ منهم : هــاربٌ وحصيـنٌ »

وانشد الشاعر اللبناني مسعود سماحة :

« ·· قالوا بنـــو معروفَ ··قلتُ : اعـزةٌ
خلَــقَ الزمـــانُ ·· وفضلهـم لـم يخـلقِ

غرسوا (بحـــوران) الحديـــدَ ، فاينعت
ونمت اسنّتـــهُ .. بغوطـــةِ جلـــقِ

... فخِلالهـــم .. كَظُبى السيوف ، بعزمها
وبلطفهـــا .. كالكـــوثـرِ المترقـــرق
كـــرمٌ على باسٍ .. على شَمـمٍ .. علـــى
عزمٍ .. على حـزمٍ .. على اصـلٍ نقي .»

وهذا مقطع من قصيدة عامرة بالعواطف الوطنية والانسانية ، للشاعر **نعمان ابو شقرا** ، قالها اثرَ مناظرةٍ بينه وبين بعضِ كبارِ الموظفين العُملاء ، حيـــن ادّعوا ان الدروزَ جماعةُ شغبٍ وفوضى وتعطشٍ للدم :

« نثــورُ .. ولا نبغي التظلُّـمَ فـي الحمى
ولكـــن .. لِترسيخِ الحقـــوق .. نثـــورُ
... واجسادُنـا هذي .. قشورٌ ، لُبابُهـــا
نفوسٌ .. علـى خيـــرِ الدروبِ تسيـــرُ
... نِضالاتنـــا صونـــاً لِعـــرض وتربـــةٍ
وتذليـــلَ مـــن يغزو الحمى ويجـــورُ
ولـــولا احتـدامُ الشر لـم نوقـــدِ اللظـى
وكـــم اخمـدتْ نـــارَ الشرورِ .. شرورُ !!
... ونحـــن الندى .. لـــولا مضافاتُ ربعِنـا
لأودى رَعيـــلٌ فـي الـــدروبِ غفيـــرُ
وفي السِلم نحنُ الطيبُ ، في مَرجـةِ الحمى
ونارٌ .. اذا جـــازَ الثغـــورَ مُغيـــرُ
.. وامجادُنـــا : فـــي وحـــدةٍ وطنيـــةٍ
فينعـــمُ شعـــبٌ جاهـــلٌ وفقيـــرُ
.. ونبعثُ في الاجيـــال .. نَفـــخَ مروءة
نمـــاهُ صليـــلٌ راعـــد .. وصريـــرُ .»

ان نفحة المروءة ، التي عناها الشاعر ابو شقرا ، انما هي قبسٌ من ذلـــك

الشعاع الروحي ، الممتد عبرَ الاجيال السحيقة ، ذلك الشعاع ، الـذي اعيى الاحقابَ والاحداث الجسيمة ، وغزوات المجتاحين الطامعين ، في الارض وناسها، وسيبقى مُشعا ما بقيت العقيدة ، وما تنامت المروآت ، وتأصلت الانسانية فـي صدر الانسان . لقد استطاع الشاعر ، في هذه الابيات الوجيزة ، ان يختصرَ مؤلفًا ضخما ، لِيحصى ما للدروز من مناقب ، زرعتها في صدورهم رسائلُهـم الروحية ، ثـم بلورَتها ، وغذتها وهذبتها ، احـداثُ الساعـة . فـي كـل زمان .. قبل الكشف الاقدس ، وقبل هِليوبوليس ، وبابل ، وانسان پاكين . وبعد هذا الكشف ، بعدَ اعجوبة القاهرة ، ومِحنة انطاكيا ، ومِنعة بيروت ، وبعقليـن والسويـداء .

قال شاعرنا : ان الدروز لا يقاتلون تَظلُّماً ، او حبًا بمكاسب ،مادية ومعنوية، او تعطشًا للدم ، انما قتالهم وتضحياتهم ، وانفجاراتُ غاراتهم ، هي لِتثبيـت حقٍ هُضم ، وسيادةٍ استُبيحتْ ولِتأديب طاغيةٍ عتا وتعسَّف .

ان الدمَ الدافق من جراح شهدائهم ، لا توازيه نفائسُ الارض كلها فحاشا ان يهدروهُ ، من اجل بعضِ نفائسها .

ثم عرَّف الشاعرُ طريق النفس الناطقة ، وقيَّم بصدقٍ ، ذلك الجسد الفاني ، واوضح بجلاء ، ان نفس الدرزي ، لا تنزعُ الى الشغب والثورات ، ولا تخـوض الجماعةُ الغمرات ، الا دفاعًا عن الذِمار ، وهل كان = اثبتَ من توالي الاحداث، عبرَ التاريخ الطويل ، الزاخرِ بالنضال ، بُرهانٌ دامغ ؟؟ =

واما الخاتمةُ ، التي تُلمع الى الوحدة الوطنية ، فان تاريخَي سوريا ولبنان ، مُرصعان بالادلة الحسية ، على ما بذلت وتبذل تلك الجماعة ، من نضـالات وتضحيات ، لِخلق وتوثيقِ عرى هذه الوحدة ، في كِلا البلدين ، تهيمن عليهـا انظمةٌ ديمقراطية صحيحة .

وقد نشرت جريدة النهار البيروتية ، بتاريخ ١٤ـ١٢ـ٩٧٤ تحليلا ، بقلم الاب يُواكيم مُبارك نقتطف منه هذه العبارة :

« .. المرحلة الاولى من تاريخ لبنان الحديث : .. مرحلةٌ درزية صرفًا . **انهـا ارادة الدروز الطامحة ليس الى حرية التميز الروحي فقط بل الى حرية الدعوة في نطاق الاسلام وخارجَه .. سعيٌ دؤوبٌ وراءَ الاستقلالِ السياسي داخـل**

الامبراطورية العثمانية ٠٠٠وكان الموارنةُ في طليعةِ من انضمَّ الى هذه الدرزية وسعى فيدروبهــا ٠٠»

وقال سماحة الشيخ محمد ابو شقرا في مجلة الضحى تاريخ كانون الثانــي سنة ٩٧٨ مختصرًا مناقبية عشيرته :

١ ـ « الموحدونَ « الدروز » اختاروا العقلَ امامَهم ، ولبوا دعوةَ الخيــر الهاديــة ٠

٢ ـ دينُ التوحيدِ مبني على كلِمتين : امرُ ونَهيُ ٠ امرُ بالخيرِ والمعروف ٠٠ ونهيُ عنالشرّ والمنكر ٠

٣ ـ رأسُ الخيرِ واصله « الصدقُ » وهو اولُ فريضة توحيدية ٠

٤ ـ الموحدونَ « الدروز » تقبَّلوا الاسلامَ دينًا ، واتخذوا الفاطميةَ مذهبًا ٠

٥ ـ المعنيونَ « الدروز » هم اولُ من اقامـــوا دولةً مستقلةً في المنطقـــة العربية ٠»

ويضيف سماحته في موضع آخر :

« بتاريخ ٢٩ أيار عام ٩٤٥ أَسَرَ المناضلون في جبل العرب ثلاثةَ عشرَ ضابطًا فرنسيا ، ورفعوا العلمَ السوري لاول مرةٍ على مركزِ الحكومـــــة ، وقال : **« ان تحررَ البلاد العربية ، وقد تكون الشرقية ، من الاستعمارِ . قد بدأَ في مَوطنِ الدروز ٠»**

ويحسن بنا ، في مساق الكلام ، ان نُسجل هذا الحدَثَ الذي رواهُ المــؤرخ اللبناني (ابراهيم بك الاسود) قال :

« كان القاضي الاميرُ (زينُ الدين التنوخي) مُشتغلاً في بناء مطحنة (على ضفة نهر الصفا) ٠ مرت فتاةٌ بالقرب من الفَعلة ، وخاضت فيمياه النهـــر لِتجتازه ، فشمّرتاثوابها خِشية البلل ، فتغامزَ بعضُ الفعلة ٠ رآهم الاميـر ، فثارت مروءتُه ، وأمر على الفور بالكفِّ عن بناء المطحنة ، وبناء قنطرةٍ فـــوق النهر ، لِلعبور عليها ٠٠ ولبثَ في ذلك المكان ، اربعينَ يومًا ويومًا ، حتّى تـــمّ

بناءُ القَنطرة ٠ ،واسم تلك القنطرةِ الى اليوم : جِسرُ القاضي ٠ (٢١)

فالعِبرةَ يا اربابَ الشرفِ والثِراءِ والقَضاء !!

واضاف المؤرخ نفسه : « ان العُقال (الدروز) يجبُ عليهم : **التاني والرزانةُ والعفةُ وصدق اللسان من كل شتم وسباب وطعن ٠٠ وعدم التهور في الاقوال والاعمال ، والتزامُ الصدق في اللفظ ،والبساطة في المأكلِ والمشربِ والملبس ٠٠ واجتنابُ المسُكرات ٠» (٢٢)**

وعاد فأوضح : « **ان الكثيرين من نصارى الانحاء الشمالية في لبنان ، جلوا عنها في اوائل القرن السابع عشر ، فرارًا من بعض المظالم ، ولجأوا الى الانحاء الجنوبية التي كانت في يد اكابرِ الدروز ، فشادَ لهم هؤلاءِ الكنائسَ ، وعاونوهم في أمورِ دينِهم ووقوهم من التعدّي ، وأسوهم بالاموال ٠» (٢٣)**

هل أُطّلع على ذلك اولو الامر من مُدبّري المؤآمرات ؟؟

وانهى المؤرختوضيحه ، بعد أسهابٍ شيق وصادق ، بهذه الجملة المُعبرة :

« انهم (الدروز) شديدو التمسك بالناموس الادبي ٠» (٢٤)

وبعصفة اباء ، في ختام هذا الكتاب يرتفع القلم الى اصدق منهل ، لتدوي عباراتهُ خاتمةٌ لاقلامٍ تحكي ـ بهذا التصريح ، للجنرال الخطير (ويغان) ، القائدِ الاعلى لجيوش فرنسا في الشرق ، نطق به ، في المقدمة لِكتاب الجنرال اندريا ، بعد نزوله سوريا ومحاربته للدروز قال : « ان الدروزَ هم العنصرُ الحربيُّ ، الذي لا غِنىً عنه لِنجاح كل ثورةٍ سورية » ٠

ثم اكمل ، مُوجهًا توصيتَه للمؤلف : « **عليكَ ان تواصلَ البحثَ ، الى ان تصل الى تاريخ الشعب الدرزي ، فتَدرسُ اخلاقَه ، وعاداتِه ، وطباعَه ، لِتظهرهُ لنا مُتحليًا بفضائلَ ومحاسنَ تغبطهُ عليها أرقى الامم ٠ ثم عليكَ ان تَشيدَ بطهارةِ حياة الدروز العائلية ، وببشاشتهم في الاحتفاءِ والضيافة ، واستقامتِهم في الاعمال ٠٠ وان تُعجبَ ، كَجندي ، بشَجاعتهم التي لا تُقمعُ ، وبصلابتِهم في المعارك ٠» (٢٥)**

أيعقلُ ، ان ينحدرَ هذا القائدُ الخطير ، الى الزُلفى ؟؟ فعلامَ تعتيمُ الحقائق ، والتنكرُ لِلفضلِ ، ومعاداةُ اخوانِ الديارِ ورفاقِ السلاح ؟؟

حبذا لو تُهيبُ بنا الضمائر ، بعد ايقاظها ، للعودة الى الالفة والوئام ضمن هالةٍ مُشرقةٍ ، من الديمقراطية والمساواة ، ولو كان في هذه الامنية الغالية ، تفويتُ السوانحِ على المتسلطينَ المغرّرين (بكسر الراء) ، وحسب .

الهوامش

١ ـ لبنان في التاريخ ص : ٢٢٠ .

٢ ـ تاريخ لبنان ص : ٢٧٠ .

٣ ـ جواد بولس في تاريخ لبنان ص : ٣٢٤ . عن المؤلف ص : ٢٢٧ ـ ٢٤١ .

٤ ـ من مقدمة كتاب الدولة الدرزية ـ طبعة ١٩٦٧ ص : ١٤ .

٥ ـ امين طليع المرجع نفسه ص : ١٧ .

٦ ـ حاضر العالم الاسلامي ـ طبعة اولى ص : ١٠٥ . عن فؤاد الاطرش ص : ٢٩٥ .

٧ ـ الدروز لفؤاد الاطرش ص : ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

٨ ـ سعيد الصغير (بنو معروف) ص : ١٤٧ .

٩ ـ المرجع نفسه ص : ١٠٧ .

١٠ ـ الدولة الدرزية ص : ٦٢ .

١١ ـ مدن العمالقة ص : ٧٠ وعبيد ص : ٦٩ .

١٢ ـ عبقرية العرب في العلم والفلسفة الطبعة الثالثة ص : ١٨٥ .

١٣ ـ حوران الدامية ص : ١٦٢ .

١٤ ـ المرجع نفسه ص : ٢١٤ .

١٥ ـ المرجع نفسه جـ٢ ص : ٥٨٣ ـ ٥٨٤ .

١٦ ـ مجمل الصحف اليومية اللبنانية بتاريخه ثم حوران الدامية جـ٢ ص : ٥٧٢ .

١٧ ـ نويهض ، المرجع السابق ص : ٤٢ ـ ٥٨ .

١٨ ـ ديوان فرحات .

١٩ ـ ديوان الزهاوي (بغداد) .

٢٠ ـ ديوان الزركلي (دمشق) .

٢١ ـ ذخائر لبنان

٢٢ ـ المرجع نفسه ص : ١٢٢ .

٢٣ ـ المرجع نفسه : ص ١٢٥ .

٢٤ ـ المرجع نفسه ص : ١٢٦ .

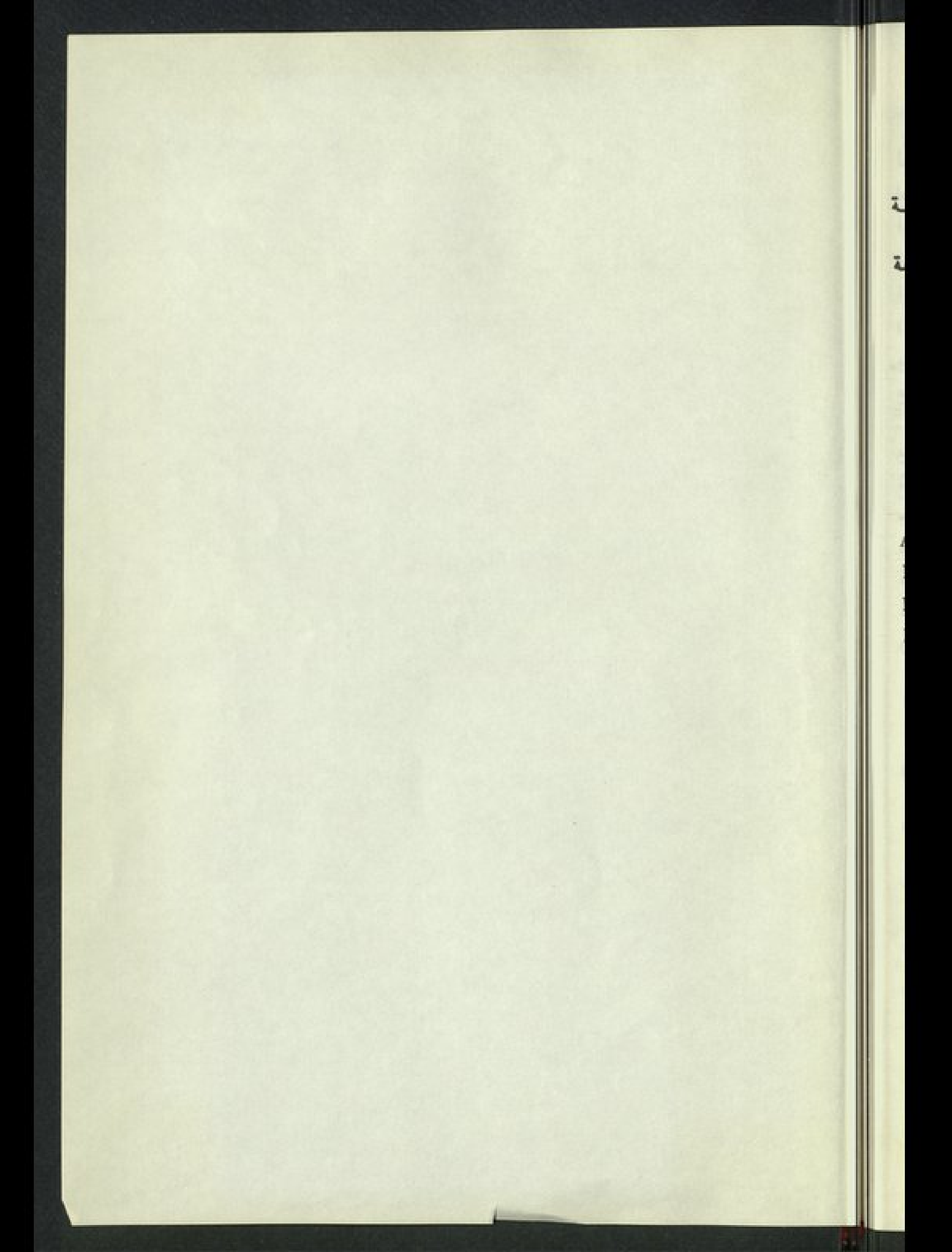
٢٥ ـ مقدمة كتاب ثورة الدروز للجنرال اندريا طبعة ١٩٧١ .

اسم المؤلف	المصادر العربية الرئيسية للكتاب
ابو الحسن سعيد	بنو معروف بين السيف والقلم ، مطبعة الجبل ١٩٤٤ ٠
ابو راشد حنا	جبل الدروز (مصر) مكتبة زيدان ١٩٢٥ ٠
ابو راشد حنا	حوران الدامية ، الطبعة الاولى (مصر) ١٩٢٥ ٠
ابو عز الدين سليمان	ابراهيم باشا في سوريا (بيروت) طبعة اولى ٠
ابو مصلح غالب	الدروز في ظل الاحتلال الاسرائيلي ، طبعة اولى ١٩٧٥ ٠
الاسود ابراهيم	ذخائر لبنان ، ١٨٩٦ ٠
بدوي احمد	تعريب تاريخ الشرق القديم للمؤرخ (برستد) ٠
بستاني ادوار	تعريب الكتاب الذهبي لجيوش الشرق سنة (١٩١٨ ـ ١٩٣٦) للجنرال هنتريجر ٠
بولس جواد	تاريخ لبنان ، طبعة اولى ، ١٩٧٢ ٠
ثابت كريم	الدروز والثورة السورية (القاهرة) طبعة اولى ٠
حتي فيليب	لبنان في التاريخ ، ١٩٥٩ ، طبعة اولى ٠
حسين محمد كامل	طائفة الدروز (القاهرة) طبعة اولى
خباز حنا	فرنسا وسوريا (مصر) طبعة اولى ، علم الدين ١٩٢٨ ٠
خله كامل	الانتداب البريطاني (فلسطين) طبعة اولى ٠
رستم اسد	تاريخ الثورة الدرزية (١٨٣٤ ـ ١٨٣٨) مكتبة الجامعة الاميركية (بيروت) ٠
الريس منير	الكتاب الذهبي ، بيروت ، ١٩٦٩ ٠
الزعبي محمد علي	البوذية ، الطبعة الاولى ٠
زين نور الدين زين	وثائق اساسية في تاريخ لبنان الحديث ، دار البلاد ، بيروت ، ١٩٧٤ ٠
سعيد امين	الثورة العربية الكبرى (ثلاثة مجلدات) دار احياء الكتب العربية (مصر) ١٩٣٣ ٠
شلبي احمد	اديان الهند (القاهرة) طبعة اولى ٠
شهبندر عبد الرحمن	الثورة السورية الوطنية (مذكرات) دمشق ، ١٩٣٣ ٠
مجلة الضحى	اصدار بيت الطائفة الدرزية ٠
العاصي محمد سعيد	(ثلاثة اجزاء) عمان ، ١٩٢٩ ٠
عبيد علي	ربابة الثورة ، دمشق ، ١٩٦٧ ٠
العقاد عباس مجمود	الله (مصر) طبعة ١٩٦٤ ٠
فروخ عمر	عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، طبعة ثالثة (بيروت)
فريدريك زريق	سكوت سراي (دمشق) ١٩٣٦ (معرب) ٠
القنطار علي سيف الدين	(معرب) ثورة سلطان الاولى ١٩٢٢ ٠

كرامي اخوان — ثورة ١٩٥٨ ، طبعة اولى ٠
كرباج مهنا — رجالات جبل العرب ، ١٩٦١ ، طبعة اولى ٠
كرد علي محمد — خطط الشام (ثلاثة اجزاء) الشام ، طبعة اولى ٠
المصري حسين — الصحابي الجليل سلمان الفارسي ، ١٩٧٣ ، مكتبة الانجلو المصرية
مظهر سليمان — قصة الديانات ، مطبعة الوطن العربي ، (مصر) طبعة اولــى ٠
نجار عبد الله — بنو معروف في جبل حوران ، ١٩٢٤ ، طبعة اولى ٠
الهجري وابو دبس — مخطوطة (في الجامعة الاميركية) ٠

المصادر الفرنسية

Le nom	Références
Andréa, Général	La revolution Druze Paris Payot 1937 .
Beauplan R.	Où va la Syrie ? Paris Tallandier 1929 .
Bonardi P.	L'Imbroglio Syrien Paris Rieder 1927 .
Bordeaux H.	Dans la montagne des Druzes Paris Plon 1926 .
Bouron , Capitaine	Les Druzes Paris Berger Le vrauld 1930 .
Carbillet , Capitaine	Au Djebel Druze - Chauses Vues et Vécues , Paris Argo 1929 .
Gouraud , Général	La France en Syrie (Revue fr. 1 - 4 1922).
Lifienthal Alfred	What Price Israel (Institue for Palestine) Beyr. 1969 .
Pouleau Alice	A Damas sous les bombes Paris 1927 . Traduction I. Houneidi .
Saint Point V. de	La Vérité sur la Syrie par un temoin Paris Presse d'Art E. dip. 1929 .
Taylor Alen	Prélude to Israel (Inst. Palest 1970) et Civilisation primitive.
	Plusieurs brochures qui se ropportent a notre sujet de : Que sais - je ?



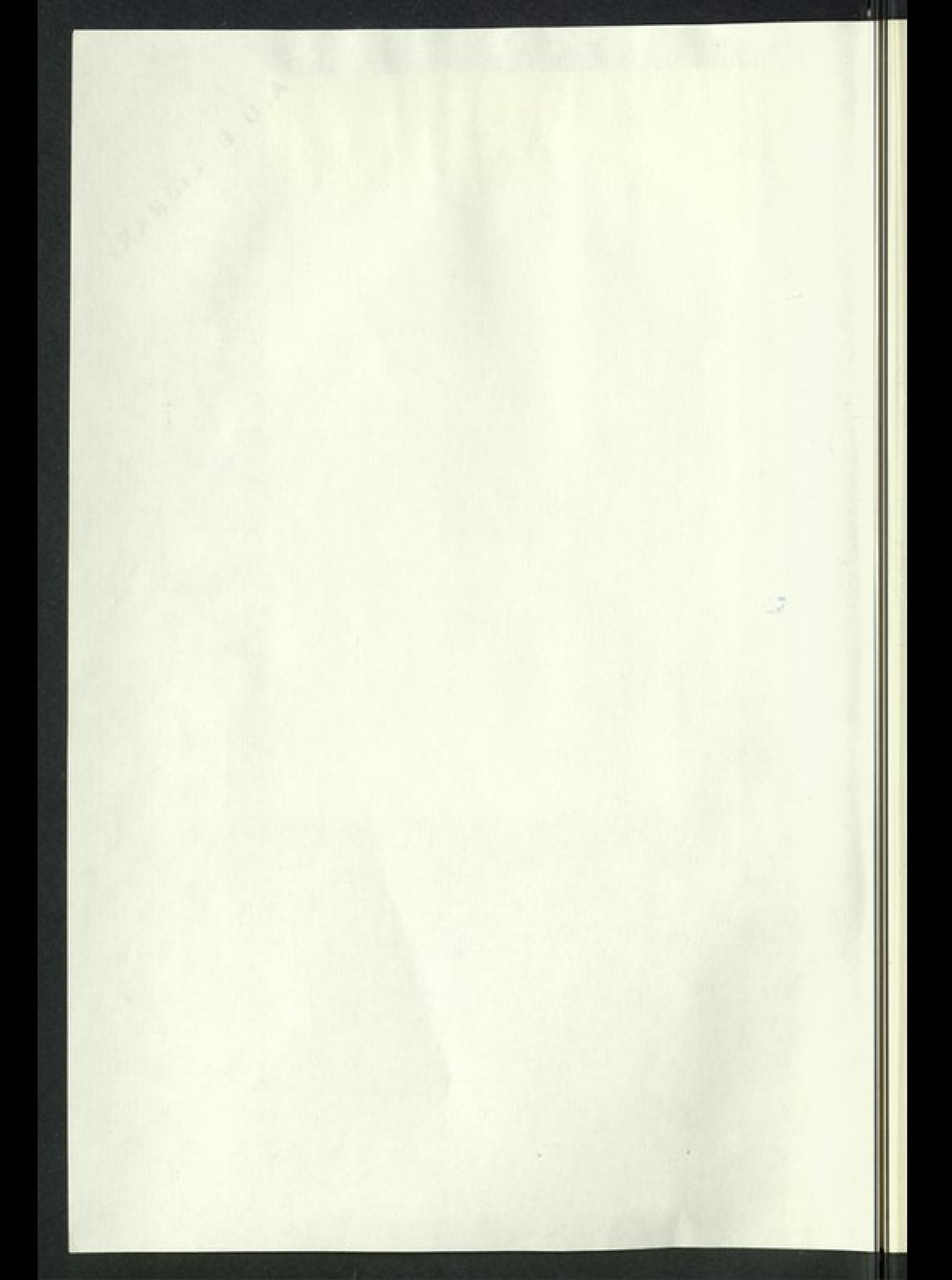
كرامي ، افوان — ثورة ١٩٥٨ ، طبعة اولى .
كرباج ، مهنا — رسالات جبل العرب ، ١٩٦١ ، طبعة اولى .
كرد علي ، محمد — خطط الشام (ثلاثة اجزاء) الشام ، طبعة اولى .
المصري ، حسين — المصطفى العادل سلطان الفارسي ، ١٩٣٢ ، مكتبة الانجلو المصرية .
مظهر ، سليمان — قصة الديانات ، مكتبة الوطن العربي ، (مصر) طبعة اولى .
نجار ، عبد الله — بنو معروف في جبل حوران ، ١٩٢٤ ، طبعة اولى .
الهجري وابو عيش — مخطوطة (في الجامعة الاميركية) .

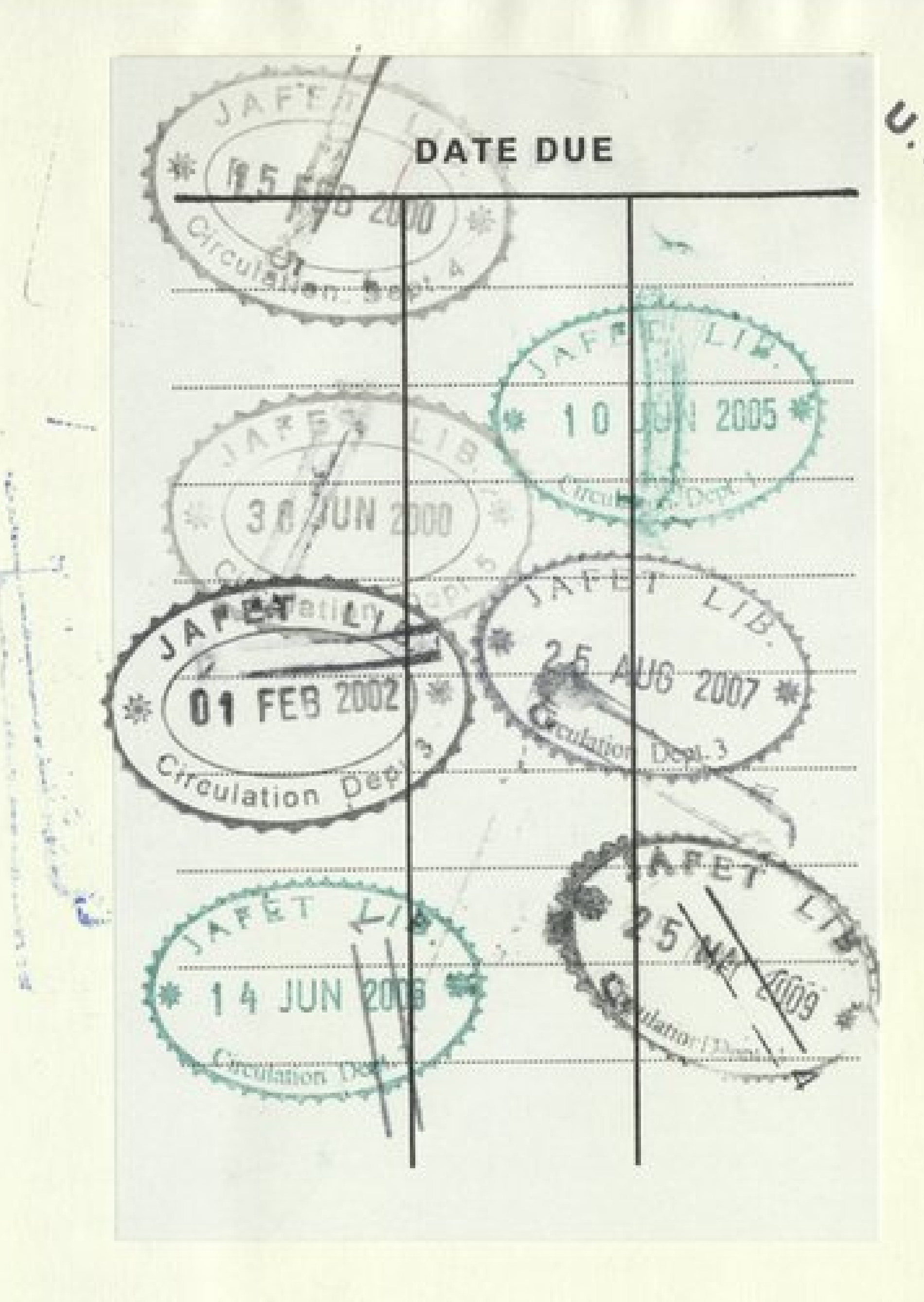
المصادر الفرنسية

Références

Le nom

Andréa, Général — La revolution Druze Paris Payot 1937.
Beauplan, R. — Où va la Syrie ? Paris Tallandier 1929
Bonardi, P. — L'Imbroglio Syrien Paris Rieder 1927.
Bordeaux, H. — Dans la montagne des Druzes Paris Plon 1926.
Bouron, Capitaine — Les Druzes Paris Berger Levrault 1930.
Carbillet, Capitaine — Au Djebel Druze — Choses Vues et Vécues, Paris Argo 1929.
Gouraud, Général — La France en Syrie (Revue fr. 1 - 4 1922).
Lilienthal, Alfred — What Price Israel (Institute for Palestine) Beyr. 1969.
Poulaine, Alice — A Damas sous les bombes Paris 1927, Traduction I. Homeidi.
Saint Point, V. de — La Vérité sur la Syrie par un témoin Paris Presse d'Art E. dit. 1929.
Taylor, Alan — Prelude to Israel (Inst. Palest 1970) et Civilisation
Plusieurs brochures qui se rapportent à notre sujet de : Que sais - je ?




DATE DUE
JAFET LIB.
10 JUN 2005
Circulation Dept. 1
30 JUN 2000
01 FEB 2002
Circulation Dept. 3
25 AUG 2007
Circulation Dept. 3
14 JUN 2006
Circulation Dept.

